

عبدالرحمن الوكيل

وقضايا التصوف



الشيخ فتحي أمين عثمان

الألوكة
www.alukah.net

جماعة أنصار السنة المحمدية

تقدم

من تراث شيوخها

عبدالرحمن الوكيل

وقضايا التصوف

إعداد

فتحي أمين عثمان

دبلوم الدراسات والبحوث الإسلامية العالية

جماعة أنصار السنة المحمدية

تقدم

من تراث شيوخها:

الشيخ/ عبدالرحمن الوكيل

((وقضايا التصوف))

إعداد

فتحي أمين عثمان

بسم الرحمن الله الرحيم

وبه نستعين

الشيخ عبدالرحمن الوكيل ومنهجه العلمي

إنه لما يوجب الحمد والثناء والشكر لله أن قيض للإسلام، عالما فاضلاً، وباحثاً كبيراً، ومفكراً عظيماً هو الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمة الله عليه – فقد كان من المفكرين القلائل، والعلماء القلة الأفاضل الذين أحاطوا إحاطة تكاد تكون تامة بكثير من النحل الباطلة، والفرق الغالية المبتدعة والضالة، وممن فهموا فهماً صحيحاً مراد كاتبيها، وكشفوا ضلالهم وفندوا أساليبهم، ودحضوا حجتهم، وردوا كيدهم إلى نحورهم.

كما كان – رحمه الله – صاحب باع كبير في الاطلاع على مكنونات كتبهم، وخفي رسائلهم، عارفاً لأسرار صنعتهم كاشفاً لخبيث طويتهم ملماً بهوية فكرهم.

- كذلك كان خبيراً بطرائقهم، فاستطاع بفضل الله – أن يجلّي خبايا كتاباتهم، وأن يرد فكرهم إلى مصادره وأن ينبه ويحذر من غدرهم، وأن يفضح قبيح فعالهم ومنكر أعمالهم، وشنيع صنيعهم، كل ذلك في منهج علمي صحيح واستقصاء للحقائق سليم، وأمانة علمية فائقة، وإحاطة كاملة، ناهيك عن بيان قوي وحجة دامغة، وأسلوب رصين يتناسب مع الموضوع الذي يكتب فيه ويظهر ذلك كأحسن ما يكون في كتاباته عن الصوفية، والبهائية والقاديانية، وكذا كتابه «دعوة الحق».

منهجه في التحقيق:

كان صاحب منهج في التحقيق يتسم بالأمانة العلمية والتخريج الصحيح، والتعليقات الهادفة، وخير دليل على صحة ذلك القول، تحقيقه لكتاب مصرع التصوف، للإمام البقاعي.

إذ جاءت تحقيقاته تحقيقات شيخ متمكن من صنعته – كما دلت تعليقاته على هوامش الكتاب وشرحه لمراميه وأغراضه دليلاً بيّناً على سعة الاطلاع وغزارة المعرفة ودرايته بصحة النص من عدمه.

فمثلاً عند ما روى البقاعي عن القشيري نصاً بشأن ما حل بالحلاج لم يفت الشيخ الوكيل أن يذكر النص الصحيح قائلاً:

«نص ما ذكره القشيري»: ومن المشهور أن عمرو بن عثمان المالكي رأى الحسين بن منصور الحلاج يكتب شيئاً، فقال: ما هذا؟

فقال: هو ذا أعراض القرآن، فدعا عليه، وهجره، قال الشيوخ: إن ما حل به بعد طول المدة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه.

ومن الأمثلة التي تدل على توافر الأمانة والدقة في التحقيق لدى الشيخ الوكيل، أنه عندما أورد الإمام البقاعي في كتابه مصرع التصوف، ما ذكره الإمام أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي في تفسيره لقول الله تبارك وتعالى:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾.

«ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من أقر بالإسلام ظاهراً، وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة كالحلاج، والشعوذي، وابن حلي، وابن عربي المقيم بدمشق، وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين، وعد جماعة.

وهنا يستدرك الشيخ الوكيل فيقول:

هم كما جاء في «البحر»: والتستري تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسيه والصفار المقتول بغرناطة، وابن اللباج وأبو الحسن المقيم «بلورقه»، ومن رأيناه يرمي بهذا المذهب الملعون: العفيف التلمساني، وله في ذلك أشعار كثيرة، وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم كان بدمشق، وعبدالواحد بن المؤخر المقيم كان بصعيد مصر، والأيكي العمي الذي كان تولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر. وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ التستري المقيم كان بحارة زويله» ا.ه تفسير البحر.

وزاد في تفسير الفهد:«والشريف عبدالعزيز المتوفي، وتلميذه عبدالغفار القوصي».

وهذا مما يدل على دقته في التحقيق وسعة اطلاعه على كثير من مصادر المعرفة.

منهجه في الكتابة:

1- يتسم بالإنصاف: لقد كانت كتابات الشيخ الوكيل عن الصوفية في غاية الإنصاف، فقد كان – رحمه الله – ونحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً – أكثر إنصافاً من أولئك الذين يتعصبون عن جهل، أو يهاجمون عن تعصب. وفي هذا يوضح منهجه في الكتابة عن الصوفية فيقول:

«سنجيب عن سؤال هو: ما صلة الإسلام بالتصوف؟».

وحسب القارئ إنصافاً في العرض، وإيثاراً للعدل الكريم أننا سنبسط أراء التصوف نفسه كما بينها شيوخه الكبار، وكما دافعوا عنها، تاركين للقارئ الحكم – وحسبه أن يقارن بين أصول الإسلام التي يعيها كل مسلم، وبين أراء التصوف على أننا سنعين القارئ أحياناً بتذكيره بأدلة هذه الأصول من آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة.

ولكي يتحقق له ذلك المنهج الذي اختطه نجده عندما يتكلم عن كلمة صوفية يسوق أقوال كبار الصوفية حول معنى هذه الكلمة، ثم يختمها بقول القشيري «وليس يشهد لهذا الاسم – صوفي – من حيث اللغة قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب».

وعندما تحدث عن وسيلة المعرفة عند الصوفية وأنها تقوم على الذوق والكشف، دون العقل والشرع، ساق في هذا المجال بعضاً من التعريفات التي اصطلح عليها كبار شيوخ الصوفية، كالقصيري، وابن عربي في تعريف الذوق.

فالقصيري يعرف الذوق بقوله:

«ما يجده العارف على سبيل الوجدان والكشف لا البرهان والكسب، ولا عن طريق الأخذ بالإيمان والتقليد، وهو أول درجات شهود الحق بالحق. في أثناء البوارق المتتالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي».

كما يذكر عن ابن عربي قوله:

«اعلم أن العلوم الذوقية الحاصلة لأهل الله، مختلفة باختلاف القوى الحاصلة مع كونها ترجع إلى عين واحدة».

ومن معالم منهجه رحمه الله أنه:

عندما يتكلم عن العشق عند الصوفية، لا يكتفي بما ذكره بل يقوم بتحليل منطقهم والرد عليه. فنجده يقول:«لا يجوز مطلقاً تسمية حب الله لعبده «بالعشق» ولا تسميه حب العبد لربه» وذلك لأمرين:

أولهما: أنه لم يرد هذا الإطلاق لا في الكتاب ولا في السنة.

والآخر: لما يكتنفه من نقص وخسة.

وبعد ذلك يسوق الدليل على صحة رأيه. بما ذكره القشيري عن صوفي كبير هو أبو علي الدقاق. عندما تكلم عن العشق فقال:

«لا يوصف الحق سبحانه بأنه يُعْشَق» لأن العشق يعني تجاوز الحد في المحبة. ويكفي للدلالة على جهد الشيخ المبذول في هذا المجال أنك إن تقرأ تعريفاته وتعليقاته على ما يجيء من كلام الصوفية عن الذوق – والكشف – والعشق والهويَّة، والإِنِّية – والغُنُوصِية............ من خلال كتاب «هذه هي الصوفية» أو «مصرع التصوف» أو «دعوة الحق».

وكذلك مقالاته في مجلة الهدي النبوي.

تعرف قدر الجهد الذي بذله في التعريف بهذه المضامين الباطلة..........

- ومن ذلك يتبين لنا أن منهجه كان يقوم على ذكر الشاهد على ما يقول من كلام وكتب أئمة التصوف بعد أن يقول عن بعضهم إنه من قدامى الصوفية أو من الموسومين بالاعتدال.

2- من ركائز المنهج في الكتابة عن التصوف عند الشيخ عبدالرحمن الوكيل والتي تدل على الأمانة العلمية – أنه كان يشرح كلام كبار الصوفية من واقع أقوال مفسريهم الذين قاموا بتفسير كلام شيوخهم، ثم يُثَنِّي عليه بالرد والتعليق حتى يبعد عن نفسه شبهة التحامل، ومن ذلك أنه عندما تعرض بالنقد لبعض أوراد الصوفية. نجده يذكر ما شرح به النابلسي قول «ابن مشيش». «وانشلني من أوحال التوحيد واغمسني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع إلا بها......».

وذلك لأن النابلسي صوفي كبير له احترامه ومكانته عند الصوفية، وحتى لا يتهمه أحد بالتحامل والتحيز.

- وتأكيداً لهذا المعنى فإنك تجده كثيراً ما يناشد القارئ، إن مسه فيما يقول عن الصوفية وهم أو ريبة إلا ما قرأ من كتبهم شيئاً مثل «الإنسان» للجيلي، و«تائية» ابن الفارض، و«الطبقات والجواهر» للشعراني، و«الإبريز» للدباغ و«الجواهر والرماح» للتيجاني، و«قوت القلوب المستطاب» لحسن رضوان.

- وهو يقر بأنه لا يداهن في الحق، فنراه يقول:

«قد يعيب علينا البعض ممن سحرهم طقوس الصوفية وشاعريتها الكهنوتية، قد يعيبون علينا العنف في المحاجة، لكننا نقول لهؤلاء: رويدكم إنما نسمي الأشياء بأسمائها ونصفها بصفاها..........».

3- ومن أبرز سمات منهج الشيخ في الكتابة، أنه كان يحرص دائماً على أن يذكر في مقابل أقوال شيوخ الصوفية وأفعالهم، ما يدحضه ويبطله من كلام الله تعالى وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أمثلة ذلك أنه عندما تكلم عن التصوف العملي، ودعوته إلى الزهد والعزوبة ولباس الخرقة، نجده يقول: فمن ألبس أبو بكر وعمر وغيرهما الخرقة؟ وفي أي كتاب أو سنة نجد ذلك؟

- وعندما يتعرض لما تقوله الصوفية، في ضرورة أن يكن لكل مريد شيخ، وأن المريد لا يصح له أن يذكر الله إلا بالورد الذي خصصه له شيخه.

- وعندما يجد ابن عطاء السكندري، قد زعم أن كل اسم من أسماء الله يناسب نوعاً معيناً من الناس، ويخصص لكل اسم «كاللطيف، والمتين...............» نوعاً من الناس يذكرون به ولا يصلح لسواهم........ يتساءل الشيخ الوكيل في حيرة قائلاً:

فكيف يكون ذلك والله يقول:﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

- وبعدما خلص إلى أن ذكر الصوفية بدعة يهودية، ذكر في مقابل ذلك كيف كان يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه، فماذا بعد الحق إلا الضلال..........؟

- وخلاصة القول أن من أهم ركائز الفكر، عند الشيخ عبدالرحمن الوكيل، أنه كان يرى أن التصوف النظري والتصوف العملي، شيء واحد «فالنظرية وليدة التطبيق، والتطبيق وليد النظرية، فقد كان لا يرى فرقاً بين التصوف القديم والتصوف الحديث، فهما في نظره متساويان في المنهج والتفكير. والتطبيق والهدف ولذلك يتساءل، وهل القتل على طريقة ابن عطاء السكندري، غير القتل على طريقة الحلاج......».

5- وكنت تجده في كتاباته إذا أراد أن يعلق، أو يشرح، أو يفند قولاً لأحد كبار الصوفية، يعرض أولاً منهج الرجل العام، ثم يعلق أو يشرح قول الرجل على ضوء ذلك المنهج، ومصداق ذلك أنه عندما قام يشرح ورد ابن عربي مثلاً، نراه بعد أن ساق ورد ابن عربي علق بقوله:

«ولكي تعي ما يريده ابن عربي نذكر رأيه في الوجود أو في الله سبحانه............

يرى ابن عربي أن الله كان وجوداً مطلقاً لا يتميز باسم ولا بصفة.........».

6- ولا يعيب الشيخ في منهجه أنه كان يذكر بعضاً من الشواهد على صحة رأيه....... من أقوال المستشرقين، فمن ذلك ما ذكره على لسان جولد زيهر فيما يتعلق ينقده لفكرة العزلة والعزوبة وأثرها السيئ على حياة المسلمين، وكذا ما قاله غيره عن عبادة الموتى............

وفاية القول:

فالشيخ – رحمة الله عليه – لم تُغْرِه لذَات، ولم يثنه الحرص على الذات. من أن يرفع – بعد أن كان طرقياً – راية الحق في وجه كل مكايد.

فوجه رسالة إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية في زمنه، وطبع كتاباً تحت اسم «صوفيات»، وكان بداية لكتابه «هذه هي الصوفية» والذي تحدث فيه عن موقفه من التصوف فقال:

«سنظل – بعون الله – نلهب بساط الحق ظهور الآبقين ونهدم بمعاوله – غير هيابة ولا داهنة – معابد الأصنام حتى تخر على سدنتها وعبيدها، ولن يحول بيننا – بتوفيق الله – وبين التذكير بما هدى الله إليه، وفرض علينا الجلاد المستلئم دونه، عواصف شر تثيرها علينا أحقاد الصوفية المستعرة، فما لقلب المؤمن أن يرهب في الحق إلا من فطره، ولا يرغب إلا في رضاه ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾.

- ولقد وفّى الشيخ الوكيل – رحمه الله – بذلك فقد ظل سنين عديدة منذ أن كتب هذا الكتاب «هذه هي الصوفية» في 11 ربيع الآخرة 1375ه حتى أواخر عهده بالدنيا يكتب عن الصوفية والبهائية والقاديانية، سواء كان ذلك كتباً أو مقالات في مجلة الهدي النبوي، والتي كانت تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية حينذاك، وذلك بعد أن تولى رياسة تحريرها خلفاً لسلفه الفقير إلى عفو الله – كما كان يحب أن يكتب – فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي[1] – رحمة الله عليه – مؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية.

- لعل البعض الآن إذا قرأ ما كتبه الشيخ الوكيل عن بعض الفرق المبتدعة، ظن أن مثل هذا الأمر كان سهلاً وميسوراً، ولم يدر بخلده أن صاحبه حين كتب ذلك، كان قد ركب يومئذ لجة ما لها من قرار، وخاض بحراً ما له من سواحل، ولكي نعرف شجاعة الموقف، علينا أن ننظر متى كتب هذا الكلام وكيف كان الجو الفكري المحيط بالناس ذلك الوقت، من سدنة قبور، إلى شيوخ للطرق لا همَّ لهم إلا المغانم التي يجرها عليهم الاتجار بالدين، يحيط بهم ويلتف حولهم آلاف من الأتباع الجاهلين بحقائق الدين، فضلاً عن حقائق المعرفة ممن يصدق عليهم قول الله تبارك وتعالى:﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)**﴾ [يوسف: 106].

وإذا كانت الكلمة عندما تقال في زمن معين تعد تعبيراً عن شجاعة القَلَم وعن صدق صاحبه، فإنه أيضاً قد تكون لو قيلت في بيئة معينة تعتبر قمة الشجاعة للقلم ولصاحبه، خاصة حين تتعرض بالهدم والتعرية لما يعتبره البعض من المسلّمات والموروثات التي نشأ عليها الآباء والأجداد، وتربى عليها الأحفاد، وتأصلت في عقول لا تريد أن تستنير وعيون لا تريد أن تبصر، وآذان لا تريد أن تسمع، وقلوب لا تريد أن تفقه.

---

(1) انظر مجلة التوحيد باب إعلام الدعوة عدد (3) لسنة 1416ه، وعدد (5) لسنة 1422ه:«أنصار السنة وستون عاماً من الصحافة الإسلامية».

وفي الختام ندعو الله تبارك وتعالى أن يجعل الشيخ عبدالرحمن الوكيل مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يجعل عملنا هذا متقبلاً خالصاً لوجهه الكريم والله من وراء القصد، ومنه الهداية وبه التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على عبده الكريم ورسوله الأمين صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

فائدة:

أخي أستسمحك عذراً إن وجدتني قد أكثرت من النقل من كتابات الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – مما قد يعتبر عيباً في منهج الباحثين، إلا أن عذري في ذلك أنني أحببت بعد معايشتي لفكره أن يكون ذلك الفكر هو ما نقدمه للقراء، حتى يتبين عمق فكره، وتبرز قيمة المنهاج الذي اختطه لنفسه واختاره في الكتابة: هو كتاباته ذاتها.

ولعله بتوفيق الله وفضله بعد أن يتم لكثيرين من القراء معرفة كتب الشيخ وكتاباته أن يكون لي معه ومع فضيلة الشيخ أبي الوفاء درويش – رحمهما الله – وقفة أخرى أبرز فيها منهاجهما وفكرهما وكتاباتهما عن الصوفية فكراً وسلوكاً[1].

والله المستعان، ومنه الهداية وبه التوفيق.

فتحي عثمان

وكيل عام جماعة أنصار السنة المحمدية

(1) انظر مجلة التوحيد عدد (6) و(12) لسنة 1416ه، باب أعلام الدعوة.

مدخل البحث

أخي أثلج الله صدرك بالتقوى، وأقر عينك بالهداية، وجعلك للصواب هادياً، ويسرك للخير وجعلت للخير ميسراً. وسلام الله عليك ورحمته وبركاته وبعد.

فقد ذكرت لك منهج الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – في الكتابة عن الصوفية الفكرة والسلوك وقد انتهينا إلى أن الرجل كان مثال الاتصاف بالعدل في العرض. وأنه كان – رحمه الله – منصفاً أكثر من الذين يتعصبون للتصوف بجهالة ومن الذين يتعصبون ضد التصوف بجهل.

وبعد معايشة طويلة لفكر وكتابات الشيخ الوكيل – رحمه الله – انتهيت إلى أن مجمل رأيه في الصوفية الفكرة والسلوك لا يخرج عن كون الصوفية يسوون بين مفهوم الوجود وبين مفهوم الرب، فالوجود هو الرب عندهم. وكان لهذا الوجود صفة الإطلاق، ثم شاء أن يتعين فظهر في صورة الحقيقة المحمدية، أو صورة قطب الأقطاب بمعنى آخر ثم تكثرت هذه الحقيقة المحمدية، أو تجزأت، فظهرت في صورة مختلفة، منها الأقطاب الحادثون، والأوتاد والأبدال، فكل واحد من هؤلاء جزء من الرب، أو هو الرب في أحد تعيناته، هذا هو نظام الوجود عند الصوفية.

إنهم أبوا تصديق الله فيما تكلم به عن نفسه، وأبوا تصديق الرسول فيما وصف به ربه، ونبذوا العقل، وصدقوا وثنية الفلسفة المارقة وجعلوا من قضاياها هوية الحقيقة وإنِّيتها، فأخذوا منها التسوية بين مفهوم الوجود وبين مفهوم الرب.

ثم جانبوا بعد ذلك الفلسفة كما جانبوا الدين وذهبوا يبنون نظاماً للوجود في غيبه وشهادته، وروحيته وماديته لا يقره عقل ولا يجيزه دين من الأديان.

ولما رأوا أن العقل يخالفهم اخترعوا أسطورة «الذوق» وقد عرفه الكمشخانلي يقوله:«هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي»[1].

وعرفه ابن عربي: بقوله:«الذوق أول مبادئ التجليات الإلهية»[2].

ولقد قالوا – أي الصوفية -: إنما تستمد معارفنا من الذوق لا من العقل، والحقيقة عند الصوفية لا تدرك بالعقل وإنما «بالذوق» ولهذا تتعدد الحقائق بتعدد الأذواق فلكل صوفي ذوق خاص يدرك به الحقيقة.

والصوفية في هذا أشبه السوفساطئيين في ناحية المعرفة غير أن السوفسطائيين جعلوا الإحساس الجزئي أساس المعرفة، أما الصوفية فهم اخترعوا أسطورة «الذوق» هذا للتخلص من أحكام العقل.

أما تحايلهم للتخلص من الدين الحق فيتمثل في اختراع أسطورة الظاهر والباطن. فالصوفية عندما وجدوا أن خرافاتهم ينكرها الشرع. راحوا يقولون إن للقرآن أو الشريعة ظاهراً وباطناً.

---

(1) كتاب جامع الأصول: للكمشخانلي.

(2) اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية: لابن عربي.

أما الظاهر فهو لعلماء الرسوم، وأما الباطن فللصوفية فقالوا بالشريعة والحقيقة. أما الشريعة فهي ما يؤخذ من الكتاب والسنة، وأما الحقيقة فهي ما يؤخذ من باطنها مؤيداً بذوقهم فحرفوا الكلم عن مواضعه، فهذا ابن عربي يفسر قوله تبارك وتعالى: حكاية عن فرعون:﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾.

يفسرها بقوله (لأجعلنك من المستورين) ويبرر ذلك بقوله أن السين من الحروف الزائدة، فإذا حذفت من كلمة «سجن» بقى جن ومعناه الوقاية والستر – ولقد عمدت الصوفية إلى هذا التحايل عندما وجدت أن اللغة لا تسعفها.

ولقد أدت فكرة الظاهر والباطن بالصوفية إلى القول بوجود ما يسمى بالمملكة الباطنية وهي القطب وأعوانه والديوان الباطني ومكانه.

- والقطب عند الصوفية قطب حادث وقديم أو حسي ومعنوي، والقطب الحسي حادث يستخلف بدلاً منه عند موته من أقرب الأبدال منه، فحينئذ يقوم مقامه بدل هو أكمل الأبدال.

- والأبدال هم أربعون رجلاً لكل منهم درجة مخصوصة اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق كلما مات واحد منهم استبدال مكانه آخر، ومن هؤلاء الأبدال الأربعين يتعين ثلاثة أوتاد ومن هؤلاء الأوتاد يختار القطب الحادث، وبذلك يكون القطب الحسي قطب مسبوق بقطب، ويخلفه قطب، فقطبيته حادثة محدودة بوقت أما قطب الأقطاب فهو قطب معنوي قديم غير مسبوق بقطب، ولا يخلفه قطب آخر، فهو واحد منذ القدم سرمدي القطبائية أبديها. وهو قطب بالنسبة إلى ما في عالم الغيب والشهادة.

- وحتى لا يظن أحد الغلو بالشيخ – رحمه الله– فقد ذكر بعض تعاريف القطب المعنوي أو قطب الأقطاب كما جاءت عند كبارهم فيقول القاشاني:

«هو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات في عالم الغيب والشهادة ولا يستخلف بدلاً من الأبدال ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق، وهو قطب الأقطاب المتعاقبة في عالم الشهادة لا يسبقه قطب ولا يخلفه آخر، وهو الروح المصطفوي المخاطب بلولاها ما خلقت الكون وتدور عليه دوائر الكون ويحيط بأقطارها»[1].

ولقد خرج الصوفية بمعنى الولاية من مدلولها الشرعي إلى مدلول آخر غير شرعي. وقد دانت الصوفية بفكرة ختم الولاية التي وضعها الحكيم الترمذي وادعت أن خاتم الأولياء أفضلهم قياساً على خاتم النبوة بل إن بعضهم جاهر بأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء. لأن خاتم الأولياء يأخذ عن الله مباشرة، أما خاتم الأنبياء فيأخذ عن الله بواسطة الملك.

كما خرجوا بلفظ المحبة عن مدلوله الشرعي إلى مدلول بدعي فأطلقوا لفظ العشق بدلاً من لفظ المحبة فصار حالهم بدعياً لا شرعياً وجرهم ذلك إلى الحديث عن الفناء وفناء الفناء الذي قادهم إلى عقيدة الحلول ووحدة الوجود ثم وحدة الأديان لا وحدة الدين.

---

(1) من كتاب «الوجوه الغر» (2/ 103).

كذلك تدين الصوفية ويكثر الحديث بينهم عن الكرامات التي ينسبوها لشيوخهم أحياء وأمواتاً. بل إن المناوي يقول: إن أول كرامات الصوفية إحياء الموتى. وناهيك عما في كتب الشعراني من تلك الخرافات. وإيمان الصوفية بما جاء في كتبهم لا حدود له. وإذا قرأت شيئاً منها على أحدهم وسمع ما فيها من مخازي وأقوال ضالة صاح وقد ملكته رعدة وهو يقول (إن هذا مدسوس) فإذا خلا إلى نفسه قال: لعل الشيخ اطلع على قدر الله المغيب.

وعن التصوف النظري والتصوف العملي يرى الشيخ عبدالرحمن الوكيل أنه لا يوجد فرق بين تصوف قديم وتصوف حديث وأن السلوك وليد الفكرة والفكرة وليدة السلوك.

وبعد: فقد بقيت لنا كلمة: إذا كان ما في التصوف من الإسلام فقد كفانا الإسلام مؤونة ذلك. وإذا كان ما في التصوف خارج عن الإسلام فلا حاجة لنا به.

والله هو الموفق وهو نعم المولى ونعم النصير.

  

معنى كلمة التصوف

يبدأ الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – حديثه عن الصوفية فكراً وسلوكاً بطرح سؤال يقول فيه:

ما صلة التصوف بالإسلام؟[1].

ثم يثني على ذلك بقوله:

لقد كتب علينا الجلاد المستلئم، فسنظل نلهب بسياط الحق ظهور المتصوفة حتى تخر عليهم معابد الوثنية.

ويكفي أن يصور لنا المتصوف القديم السراج الطوسي هذا الخلاف الناشب حول التصوف فيقول:«سألني سائل عن البيان عن علم التصوف، ومذهب الصوفية، وزعم أن الناس اختلفوا في ذلك، فمنهم من يغلو في تفضيله، ورفعه فوق مرتبته، ومنهم من يخرجه عن حد المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف ولبس الصوف والتكلف في تنوق الكلام واللباس وغير ذلك، ومنهم من يسرف في الطعن وقبح المقال فيهم حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة»[2] أين الحق في هذا؟ وأين سبيله الهادي إليه؟

فأي الفريقين على صواب؟ وهنا يقول الشيخ الوكيل رحمه الله:«إننا سنعرض هذه القضية عرضاً عادلاً منصفاً فيه إسراف في العدل والإنصاف إن جاز لنا أن نعبر بهذا التعبير، وحسب القارئ إنصافاً في العرض، وإيثاراً للعدل الكريم أننا سنبسط أراء التصوف نفسه كما بثها كبار شيوخه، وكما دافعوا عنها، تاركين للقارئ الحكم، وحسبه أن يقارن بين أصول الإسلام التي يعيها كل مسلم وبين آراء التصوف، على أننا سنعين القارئ أحياناً بتذكيره بأدلة هذه الأصول من آيات القرآن، وأحاديث السنة الصحيحة».

لأن القضية في أساسها وأصولها ليست قضية عقلية، حتى نقدم لها الأدلة العقلية، وإنما هي قضية دينية، فأنصار التصوف يؤكدون – كما بينا – أنه هو حقيقة الإسلام. أما غيرهم، فيؤكدون غير ذلك. فكيف نفصل بين الفريقين؟ لا يصح هنا إلا الفصل بأدلة النقل الصحيح، الكتاب والسنة؛ إذ لا يماري أحد من الفريقين في أن الكتاب والسنة هما المصدران الأصيلان للإسلام.

من الإسلام إلى التصوف: يقول عبدالكريم القشيري – وهو من كبار أئمة الصوفية القدامى -:«اعلموا – رحمكم الله تعالى – أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية عَلَم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة. ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع، وحصل

(1) عبدالرحمن الوكيل: مجلة الهدي النبوي، تحت عنوان «نظرات في التصوف» عدد 10 لسنة 1379ه.

(2) اللمع (ص5) مطبعة بريل بليدن سنة 1914م، بتحقيق المستشرق «نيكلسون».

التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زاهداً، فانفرد أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»[1].

أما الكلاباذي، فيقول:«إنما سميت الصوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم. وقال قوم: إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال قوم: سموا صوفية للبسهم الصوف. وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم وذلك أنهم قوم تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الإخوان».

أسماء أخرى: ويذكر الكلاباذي أن الصوفية أطلقت عليهم أسماء أخرى. يقول:«فلخروجهم عن الأوطان سموا غرباء ولكثرة أسفارهم سموا سياحين ومن سياحتهم في البراري وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار شكفتية والشكفت بلغتهم الغار والكهف. وأهل الشام سموهم جوعية لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة»[2].

ويقول ابن الجوزي:«كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن. ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد[3] والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقاً تخلقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل كان يقال له:«صوفة»، واسمه الغوث بن مر، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، فسموا بالصوفية»[4].

وما ذكره ابن الجوزي يطابق ما قرره إمام الصوفية الكبير القشيري. وهو أن اسم صوفي لم يتسم به أحد من المسلمين لا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد البررة الأخيار أصحابه رضوان الله عليهم، ولا في عهد التابعين ولا أتباع التابعين، وهم صفوة هذه الأمة بعد الصحابة، وأنه رأى اسم صوفي – لم يظهر إلا في العهد الذي فشت فيه البدع وثارت الفتن.

أول من سمي بالصوفي:

يقول صاحب كشف الظنون:«وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفي سنة 150 هجرية»[5] وكذلك ذكر السيوطي في أوائله[1].

---

(1) الرسالة للقشيري (ص7).

(2) التعرف لمذهب أهل التصوف.

(3) نلحظ أن مادة الزهد لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة، وذلك في معرض التحقير لنعمة كبرى من الله، وهذا في قوله سبحانه عن الذين باعوا يوسف:﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾.

(4) تلبيس إبليس (ص161).

(5) كشف الظنون (1/ 222).

وبهذا ندرك أن إدخال الصحابة في زمرة الصوفية[2] – كما يفعل بعض مؤرخي الصوفية – فيه عدوان على الحقيقة والحق والتاريخ. فأئمة الصوفية الموثوق بنقولهم – عند الصوفية – يؤكدون أن هذا الاسم لم يتسم به أحد قبل أبي هاشم الكوفي، أو بتعبير آخر قبل مضي أكثر من قرن بعد الهجرة، فكيف يجوز تسمية أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام باسم صوفي؟

اشتقاق كلمة صوفي:

يقول القشيري وهو في معرض نقد الآراء التي دارت حول هذا:«فأما قول من قال: إنه من الصوف........ فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.... ومن قال: إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي[3]. ومن قال إنه من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة. وقول من قال: إنه مشتق من الصف، فكأنهم الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى، فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف»[4].

أما ابن الجوزي، فيبسط لنا كل ما قيل حول هذا. وخلاصة ما ذكر أن هذا الاسم منسوب إلى أهل الصفة[5] – كما عرض القشيري – أو إلى الصوفاتة – وهي بقلة زعناء قصيرة، فنسبوا إليها، لاجتزائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضاً كما يقول ابن الجوزي – غلط؛ لأنه لو نسبوا إليها، لقيل صوفاني. أو إلى صوفة القفا، وهي الشعرات النابتة في مؤخره، كأن الصوفي عُطِف به إلى الحق، وصرف عن الخلق، أو إلى الصوف، وهذا يحتمل أو إلى رجل اسمه

---

(1) انظر تمهيد تاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبد الرازق (ص6)، والبيان والتبيين بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون (1/ 366)، وأبو هاشم ولد بالكوفة وأقام بالشام، أما صاحب اللمع، فينقل عن الحسن البصري قوله:«رأيت صوفياً في الطواف» (ص22) اللمع، ويريد بهذا النقل إثبات أن هذا الاسم كان معروفاً على الأقل في عهد خيار التابعين، وليس لما نقله دليل ثابت ولا مسند صحيح، ثم غالى الطوسي، فزعم أن هذا الاسم كان معروفاً قبل الإسلام، على أن الطوسي نفسه يذكر هذا رأي محوطاً بالشك منه، ودليل هذا قوله:«فإن صح ذلك يدل على أن قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم» (ص22) المصدر السابق، وهذا قول رجل مرتاب لا رجل واثق.

(2) أما القشيري الصوفي الكبير، فلم يؤرخ لهم في رسالته، و لم يحشرهم في زمرة الصوفية.

(3) لأن النسبة إليها صفي بضم الصاد وكسر الفاء مع تشديدها.

(4) الرسالة (ص126).

(5) يقول ابن الجوزي:«إن أهل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما لهم أهل ومال، فبنى لهم مسجداً لرسول........ ثم يقول: وإنما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين، استغنوا عن تلك الحال، وخرجوا» (ص162) تلبيس إبليس ترى هل يكون الخير في التشبه بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا في الله حق جهاده؟ هل تصلح حياة أهل الصفة في هذه الحال التي أكرهوا عليها في أن نجعلها لنا مثلاً أعلى؟ أو الصالح والأصح حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي حياة كفاح متواصل وجهاد مستمر.

الغوث بن مر، كان يطلق عليه في الجاهلية لقب صوفة[1]. هذه خلاصة عرض ابن الجوزي. ويرى البعض أن كلمة صوفي ليست اسماً وإنما هي الفعل المبني للمجهول «صوفي» من الفعل «صافي».

أما البيروني، فيقرر أن لفظة «صوفي» إنما ترجع إلى لفظة «سوفيا» اليونانية ومعناها الحكمة، ثم بعد هذا فصارت من صوف التيوس وقد ذكر البيروني هذا وهو في معرض الكلام عن معتقدات حكماء اليونان والهند التي تهدف إلى إثبات وحدة الوجود. ثم عقب على هذا بقوله: وهذا رأي الصوفية[2].

القول الفصل: يقول القشيري وليس يشهد لهذا الاسم – صوفي – من حيث العربية قياس، ولا اشتقاق. والأظهر فيه أنه كاللقب[3]. والقشيري صوفي متعصب، لا يظن فيه أنه يمس جانب الصوفية.

حال الصوفية في عهدها المبكر: يقول القشيري:«إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم........ حصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة، وزال الورع، وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والاتفاق بما يأخذونه من السرقة والنسوان وأصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه

---

(1) انظر تلبيس إبليس (ص161، 162).

(2) (ص16) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني، وقد أيد بعض المستشرقين رأي البيروني، أما المستشرق تيودور فولدكة، فيرفض هذا؛ لأن السين اليونانية تقلب عند التعريب سيناً لا صاداً، أما أبو حفص السهروردي في عوارف المعارف، فيذكر في معرض الآراء أنهم سموا بهذا نسبة إلى الخرقة الملقاة والصوفية المرمية التي لا يرغب فيها أحد. وأقول: ما أظن مسلماً يرضى مثل هذا لنفسه!!

وقد نظم حسن رضوان في «روض القلوب» فقال:

وقد جرى من حيث الاشتقاق	في لفظة التصوف النفاق
وكل ذي قول له توجيه	لقوله في نفسه وجيه
ولكن القياس والقواعد	في جملة الأقوال لا تساعد
والبعض منهم قد يقوي قوله	بالأخذ من صوف بلبسهم له
فقوله هذا، وإن يكن وجد	له قياس في كلامهم عهد
لكن أهل الحق لم يختصوا	بلبسه، ولا عليه نصوا
فالأحسن التسليم في أقوالهم	لهم وفيما كان من أحوالهم

(3) (ص126) الرسالة، ويؤيد هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته، غير أنه يرى – قبل الاشتقاق – أن يكون هذا الاسم نسبة إلى الصوف.

الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق[1] تجري عليهم أحكامه، وهم محوٌ. وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم[2]، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية[3]، واختلفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا عند فنائهم بأنوار الصمدانية والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل صُرِّفوا»[4].

هذا نقد القشيري الصوفي الكبير للتصوف في عهده أي القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس.

ومنه يتجلى لنا أن الصوفية في العهد المبكر وقفت من الإسلام موقف التحدي والعداء السافر، وأنها كانت تقترف من سوء المنكرات ما جعل هذا الصوفي الكبير يحمل عليهم هذه الحملة الشعواء. وأنها كانت تنفث آراء وتنزع منازع لا صلة لها بالإسلام إلا حين نزعم أن للباطل صلة بالحق، وخلاصة هذا.

أولاً: التحلل من التكاليف الشرعية، والعدوان على قداستها بدعوى – سقوطها عنهم!! والتوغل في المجانة المسرفة في البغي على القيم الروحية المقدسة.

ثانياً: الزعم بأنهم تجردوا من الصفات البشرية؛ إذ قامت بهم الصفات الإلهية.

ثالثاً: وتبعاً لهذا الزعم الخاطئ زعموا أنهم غير مسئولين عن تصرفاتهم، وإنما المسئول عنها هو الله، لأنه هو الذي يصرفهم، ويتصرف لهم، و لم لا؟ وقد خلع عليهم صفاته، وأفناهم عن ذواتهم بذاته، وعن إرادتهم بإرادته.

كما نلحظ تردد هذه الكلمات «المحو، أسرار الأحدية، الكشف، الفناء».

كما نلحظ أيضاً أن القشيري الصوفي الكبير يحقر هذه الدعاوى، ويتهم أصحابها بالخطل والحماقة وسوء الأدب، ويتوعدهم بلعنة الله!![5].



علاقة المريد بالشيخ

إنه لمما يورث الحسرة، أن ترى فريقاً من المسلمين يتخذون لهم مشايخ، يزعمون أنهم طريقهم إلى الله، ويعتقدون أنهم لا يصلون إلى مرضاته إلا بهم، وكذلك ما يعتقده البعض من مدد في أشياخهم ينفعونهم به في غير نظام الأسباب والمسببات.

---

(1) أي الله سبحانه.

(2) أي أصبحوا وهم قائمون بالله فلا إرادة لهم ولا اختيار فيما يأتون أو يذرون، وقد رفع عنهم التكليف، فإن أتوا بما يناقض الشرع تنصلوا من ذلك بأنهم ينفذون إرادة الله التي تسخرهم.

(3) الأحدية هي المرتبة التي تكون فيها الذات الإلهية مجردة عن الاسم والصفة في عرف الصوفية.

(4) ص2 الرسالة.

(5) وتجد في الرسالة للقشيري نفسه نفس هذه الآراء التي حمل عليها وتجد ما هو أخطر منها!! وهذا يجعلنا دائماً نتخذ موقف الحذر من نقد الصوفية لأنفسهم فقد يكون ستاراً يخفي وراءه ما هو أشد شناعة.

وإن من أعجب العجب، أن يكون المريد مسلوب الإرادة مع شيخه، فلا يرد له أمراً، ولا يعترض على فعل، وإذا أخطأ المريد، وقف بين يدي شيخه يقول:«تائب وراجع إلى الله، يا إخواني اقبلوني».

وما ضرَّ هذا المخطئ لو أنه توجه إلى الله بتوبته، فهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن كثير.

وقد تصدى الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – لهذه المفاهيم الخاطئة بالشرح والنقد والتحليل، فكتب مقالاً في مجلة الهدي النبوي[1] شرح فيه «علاقة المريد بشيخه»، كما جاءت في كتبهم، وعلى لسان شيوخهم، وأنه من الضروري – على حد قولهم – أن يرتبط كل فرد بشيخ من شيوخ التصوف، كما أوضح – رحمه الله- أن علاقة المريد بشيخه، لا تخرج عن أن تكون على أوجه منها:«من لا شيخ له فشيخه الشيطان»[2]. من هذا المنطلق حتى ولو كان المريد على بينة من ربه، وبصيرة في سلوكه، فإنه لابد له من الارتباط بشيخ، وعلاقة المريد بالشيخ توجب على المريد أن يحضر نفسه مع الشيخ، وأن ينسلخ من إرادة نفسه وأن يفنى في الشيخ بترك اختيار نفسه.

ويقولون:«من صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه، فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة».

على أن الشيوخ قالوا:«حقوق الأستاذية لا توبة فيها»[3].

أية عاصفة من اليأس العميق، تجتاح نفس المريد إذا اقترف مع شيخه مثل ما حذروا منه؟!

ويقرر السكري الكبير في كتابه «هداية المريد» أنه يجب على المريد أن يذكر دائماً، أنه بين يدي شيخه في كل نفس من أنفاسه، وليس له الاعتراض عليه في أمر أو نهي، بل عليه الطاعة وإن أمره بمعصية كإفطار رمضان، والإهمال في إقامة الصلاة.

ويحرم على المريد أن ينتقل من طريق إلى أخرى، فإن أشرك مع شيخه فهو المشرك بالله[4].

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه عندما أورد الإمام البقاعي في كتابه «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» ما رواه القشيري – رأس الصوفية في زمانه – في كتابه «الرسالة باب حجب قلوب المشايخ»، فيما كان من أمر عمرو بن عثمان المالكي مع الحلاج.

علق الشيخ الوكيل – رحمه الله – بقوله[5]:

نص ما ذكره القشيري:«ومن المشهور أن عمرو بن عثمان المالكي، رأى الحسين بن منصور الحلاج يكتب شيئاً، فقال: ما هذا؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن فدعا عليه».

---

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 7 – لسنة 1380ه - ص37 – ص43.

(2) الرسالة (ص181)، عوارف المعارف (ص70).

(3) الرسالة للقشيري (ص150).

(4) التصوف في مصر (ص135) للدكتور توفيق الطويل، نقلاً عن قواعد الصوفية للشعراني، انظر أيضاً «دعوة الحق» لعبدالرحمن الوكيل.

(5) كتاب «مصرع التصوف»: تحقيق عبدالرحمن الوكيل (ص267).

والقشيري لم يذكر هذا انتقاصاً من مقام الحلاج، وإنما ذكره تأئيداً لما يهدف إليه الصوفية، وهو استعباد قلوب أتباعهم لأهوائهم، ألا تراه يقرر أن الحلاج لم يحل به القتل إلا من دعاء شيخه عليه، لا لأنه كان يعارض القرآن، فغضب الله عليه!!

ثم يردف ألا تراه يرويه في باب «حفظ قلوب المشايخ»؟!

وكذا يقول القشيري في رسالته:«من رضي عنه شيخه لا يكافأ في حال حياته؛ لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ، فإذا مات الشيخ أظهر الله عز وجل عليه ما هو جزاء رضاه، ومن تغير عليه قلب شيخه لا يكافأ في حال حياة ذلك الشيخ، لئلا يرق له، فإنهم مجبولون على الكرم، فإذا مات ذلك الشيخ، فحينئذ يجد المكافأة بعده».

ويعلق الشيخ الوكيل على قول القشيري:«ومن خالف شيخه لم يبق على طريقته، ومن صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض بقلبه، فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة، على أن الشيوخ قالوا: حقوق الأستاذين لا توبة عنها». انظر (ص 150، 151) من الرسالة للقشيري قائلاً:«أرأيت إلى القشيري كيف يقرر وجوب التوبة حتى على من همس في قلبه اعتراض على شيخه».

هذا قول القشيري، أما ابن حجر الهيتمي فيقول:«ويتعين على المريد الاستمساك بهدي الشيخ، والدخول تحت جميع أوامره ونواهيه ورسومه حتى يصير كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء»[1].

على أن مجمل آداب المريد عند الرطبي هو: عدم الاعتراض على الشيخ ولو كان ظاهره أنه حرام، ولا يزور ولياً ولا صالحاً إلا بإذنه، ولا يحضر مجلس غيره، ولا يسمع من سواه، ولا يجيب أحداً دعاه، وإن كان أحد والديه، ولا ينظر في وجه الشيخ، ولا يكلمه إلا همساً، ولا يسبح بسبحته، ولا يتوضأ بأبريقه، ولا يسافر، ولا يتزوج ولا يفعل فعلاً من الأمور المهمة إلا بإذنه، ولا يستدبره بظهره ولو في الصلاة، ولا يشير عليه برأي، وأن يلاحظه بقلبه في جميع أحواله سفراً وحضراً لتعمه بركته، وأن يؤمن أن كل بركة حصلت له من بركات الدنيا والآخرة فإنما هي من بركات الشيخ، وإذا قال له: افطر وهو صائم وجب عليه الفطر، وألا يرد على شيخه كلاماً، وإن كان الحق من المريد[2].

عبودية أعان على مهانتها الشيطان، وصغار ذليل يعافه حتى حقير الحيوان، وقد نظم هذه الآداب المزعومة الشيخ مصطفى البكري في أرجوزته «بلغة المريد» فقال:

والصـــــدق ثم الاعتقـــــاد فيـــــه	وعنـــــه مـــــا كـــــان تخفيـــــه
وســـــلم الأمـــــر لـــــه لا تعتـــــرض	ولـــــو بعصـــــيان أتـــــى إذا فُـــــرِضْ
وكـــــل مـــــا ملكـــــت ملكـــــه لـــــه[3]	وكـــــن كمـــــن بجبـــــه تولهـــــوا

---

(1) ص57 الفتاوى الحديثة.

(2) (ص74) وما بعدها الرسائل الميرغنية.

(3) هذه هي الغاية من علاقة المريد بالشيخ، وهي أن ينسلخ المريدون من كل أموالهم لشيوخهم.

وكـــن لديـــه مثـــل مَيْـــتٍ فَـــاني | لـــــدى مغسِّـــــل لتمســــي داني
ولا تـــزغ عـــن أمـــره، ومـــا نهـــى | عنـــه اجتنبـــه ترتقـــي إلى السُّـــها
أنفاســـــه إيـــــاك أن تضـــيعا | أفعالـــه كـــن ســـالكاً رفيعـــاً
وكـــل مـــا لا يـــا فـــتى يرضـــيه | دعـــــه وحـــــق وفيـــــه
ولا تقـــل ولِـــمَ؟ إن نهـــاك أو أُمـــر | مـــن قالهـــا ذاق في الســـعير ســـقر
ولا تطـــأ لـــه علـــى ســـجادة | ولا تـــنم لـــه علـــى وســـادة
ولا تؤاكلـــه علـــى المائـــدة | كـــيلا بـــذا تحـــرم مـــن فائـــدة
وزوجـــه مـــن بعـــده لا تنكحـــا | فمـــن يكـــن ذا مـــا أفلحـــا
ولتعتقـــده أكمـــل أهـــل العصـــر | ولتتـــركن لديـــه قـــول الهجـــر
انظـــر إليـــه واجلســـن في حضـــرته | مثـــل مصـــلَ جالســـاً في هيئتـــه

ويذكر الشيخ حسن رضوان[1] في أرجوزته الكبرى «روض القلوب المستطاب» آداب المريد وقت تلقيه العهد فيقول:

يـــأتي إليـــه ســـاعياً علـــى القـــدم | مـــن بعـــد طهـــر لابســـاً ثـــوب النـــدم
فيخلـــع الـــنعلين[2] في حـــال الـــذهاب | إلى مكـــان ذلـــك الشـــيخ المهـــاب
ويلـــزم الأعتـــاب بـــالطهر المـــدام | لا يلتفـــت عـــن بابـــه لـــو بعـــد عـــام
فـــإن أتـــاه الإذنُ لَبَّـــي مُســـرعاً | مـــن غـــير إمهـــال وقـــوراً خاشـــعاً
يـــدنو ويحنـــو مُطْـــرِق الـــرأسِ ولا | يغيـــب بالقلـــب عـــن الـــذي عـــلا
مستحضـــراً أرواح أهـــل السلســـلة[3] | مســـتمطراً منـــهم فيوضـــاً مُرْسَـــلَه

إن الشيخ المصوَّر في هذه الأبيات والتي قبلها هو مزيجٌ من ربوبية ونُبُوّة. أما الإسلام فلم يدع إلا إلى عبادة إله واحد هو الرحمن الرحيم.

الخرقة: لباس يخلعه الشيخ على المريد بعد تَلَقّي العهد. وتكون الخرقة حسب حال المريد، فقد تكون قميصاً قصيراً من غير كُم، وقد تكون من صوف، أو غير ذلك. والخرقة نوعان: خرقة الإرادة وخرقة التبرك. ويجوز للشيخ –

(1) توفي سنة 1310ه.

(2) تماماً كما أمر الله موسى أن يخلع نعليه.

(3) يعني الشيوخ السابقين الذين توارثوا هذه الطريقة من قديم العهد، وحدة التناقض تبدو واضحة فيما ذكر في البيت السابق؛ إذ يطلب من المريد ألا يغيب بالقلب عن الذي علا، أي عن الله، ثم هو يطلب في هذا البيت منه أن يستحضر بقلبه عشرات الشيوخ منازعاً إليهم أن يفيضوا عليه رحماتهم الفياضة، إنه الشرك الواقع في قلوب هؤلاء القوم.

كما يقول السهروردي – أن يُلْبِس المريد خرقاً في دفعات على قدر ما يَتَلمّح من المصلحة للمريد، فيختار الأزرق، لأنه أوفق للفقير، لكونه يتحمل الوَسَخ. ويُستَحْسَن أن تكون الخرقة قميصاً قصير الأكمام؛ ليكون على الخدمة[1].

السر في لبس الخرقة:

والخرقة رمز للرباط الوثيق بين المريد وشيخه، وإعلان من المريد أنه قد فَوَّض أمره إليه، وأنه قد حكم الشيخ في نفسه، وأذعن طائعاً مختاراً لأمره ونهيه[2].

ويعقب الشيخ الوكيل – رحمه الله – على ما ينشر في كتب التصوف، من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة لهذا الشيخ، أو ذاك، وأن الخضر فعل مثل ذلك مع بعض الشيوخ، بقوله: أين هذه الطقوس والرسوم في كتاب الله؟ أين مكانها في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أين خرقة أبي بكر، أو خرقة عمر، أو خرقة عثمان وعلي؟ رضي الله عنهم أجمعين.

إن الصلة بين خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وبين الصحابة هي صلة مسلم – لا يتقي إلا الله – برسول كريم جاء يعلمه هذه التقوى، ويفرضها عليه بأمر الله، أما صلة المريد بالشيخ فهي صلة قائمة على الصغار والمهانة والمسكنة والعبودية المستسلمة بكل مضارها، لهوى سفيه، إن ما يشرعونه هنا يسلب النفس إرادتها، إنه يجعل ممن يؤمن به وطاء ذليلاً مهيناً لهوى الشيخ ونزواته، ومن منطلق أن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن يتميز على صحابته في مجلس، ولا كان يستأثر دونهم بشيء، بل ويعمل بمشورتهم، وأن خلفاءه الراشدون، كانوا يستمعون إلى من يصحح لهم، كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – يعقب على شيوخ الصوفية تصرفهم، قائلاً: ما بال الشيوخ يحاولون قتل حتى أضعف الإيمان في قلب المريد؟ ألا تراهم يحرمون عليه أن يعترض على شيخه حتى بقلبه، وإن رآه يقترف منكراً، ويتمرغ في خطيئة؟ ما بالهم يحرمون عليه الانتقال من طريقة، أو شيخ إلى شيخ؟ أليست كل الطرق – في ظنهم – توصل إلى الله؟ أليس الشيوخ جميعاً مشارق عرفان وهداية؟ فما بالهم – إذن – يهلكون المريد باليأس من قبول توبته، إذا انتقد بَغْياً وقع من شيخه؟ ويتوعدونه بمصير المشركين إن اتخذ لنفسه شيخاً آخر غير شيخه؟! ما بالهم يحرمون على الشيوخ غفران زلات المريد في حق شيوخهم؟ إن هذه القسوة الصارمة المتوحشة، والحقد المريد الغاشم ليثيران في النفس التمرد ويحضانها بعد زلة واحدة على الكراهية السوداء للشيوخ، ويتروانِ بها إلى تحطيم هؤلاء أو إلى السرى مع الشيطان في كل مهلكة وتيه!! وقد يكون ما زلَّ به المريد في عرف الشيوخ فضيلة في معايير القيم الصادقة!! لتتدبر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه!! كان – عليه الصلاة والسلام – يجلس بينهم فلا يميزه الوافد الغريب، كان يقوده الطفل الصغير، فينقاد له ريان الإشفاق والعطف والرحمة، وكانت المرأة الخلقةُ الثياب تستوقفه في الطريق تستفتيه في دينها، فيقف مبذول الخير، فياض الحنان والتقدير لكرامتها.

---

(1) ص74 وما بعدها من عوارف المعارف.

(2) المصدر السابق.

ولقد رأى صلى الله عليه وسلم أحد الناس يرتعد رهبة منه، وهو يخاطبه، فزجره بقوله:«إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». وتقاضاه أحد الناس دَيْناً، فأغلظ، فهمّ به عمرُ بن الخطاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«مه عمر، كنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء، وكان أحوج إلى أن تأمره بحسن الطلب». وما اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه حجاباً، كما أمر ولاته أن يجعلوا وصول الناس إليهم سهلاً ميسوراً.

وقد حلّ ذات مرة وقت إعداد طعام، فكان نصيبه صلى الله عليه وسلم – كما طلب منهم – جمع الوقود، وكان يستشير أصحابه، ويعمل مسروراً راضياً بمشوراتهم، وتدبر سيرة أبي بكر يوم دعا الناس على المنبر إلى أن يقوموه إن رأوا فيه اعوجاجاً، فشهد له أحدُ الناس صائحاً: والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا.

وتدبر سيرة عمر، وهو يقول من على منبره تعقيباً على تذكير عجوز له بآية من كتاب الله: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

بهذا استقامت للإنسانية كرامتها ووحْدَتُها على الإيمان، وتوطّد لدولة الحق والتوحيد سلطانها الكريم، وسما لأمة الإسلام مكانها ومقامها. فما كان الإسلام ليذل كرامة الإنسانية وفي كتابه هذه الآية:﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾، وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعبد إنساناً وهو رسول التوحيد الذي أمر الناس بأمر الله، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾، هذا هدي الله، وهذا هو صفاء التوحيد وصدقه وجلاله وكماله.

أما نقلناه عن كتب التصوف فيدعو المريد إلى اتخاذ الشيوخ أرباباً من دون الله. وحينما نزل قول الله عن أهل الكتاب:﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، قال عدي بن حاتم – وكان نصرانياً قبل إسلامه –: ما عبدناهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«أليسوا يحرمون ما أحل الله، فتحرمون، ويحلون ما حرمه، فتحلونه؟» فقال عدي: بلى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«فتلك عبادتهم.........».

قلت: وهنا لنا وقفة مع ما يقوله الإمام الأكبر محمود شلتوت – رحمة الله عليه – عن أسباب البدع ومضارها[1]:«وقد ورد في تفسير قوله تعالى:﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا يحلون ويحرمون، وهذه الربوبية هي ربوبية التشريع التي تحقق باغتصاب حق التحليل والتحريم.

ولا شك أن مسلك المبتدع في تحليل ما يُحِلُّ وتحريم ما يُحَرِم من غير سند شرعي، في دعوة الناس إلى بدعته هو بغية مسلك هؤلاء الذين اغتصبوا لأنفسهم حق التشريع الذي لا يكون إلا لله.

ويقول – رحمه الله – أيضاً في ذات المقال: إن الأسباب المفضية إلى ذيوع البدعة وانتشارها بين الناس يرجع إلى أمرين:

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 2 – لسنة 1381ه – ص21، 44، ومجلة التوحيد أعداد 1، 2، 3 لسنة 1411ه.

أولهما اعتقاد العصمة في غير المعصوم، والآخر: التهاون في بيان الشريعة على الوجه الذي نقلت به عن الرسول صلى الله عليه سلم.

وكثيراً ما ترى الأول فيمن ينتسبون إلى طرق التصوف وأنهم يقرأون عن شيخ طريقتهم شيئاً من الأحوال التي تنافي الأحكام الشرعية فيعتقدون أنها من التشريع الذي خص الله به عباده المقربين، وأن شيخهم لا يفعل إلا حقاً، ولا يقول إلا صدقاً، والفقه للعموم وهذه طريقة الخصوص، فيتبعونه فيما يؤثر عنه من قول أو فعل على أنه الطريق المقرب إلى الله الموصل إلى رضاه[1].اه.

قُلْتُ: وبهذه الآداب التي وضعها الصوفية للمريد مع شيخه، «يصبح عبد تصوف، وحَليفَ باطلٍ، وحِلْسَ إلحادٍ».

---

(1) انظر أيضاً كتاب «أسباب البدع ومضارها وأنواعها» – جمع: فتحي عثمان.

«الذوق»

وسيلة المعرفة عند الصوفية

لما جعلت الصوفية «الذوق» هو وسيلة المعرفة، دون الشرع والعقل، قصرت رحمة الله على فئة قليلة في عباده، وصيَّرت الإنسان كمن يمشي في ضوء الشمس وهو مغمض عينيه، فلا يستفيد من ضوئها، أو كمن يحاول أن يبصر في الظلام فلا يستفيد من عينيه.

وبذلك اختلفت طرائقهم وأفكارهم، وصارت مصادر المعرفة عند الصوفية مختلفة ومتباينة؛ لأن كل صوفي يتحدث عنها من واقع تجربته الخاصة.

ومن هذا المنطلق كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – في كتابه «هذه هي الصوفية» عن مفهوم الذوق عند الصوفية، يقول: إن الصوفية تعتقد أن الذوق الفردي لا الشرع، ولا العقل هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها لمعرفة الله وصفاته، وما يجب له، فهو – أي الذوق - الذي يقوم حقائق الأشياء ويحكم عليها بالخَيْريَّة أو الشَّرِّية، بالحُسُنِ والقُبْحِ، بأنها حق أو باطل، فلا جَرَمَ أن تدين الصوفية بعدد عديد من أرباب وآلهة، ولا عجب أن ترى النِّحلَةَ منها تخضع لصنم يكفر به سواها من النِّحل الصوفية، لا عجب في ذلك كله ما دامت تجعل «الذوق»[1] الفردي حاكماً وقيماً على المسميات وأسمائها[2]........ فيصنع للشيء معناه مرة ثم ينسخه بنقيضه مرة أخرى، هذه الحِدَّة في تَوَتُّرُ التناقض صِبْغَةَ الصوفية دائماً في منطقها المخبول، ولقد ضربت الصوفيين أهواءُ أحبارهم بالحيرة والفُرقَةِ، فحالوا طرائق قددا تؤله كل طريقة منها ما ارتضاه كاهنها صنماً له، وتعبده بما يفتريه هواه من خرافات....... على حين يجمعهم على الوحدة هوًى واحد وغاية واحدة هي القضاء على الإسلام والجماعة الإسلامية.

وإن لم يكن الأمر كذلك، ففيم هذه الشِّيَعُ المتطَاحِنَة، وفيم هذه المَشْيَخَات المتنابذة. ويضرب الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – الدليل على قوله السابق، بما جاء على لسان رويم البغدادي حيث يقول:«لا يزال الصوفية بخير ما تَنَافَرُوا، فإن اصطلحوا هلكوا».

وعن تعريف كلمة الذوق عند الصوفية، يذكر الشيخ الوكيل – رحمه الله – جانباً من التعريفات التي قالوها:

1- يعرف القيصري الذوق بقوله[3]:«ما يجده العالم على سبيل الوجدان والكشف، لا البرهان والكسب، ولا على طريق الأخذ بالإيمان والتقليد». (ص 193) «مطلع خصوص الكلم».

2- أو هو:«أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث في التجلي البرقي». (ص 101 جامع الأصول للكمشخانلي».

---

(1) يعني الذوق الخاص بكل إنسان ونتيجة لهذا يصبح الدين والأخلاق بلا معيار ولا ميزان.

(2) كتاب «هذه هي الصوفية» تأليف الشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص33).

(3) ص181 طبقات الصوفية للسلمي.

3- ويقول ابن عربي:«اعلم أن العلوم الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفة باختلاف القوى الحاصلة مع كونها ترجع إلى عين واحدة»[1]. (ص 107 فصوص الحكم).

وفي مجال إبراز مدى اعتقاد الصوفية في أن «الذوق» هو وسيلة المعرفة لديهم نجد الشيخ الوكيل يقول:([5] «كل صوفي يؤمن بأن الذوق وحده وسيلة المعرفة، أما العقل عندهم فهو طاغوت أخرق، وأما الشرع فمادية تنشب مخالبها في الصخر دون أن ترمق السماء بنظرة واحدة، وهو نوع من عبادة التاريخ الميت، ولهذا تتباين عندهم قيم الأشياء تبعاً لتباين الذوق!!

وقد يرى الصوفي الباطل، فيما يرى غيره فيه حق، ولا يضيرهم أن يتوتر التناقض بين ما يؤمن به صوفي، ويكفر به آخر غيره، فكلاهما في الدين الصوفي على حق.

ولعل هذا سر فريتهم:«من اعترض انطرد»؛ إذ ربما حكمت بالشرع أو العقل على شيء ما بأنه باطل وهو في «ذوق» شيخك حق، فتعرض نفسك للطرد من حظيرته.

- وعلى هذا يحمل الشيوخ الدراويش، ويستعبدونهم، فما يفعل الشيخ من شيء إلى ويوحي إلى درويشه أنه فعله عن أمر إلهي، ألا ترى الجنيد حين سئل:

أيزني العارف؟ أجاب بقوله:«نعم، وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

حق لونه بباطل ذلك الجنيد. «زانٍ ويسميه عارفاً»[2] أي: مؤمناً قد بلغ ذروة الإيمان؛لأنه رأى القضاء في لوح الغيب فنفذه.

وهنا نتذكر قول الدباغ:«إن الولي الكبير فيما يظهر للناس يعصي، وهو ليس بعاصٍ، وإنما روحه حجبت ذاته، فظهرت في صورتها، فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية»[3].

ثم يثني ويقول:«يتصور في طور الولاية أن يقعد الولي مع قوم يشربون الخمر، وهو ليس يشرب معهم، فيظنونه أنه شارب الخمر، وإنما تصورت روحه في صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت»[4].

وتنكر الصوفية على العقل أنه وسيلة إلى المعرفة، ويرهقها حنقاً منه أن يحكم بالمغايرة بين الضدين أو بين النقيضين، وتنكر على الشرع تفرقته بين الإيمان والكفر أو بين الخير والشر، إذ لا تؤمن بغير «الذوق» سماء وحي، وقدس إلهام. ومن هذا كان اصطلاحهم المشهور:«من ذاق عرف».

---

(1) كتاب هذه هي الصوفية (ص137). ويعني بالعين الواحدة: الذات الإلهية!!.

(2) التسمية بالعارف بدعة صوفية، تخفي وراءها كيداً خفياً للشريعة، إذ الغاية عندهم المعرفة وحدها لا العبادة، معرفة أن الحق عين الخلق، أما الغاية الحقة لكل مسلم، فهي الإيمان الصحيح مع التوحيد الخالص، مع التقوى، وكم من عارف صوفي دينه أساطير (ص186) تعليق (2) كتاب مصرع التصوف.

(3) الإبريز للدباغ (2/ 23).

(4) الإبريز للدباغ (ص41).

أي من جعل «الذوق» وحده الوسيلة إلى المعرفة كان حقاً من العارفين بكنه الحقائق الربانية، بمعنى أن من استمد معرفته عن طريق الذوق كان هو العارف المكمل، أنا من يستمد معرفته من الدين فهو من أهل الظاهر المحجوبين عن إدراك كنه الحقيقة الإلهية الكبرى.

أو بمعنى أوضح: عن إدراك حقيقة الألوهية التي يقدم وجودها عندهم وجودات العالم الظاهرة، وقد شطح بهم الذوق الأسطوري إلى اعتناق خرافة:«وحدة الوجود»، وبالتالي إلى اعتناق خارفة «وحدة الأديان» بالمعنى الصوفي، فعن إيمانهم بوحدة الوجود نتج إيمانهم بوحدة الأديان[1].

---

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 8 – لسنة 1380ه، مقال عن وحدة الأديان عند الصوفية بقلم عبدالرحمن الوكيل.

الكشف

وبعد أن روجت الصوفية لفكرة الذوق، روجت لفتنة غيَّه هي؛ الفناء وفناء الفناء والوحدة المطلقة، هم يروجون تلك السفسطة بإحالتها على الكشف، ويتفيهقون بأن مرتبة الكشف وراء طور العقل، وبأن مرتبة الكشف هي نيلُ ما ليس له العقل يَنَال، لا نَيْلُ ما هو ببديهة العقل محال.

ويشرح الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – معنى «الكشف» عند الصوفية قائلاً: يعرف الصوفية الكشف بأنه الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً، والله سبحانه هو القائل:﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾.

ورداً على مقولتهم الباطلة:«وبالكشف يظهر ما ليس له العقل ينال». يقول رحمه الله: من الذي جعل من الشرع قسماً لا يناله العقل؟ بل الكشف، من قال هذا؟ ومن أين جاءوا بهذا؟ وهل في مقدور كل مسلم الكشف والمعاينة؟ يجيبون هم بأن هذا لخواص الخواص!! وهذا يستلزم أن الخواص والعوام لا يمكن أن يصلوا إلى معرفة أهم حقائق الشرع، ثم ما هذا الذي لا يظهر إلا بالكشف؟! إن كان هو عين ما في الشريعة فما للكشف فائدة إذاً.

وإن كان غير ما فيها، قالوا بجواز عبادة الله بغير ما شرعه الله، وتلك هي الطامة الكبرى[1].

  

(1) مصرع التصوف للبقاعي (ص188، 192) – تحقيق عبدالرحمن الوكيل.

أسباب الكشف عند الصوفية

أسباب الكشف:

كل صوفي يؤمن بالكشف، بل يزعمون أن الكشف أدنى مراتب الولي، والكشف يحصل أسباب منها كما يروى عن الغزالي:

1- التنبيه، وسماع الغناء منبهٌ.

2- ومنها صفاء القلب، والسماع يؤثر في تصفية القلب.

3- ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع.

إذاً فسماع الغناء أقوى الأسباب عند الغزالي للكشف؛ فأي كشف هذا؟ حسب الغزالي هوياً إلى أعماق الهاوية أن يزعم أن رؤية الله تحصل بسماع الغناء.

مساواة الولي للنبي في انكشاف الحقائق:

من الصوفية من يفضل الولي على النبي؛ إذ يزعمون أن الولي يوحى إليه بلا واسطة، أما النبي فبواسطة، وزعيم هؤلاء ابن عربي، والغزالي يزعم أن الولي تنكشف له الحقائق، كما تنكشف للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا فرق بين الاثنين إلا في أن النبي كلف بإصلاح الخلق، وبذلك يقول:«إخبار الرسول عن الغيب وأمور في المستقبل، وإذا جاز للنبي جاز لغيره؛ إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبّياً بل وليّاً».

الغُنُوصِّية

لقد تكاثفت الصهيونية والصليبية والمجوسية والوثنية تؤازرها الغنوصية التي نسجت خيواطها العناكب الضالة من كل نحلة، لتكيد للإسلام وأهله، وعن معنى الغنوصية وأثرها السيئ على الجو الإسلامي، كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل في كتابه «هذه هي الصوفية»، وفي مجلة الهدي النبوي يقول:«الغنوص كلمة يونانية في الأصل «المعرفة»، غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحياً خاصاً هو إدراك الأسرار الإلهية بواسطة الكشف.

والذي أعطاها هذا المعنى طائفة من المفكرين، عاشوا في القرون الأربعة الأولى من ميلاد المسيح، ومنهم يهود ومسيحيون ووثنيون، وأهم ما يدينون به هو الثنائية بين المادة والذات الإلهية، ومحاولة اجتياز الفاصل بينهما عن طريق سلسلة الوسطاء.

والمادة عندهم هي أصل الشر، والسبب الذي من أجله انحطت طبيعة الإنسان ولكن الإنسان يستطيع عن طريق الخلاص «الزهد» أن يعود إلى الذات الإلهية الأصل.

وفي مجال الحديث عن الأثر السيئ لفكرة الغنوصية يسوق الشيخ طرفاً من أقوال بعض المفكرين العرب والمسلمين، وأيضاً المستشرقين......... جاء فيه: غير أنها تطورت على يد «بازليدس» «وفالنيتنوس» وغيرهما، فقد قام هذان بمزج المذاهب المختلفة من فارسية وسريانية وأفلاطونية وفيثاغورية ورواقية بالمسيحية واليهودية، وكونوا من هذا كله نوعاً من الصوفية، ويقول الأستاذ النشار:

«وقد استطاع الغنوص أن يسيطر على الصوفية، ودخلت فكرة الثنائية بين المادة والله في عقائدهم».

ويقول كارل هينرش بيكر:«ولقد سادت روح الغنوص فرق صدر الإسلام كلها، ثم سادت التصوف الذي كان بعد في البدء بدعة خارجة عن الدين، ولكنه أصبح بفضل الغزالي خالياً من السم معترفاً به».

ثم يقول:«الغنوص كان يحارب الإسلام دينياً وسياسياً»[1].

وعن الأثر السيئ أيضاً الغنوصية في إفساد الجو الإسلامي يذكر الشيخ الوكيل في كتابه «هذه هي الصوفية» ما يقوله هينرش بيكر في أنه:«من الثابت أن الغنوص قد أثر في إيجاد هذه الصورة التي صورتها العصور الوسطى المتأخرة «لمحمد»، وكان سبباً في إيجاد ما يشبه عبادة «محمد»، وهذه العبادة وتلك الصورة مخالفتان لما كان عليه الإسلام الأول كل المخالفة، أما الأولياء في الإسلام ففي مقابل الأرواح القدسية في الهلينية «هم الكائنات الروحية الوسطية بين الذات الإلهية وبين المادة عند الغنوصية». من كل هذا وغيره من فكرة الذوق، والكشف والعشق والغنوص، ترى أن الجذور الأولى للتصوف لم تكن نبات أرض طيبة، وكانت غريبة عن الجو الإسلامي الذي ساد قرونه الأولى.

---

(1) انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي سامي النشار (ص44) وما بعدها، والتراث اليوناني ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي، مقال «تراث الأوائل في الشرق والغرب» لكارل هينرش بيكر (ص10) وما بعدها.

إيمان الصوفية بكتبهم

ذكرنا قبل ذلك أن فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – قد قرر أن من الأسباب المفضية إلى ذيوع البدعة وانتشارها، اعتقاد العصمة في غير المعصوم، وأنه قال: وإننا كثيراً ما نرى ذلك فيمن ينتسبون إلى طرق التصوف وأنهم يقرأون عن شيخ طريقتهم شيئاً من الأحوال التي تنافي الأحكام الشرعية، فيعتقدون أنها من التشريع الذي خص الله به عباده المقربين وأن شيخهم لا يفعل إلا حقاً. فيتبعونه في كل ما يؤثر عنه من قول أو فعل على أنه الطريق المقرب إلى الله الموصل إلى رضاه[1].

قلت: ولقد ترتب على اعتقاد العصمة في غير المعصوم عند من ينتسبون إلى الطرق الصوفية، أن صار لديهم نوع من الإيمان بما جاء في كتب شيوخهم ولون من الإكبار لها.

وقد أدرك الشيخ عبدالرحمن الوكيل هذه الحقيقة عندهم، فذكر في كتابه «هذه هي الصوفية» أن الدرويش منهم إذا عرض عليه قول طيفور البسطامي أبو يزيد:«خرجت[2] من الله إلى الله، حتى صاح مِّني فيَّ، يا من أنا أنت». أو قوله:«سبحاني ما أعظم شأني»[3]. أو إذا واجهه أحد بما جاء في الطبقات على لسان الشعراني فيما يقصه من كرامات «علي وحيش» الذي يقول عنه في طبقاته[4]:«كان الشيخ رضي الله عنه يقيم عندنا في خان بنات الخطا»، وكان كل من خرج – أي بعد اقتراف الجريمة الباغية – يقول له: قف، قف حتى أشفع فيك.

ولم يكتف بذلك، بل كان يأتي الدابة وصاحبها قائم على رأسها، فيحصل له خجل شديد والناس يمرون عليه، وإن أبي شيخ البلد تستمر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوه.

صاح الدرويش وقد رأيت في بدنه رعدة وهو يقول لك:«إن من يدين بهذا فهو كافر، ومن لا يعترف بأنه مدسوس فهو كافر حتى إذا خلا إلى شيطانه قال:«إن الشيخ ينفذ ما اطلع عليه من قدر الله المغيب، فما فعله كان طاعة لا معصية»[5].

وقد وجه الشيخ الوكيل – رحمه الله – رسالة إلى شيخ الطرق الصوفية[6] يقول فيها:

---

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 2 لسنة 1380ه، وانظر كتابنا «أسباب البدع ومضارها وأنواعها».

(2) ص160 ج1 تذكرة الأولياء.

(3) ص160 ج1 تذكرة الأولياء.

(4) ص135 ج2 الطبقات طبعة صبيح.

(5) كتاب هذه هي الصوفية: عبدالرحمن الوكيل (ص86، 87).

(6) وجه الشيخ الوكيل رسالة إلى شيخ الطرق الصوفية وقت ذاك سماها صوفيات – ثم كتب بعدها كتابه هذه هي الصوفية. [فتحي عثمان].

«فهل تستطيع يا سماحة الشيخ أن تصنع باسم الله شيئاً كهذا؟ أيمكن أن تصدر بياناً تعترف فيه بالحق غير هياب، ولا وجل، فتقول – مثلاً – فيه:«لما في الفصوص والطبقات و....... و............... من مخالفة صريحة لدين الحق، فإنا نأمر أتباعنا أن يكفروا بتلك الكتب؟».

أم يمكن أن تقول – مثلاً – آخر:«إن كتاب الفصوص، أو الطبقات أو.............. أو.......... مدسوس على من نسب إليه، لأن فيه، وفيما هو مثله كفراً؟».

فإن فعلوا، كان الخير الذي تظمأ النفس إلى معينه، وكفى الله المؤمنين القتال، وعلى هذا يرسلها الشيخ الوكيل صيحة مدوية يتحدى بها الصوفية شيخاً ومريدين ودراويش أن يجرؤ واحد على القول بأن تلك الكتب مدسوسة، أو أن يستنكر ما تطفح به من كفر، ثم بعد ذلك ينهي حديثه بأن الصوفية يزعمون أن تلك الكتب أسرار ورموز لا يفقهها إلا أولئك الذين أباح لهم الغيب الخفي مكنونه، وقدس أسراره.

وعن مدى إيمان الصوفية بكتبهم يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل:

إن الصوفية هنا، وهناك، وفي كل مكان يؤمنون بكتبهم، إيماناً عنيداً طاغياً يأسر منهم في قبضته القاصرة عواطف القلوب، ومشاعر النفوس وسبحات الخواطر، وتأملات الفكر، ويدينون بكل حرف فيها يرمز إلى أسطورة، وبكل كلمة تفشي خرافة، فما تناوحت إحساساتهم بالحب إلا لها وما فتك بالقلوب أخطبوطهم إلا بها، وما قتلت عناكبهم ذباب النفوس إلا بلعابها السام، بيد أنهم حين يلقون المؤمنين، يقولون رياء ومخادعة: مدسوس! حتى إذا خلوا إلى شياطينهم، قالوا:«نفتن المؤمنين».

وإلا فإني أدَوِّي بصيحة الحق، نتحدى الصوفية وطواغيتها أن يجرؤ واحد منهم على القول: إن تلك الكتب مدسوسة.

أو يستنكر ما تطفح به من كفر، وليأتنا بآثارة من علم، أو ظن تدل على أنها دعية النسب إلى من افتروها.

نعم أدوي بصيحة الحق[1]: إن تلك الكتب ليست بمدسوسة، ويشهد بذلك التاريخ الحق، وتواتر النقل الصحيح، ولكن هَبُوها كذلك، فما ينفعكم، وأنتم بها تدينون، وتؤمنون إيمان عابد الخمر بالدِّنِّ والكأس والعربدة.

مدسوسة! إنها الترسُ الأخير، يلوذ به يتأذى منكم تحت صدمة الحق الصاعقة! وشهادة زور تُفْتَرى؛ لينجو بها المجرم من عقاب جريمته.

  

(1) الكاتب على حق في هذا التحدي، وفي الواقع هم إذا ووجهوا بهذه الأفكار قالوا: مدسوسة، لكنهم لا يسيرون إلى آخر الخط لإثبات براءة سادتهم.

زعمهم أن كتبهم أسرار ورموز

وآخرون من أسارى الصوفية يزعمون أن تلك الكتب أسرارٌ ورموزٌ، لا يفقها إلا أولئك الذين أباح لهم الغيب الخفي مكنونه، وقدس أسراره، أو الذين هتك الله عنهم الحجاب الأعظم، فخروا تحت عرشه سجداً يسمعون وحيه، ويسجلونه رموزاً[1] في شعرهم ونثرهم.

– من صفات القرآن يا هؤلاء أنه «بيان للناس»، ومن الناس عالمون وجاهلون، ومنهم أميون وكاتبون قارئون، ولكن الله جعله بياناً لهم جميعاً، ميسراً للذكر؛ ليعبد كل امرئ ربه على بصيرة.

بيد أني سأنحدر إلى فرية أولئك، فأزعم أن كتب الصوفية رموز مُقنَّعة بالخفاء، وأسرارٌ ملثمةٌ بسحر الغيب!!.

ولكن أسألك: كيف يُعْبد الله برمز مقنع بالإبهام، وسر مستغرق في الغموض يحمل من الكفر وجهاً ظاهراً؟!

أيحق لامرئ أن يعبد ربه بشيء أطبق عليه الجهل به، وبغير ما شرعه الله في كتابه وأوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم؟!

وأسألك – ولا تغضب إذا ألحفت في تساؤلي -: أتفقهون يا كهنة الصوفية دلائل تلك الرموز، أم لا تفقهونها؟ فإن تكن الأولى، فأبينوا لأتباعكم؛ لتطمئن قلوبهم بالمعرفة، ولتزداد في نقدكم إنصافاً، وإن تكن الأخرى، فإنها دين الببغاء تردد ما لا تعي.

أما مع الحق، فأقول: لقد قرأت لابن عربي، ولابن الفارض، وغيرهما جُل ما كتبوا، وما شرح به تلاميذهم تلك الكتب، فلم أجد في كل ما قرأت رمزاً مستوراً، ولا سراً خفياً، بل دلائل صريحة تكشف في جلاء صريح عن حقيقة معتقد الصوفية.

ترى أي رمز في قول ابن عربي:

«العارف من يرى الله في كل شيء، بل يراه عين كل شيء».

إن ابن عربي خشي أن يتوهم أتباعه حتى «الظرفيَّة» المجازية في كلمة «في» أو الحلولية الحلاجية، وفيها ثنائية تناقض الوحدة، خشي ابن عربي ذلك، فأطاح الوهم بيقينه الجازم، ليؤمن الصوفية بوحدة الوجود إيماناً لا تنال منه شائبة وهم، ليؤمنوا بأن الله هو عين كل شيء، وأن كل شيء هو الله.

هذا بعض ما كتبه الشيخ الوكيل في كتابه «هذه هي الصوفية» عن زعم الصوفية أن في كتبها رموزاً وأسراراً.

فإذا انتقلنا إلى كتاب «مصرع التصوف» للإمام البقاعي، ثم رأيناه يروي عن الإمام السكوتي قوله بعد أن حذر من ابن عربي «وليحذر في مواضع كثيرة من كلام ابن عربي الطائي في فصوصه وفتوحاته المكية، وغيرها، وليحذر

---

(1) أما الدكتور فيليب حتي، فيقول:«ودين محمد عملي صريح، وقلما يشير إلى هدف عال يصعب نواله، ويكاد أن يكون خلوا من العقد اللاهوتية، وليس فيه أثر للأسرار الرمزية المقدسية، أو مراتب الكهنوت، وما رتبته أصول الرسامة والتكريس والخلافة والرسولية»، وكلها مناصب دينية في المسيحية (ص178 – ج1) تاريخ العرب العام.

أيضاً من مواضع كثيرة من كلام ابن الفارض الشاعر وأمثاله، مما يشيرون بظاهره إلى القول بالحلول والاتحاد، لأنه باطل بالبراهين القطعية».

ثم قال:«وكل كلام وإطلاق يوهم الباطل، فهو باطل بالإجماع، فأحرى وأولى ببطلانه إذا كان صريحاً في الباطل».

فإن قالوا:«لم نقصد بكلامنا ورموزنا وإشاراتنا الاتحاد، والحلول، وإنما قصدنا أمراً آخر يفهم عنا، قلنا لهم: الله أعلم بما في الضمائر وما يخفى في السرائر، وإنما اعتراضنا على الألفاظ والإطلاقات التي تظهر فيها الإشارات إلى الإلحاد والحلول والاتحاد». اه. كلام الإمام السكوني.

- عندئذ يعلق الشيخ الوكيل – رحمه الله – على رأي الإمام السكوني قائلاً[1]:

«الذي لا يحاسب على ما ينطق به هو المكره، أو المجنون، وهؤلاء ليسوا بمكرهين، فما ثم من يكرههم على الزندقة، بل كان ثم من يكرههم على الإيمان، فلم يحاولوا، وليسوا بمجانين بإقرار عابديهم، وبدليل تلك اللآمة المستلئمة في الكيد للإسلام والمسلمين ابتغاء صرف الأمة عنه، وابتغاء شهواتهم، كل هذا وهم يلبسون مسوح القديسين والزهاد، فلم يبق إلا أن يكون لهم باعث وغاية، تلك هي القضاء على الإسلام، ألم تر إلى الزنادقة كيف يلحون في دعوة الناس إلى عبادة القبور، والضراعة إلى الرمم؟ وكيف لا يشغلون لياليهم الساهرة على الإلحاد إلا بهذا، ولا الناس معهم إلا بتلك الوثنية، كل هذا ليدكوا – وما هم ببالغيه أساس الإسلام المتين وهو التوحيد».

ويقول الشيخ عبدالرحمن في موضع آخر من كتاباته:«هاأنذا شرقت وغربت وياسرت ويامنت مع الصوفية، أحباراً وكهاناً، قدامى ومحدثين، ونقلت عن سلفهم وسجلّ ماضيهم وحاضرهم، نقلت ما يدينون به في أمانة لم يجنح بها عند قدسها غِلٌّ ولا حقد ولا غضب، نقلت هذا كله، ليؤمن من لا يزال على فكره وقلبه غشاوة من سحر الصوفية.

إن الصوفية – قديماً وحديثاً وفي دين من خدعوك بأنهم مسلمون – تؤمن بأن هذا الكون كله، ما هو إلا حقيقة الرب الأعظم «هوية وإنية»، على حين قد يحاول البعض ممن يحسنون الظن بهؤلاء المفتونين عن دينهم، القيام بتأويل كلامهم، فما حكم ذلك؟

يذكر البقاعي في كتابه «مصرع التصوف» حكم من يأول للصوفية كلامهم، فيقول[2]:«والفيصل في قطع التأويل من أصله أن محقق زمانه وصالحه علاء الدين محمد البخاري الحنفي ذُكِرَ عنده ابن عربي هذا، فقال قاضي المالكية إذ ذاك:«شمس الدين محمد البساطي» يمكن تأويل كلامه، فقال له البخاري: كفرت وسلم له أهل عصره ممن كان في مجلسه.

وما خلص البساطي من ذلك إلا بالبراءة من اعتقاده الاتحاد، ومن طائفة الاتحادية وتكفيره لمن يقول بقولهم.

---

(1) مصرع التصوف – للإمام البقاعي تحقيق عبدالرحمن الوكيل (ص138).

(2) مصرع التصوف (ص138) تحقيق عبدالرحمن الوكيل.

وفي محاولة البعض الدفاع عن الصوفية بالتأويل – والكلام للشيخ الوكيل – حجة بالغة على أن كلام الصوفية يجافي الحق من الكتاب والسنة وإلا لما لجأ أحلاسهم إلى دعوى إمكان التأويل. (مصرع التصوف ص 129 – تعليق (2)).

نور من القرآن

إذا كان من أبرز معالم المنهج الذي اختطه الوكيل وارتضاه لنفسه في الكتابة وسار عليه، هو أنه يبسط أراء التصوف نفسه كما بثها كبار شيوخه، وكما دافعوا عنها، ثم يترك للقارئ الحكم، وحسبه أن يقارن بين أصول الإسلام وبين أراء التصوف، على أنه قد يعين القارئ أحياناً كثيرة بتذكيره بأدلة هذه الأصول من آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة الصحيحة.

فإننا نجد ذلك واضحاً جلياً في ما كتبه تحت عنوان: «نور من القرآن»؛ إذ عقد – رحمة الله عليه – مقارنة بين هدى الله في كتابه الحق، وبين ما تدعيه الصوفية، ليعرف حقيقة النور من يخبط في تيه الظلام، ويدرك الحق من دوخه الباطل، وينعم بالتوحيد من شقي بالشرك.

وقد بدأ المقارنة[1] بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: 3، 4].

ثم عقب بعد ذلك بما تزعمه الصوفية فقال: «يقول سبحانه: إنه خلق السموات والأرض، فتقول الصوفية: لا، بل هو عين السموات والأرض، وما فيهن من دابة.

ويقول سبحانه: إنه يدبر الأمر، فتصرخ الصوفية مينٌ وبهتان فنحن الذين يدبرون الأمر له، وقول الله: ذلكم الله ربكم فاعبدوه، فيضج طاغوت منهم ليقول: لا، بل أنا الله لا إله إلا أنا.

ويقول جل شأنه: إليه مرجعكم جميعاً، وتزعم الصوفية أن معنى الرجوع هنا أن تعود الذات المتكثرة إلى وحدتها، فتعود حقاً بعد أن كانت خلقاً!!

ويستمر الشيخ في المقارنة، فيذكر قوله تبارك وتعالى: ﴿في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾.

ثم يقول: وتزعم الصوفية أن ربها هو ذلك الخلق المتطور في ظلمات ثلاث «العماء» «الأحدية» «الواحدية».

ونجده – رحمه الله – بعد أن يذكر قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)﴾ [الشورى: 11].

يعقب بقوله: «وتزعم الصوفية أن الله هو الذي جعل نفسه أزواجاً، فبدأ حقاً في صورة خلق أو إلهاً في صورة عبد».

وينهي حديثه قائلاً: إن الصوفية كما ذكرتك تقول: «بل هو عين كل شيء».

وتقول أيضاً على لسان ابن عربي والغزالي وغيرهما: «بل هو عين كل سميع وعين كل بصير».

---

(1) كتاب هذه هي الصوفية: للشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص83، 84).

وتقول أيضاً: بكل شيء هو له كفؤاً؛ إذ كل شيء في الوجود هو الذات الإلهية.

وتتلخص عقيدة وحدة الوجود عند الصوفية فيما يقول الشيخ الوكيل[1]: آمن الصوفية أن وجود الخلق عين وجود الحق، فالمظاهر عين الظاهر، والعبد عين الرب، والمخلوق هو بذاته الخالق، ويعبر ابن عربي عن ذلك بقوله:«سبحانه من أظهر الأشياء وهو عينها».

والإيمان بهذه الأسطورة فوق كونه زندقةٌ وإلحادٌ وإنكارٌ صريح للألوهية، يهدم القيم الأخلاقية والدينية.

فهل يمكن أن نسمع من الصوفية من ينكر ما يقوله الجيلي:«إن الحق تعالى من حيث ذاته، يقتضي ألا يظهر في شيء إلا ويعبد ذلك الشيء، وقد ظهر في ذرات الوجود»[2].

أو ما يزيد به ابن عربي هذه الفرية جلاء بقوله:«والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهاً، مع اسمه الخاص بحجر، أو شجر، أو حيوان، أو إنسان، أو كوكب، أو ملك»[3].

وحسبنا هنا ما يقوله أستاذ جامعي عما تعتقده الصوفية فيما ينبغي على العارف أن يعتقده:«أما العارف فيتجاوز ذلك إلى إثبات أن الله هو الوجود الحقيقي، وهو أصل جميع الموجودات، وليس سواه وجود ولا موجود.

  

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 8 – مجلد 15.

(2) ص82 ج2 الإنسان الكامل للجيلي.

(3) ص195 فصوص لابن عربي. انظر كتاب من قضايا التصوف للأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند ص146.

الجانب الإلهي في الفكر الصوفي

أخص خصائص الإسلام، الدعوة إلى اعتقاد الوحدة المطلقة لله تعالى، والتخلص من جميع شوائب الشرك.

ولقد دعا القرآن إلى التوحيد، دعوة جادة لا هوادة فيها، وساق الحجة والبرهان، ولم يترك سبيلاً ولا حجة تفضي إلى الإقناع إلا سلكها وأدلى بها.

وكل مسلم لابد له من أن يعتقد في توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الصفات، وأن يقتنع أن من كمال التوحيد أن يعتقد – عند إثبات التوحيد لله – أن الله واحد في الذات والصفات، وأنه ليس كمثله شيء.

فأين يكون الصوفية من ذلك الاعتقاد؟

لقد أكثر الصوفية في كلامهم عن الحديث عن المحبة والفناء، وجعلوا الذوق هو طريق المعرفة الحقة، وأن الشريعة للعوام، وأن الحقيقة للخواص، وأن لكل شيء ظاهر وباطن، فمن ثم اتسم فكرهم عن الجانب الإلهي بالغموض والإبهام، وظهرت فيه آثار الغنوصية[1] والباطنية، مما دعى بعض الباحثين إلى التساؤل، عما إذا كان هناك علاقة بين غلاة الصوفية والباطنية والإسماعيلية والفلاسفة[2].

ومن هنا وجدنا أن كتابات الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – عن الجانب الإلهي في فكر الصوفية، قد اتسمت بالصراحة والوضوح والعمق، حيث خصص – رحمه الله – باباً كاملاً، بل ربما أكثر من ذلك، في كتابه «هذه هي الصوفية» عرض فيه للحديث عن الجانب الإلهي في فكر الصوفية، وعن الحقيقة المحمدية، وعن وحدة الأديان، كما جاءت في كتبهم وعلى لسان كبرائهم.

وأحب هنا قبل أن أنقل لك ما كتبه الشيخ عبدالرحمن الوكيل عن الجانب الإلهي في الفكر الصوفي، أن أقفك على ما جاء في كتاب «من قضايا التصوف» من أن الكثير من الصوفية يصرح[3] بأن ظاهر الشرع هو نصيب العامة الواقفين عند رؤية العقل وأحكامه، أما باطنه فيختص به الصفوة من أهل المعرفة الحقيقية، فالمسلم الواقف عند ظواهر الشرع وأحكام العقل، يرى في إثبات التوحيد لله أن الله واحد في الذات والصفات، وأنه ليس كمثله شيء.

---

(1) انظر الغنوصية فصل وسيلة المعرفة عند الصوفية.

(2) يقول الدكتور محمد السيد الجليند في كتاب «من قضايا التصوف» (ص86): ومن يقرأ تاريخ القرن الثالث والرابع الهجريين وظروف نشأة هذه الفرق لابد أن يدرك الخيوط القوية بين هذه التيارات الجديدة الغريبة على الحياة الإسلامية، ولابد أن يدرك أن هناك خيوطاً مشتركة وعقلاً يفكر وينظم فليس من قبيل المصادفة، أن تجد فكرة الظاهر والباطن قاسماً مشتركاً بين كل هذه الطوائف وليس من قبيل المصادفة أن تجد خصائص وأوصاف الإمام عند الشيعة هي أوصاف القطب، والولي عند الصوفية، وهذه العلاقة القوية أشار إليها ابن خلدون في المقدمة (ص223)، ويقول الدكتور الجليند أيضاً (ص79): ومن جهة أخرى لو قارنا بين فكرة الظاهر والباطن عند الباطنية، والحقيقة والشريعة عند الصوفية، سوف نجد صلة قوية بين الفكرتين. [فتحي عثمان].

(3) كتاب من قضايا التصوف: دكتور محمد السيد الجليند (ص146).

أما العارف فيتجاوز ذلك إلى إثبات أن الله هو الوجود الحقيقي، وهو أصل الموجودات وليس سواه وجود ولا موجود، ويجعلون ما سوى الله أشبه بأشعة منبعثة من ضوء الشمس الحقيقية، ويرى الشيخ عبدالرحمن الوكيل أن الجيلي مثلاً كان يؤمن بوحدة الوجود، ويدلل على صحة رأيه في عقيدة الجيلي بشرح عدة أبيات وردت في كتاب «الإنسان الكامل» للجيلي (ص33، ج1): يقول في شرحه[1]:

«تأمل سخريته بالشرائع لا لشيء سوى أنها تحكم بالمغايرة بين الخلق والخالق في الذات والصفات، والجيلي يشبه الوحدة بين الله وخلقه، بالوحدة بين الثلج والماء، فكلاهما عين الآخر، فالثلج ماء متجمد، والماء ثلج ذائب، والمغايرة بينهما في الاسم لا في الحقيقة، فكذلك الله وخلقه؛ إذ المغايرة بينهما في الاسم فقط، كالمغايرة بين الماء حال تجمده وبينه حال ذوبانه».

وإذا كان كثير من الصوفية يصرح بأن ظاهر الشرع للعامة، وأما باطنه فيختص به الصفوة من أهل المعرفة.

وأن البعض منهم يرى أن المغايرة بين الله وخلقه في الاسم لا في الحقيقة.

فسنرى بعد ذلك من الصوفية من يرى أن العارف[2] الكامل يُلْقِي من حسابه معنى الأضداد ويستوي في نظره جميع المذاهب والأديان، فلا فضل لدين على آخر، ولا لمذهب على آخر.

  

(1) كتاب هذه هي الصوفية: عبدالرحمن الوكيل (ص118)، وكتاب دعوة الحق للوكيل (ص33).

(2) يقول الدكتور محمد السيد الجليند: وإن الصوفي الناضج لا يهتم بأن فلاناً يتبع المذهب الفلاني أو يتعبد على مذهب كذا أو هو على دين كذا، لأن العارف يعتقد أن مسجده في قلبه «فالذين يعبدون الله في الشمس يرون الله شمساً، والذين يعبدونه في أشياء جامدة يرون الله شيئاً جامداً، والذين يعبدونه بصفة أنه وجود واحد ليس كمثله شيء يعتقدون أن الله ليس له شبيه ولا مثيل، والعارف الحق لا يقيد نفسه أبداً بإحدى هذه الطرق، ويحكم بخطأ سواها، وإذا كان لون الماء لون إنائه فإن الماء لا لون له، وإنما يتلون بلون الإناء الذي يحل فيه.

وهنا يصل الصوفية إلى القول بوحدة الأديان لا تعددها، وهذا اللون من الكلام لا نجده عند ابن عربي فحسب، بل سبقه إليه الحلاج ومدرسته، وكذلك عفيفي التلمساني (ص147) من كتاب «من قضايا التصوف بين الكتاب والسنة».

لم يقول الصوفية بوحدة الأديان؟

تحت هذا العنوان كتب البقاعي في كتابه «مصرع التصوف» يحكي ما ذكره ابن عربي في الفصوص من قوله:«فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه، فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم [من] أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول:﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)﴾ [البقرة: 115].

ثم قال – أي ابن عربي –: فقد بان لك عن الله تعالى أنه في أينية كل وجهة، وما ثم إلا الاعتقادات، فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه، وإن شقي زماناً في الدار الآخرة».

ولما كان ذلك يمثل اتجاهاً عاماً لدى متصوفة الفرس والحلولين من المتصوفة، فإن الشيخ عبدالرحمن الوكيل يقول في تعليقه على قول ابن عربي الذي ذكره البقاعي آنفاً:«يقول الزنديق: اجعل نفسك بحيث تتقبل كل معتقد، وترضى به وتعتقد أنه حق، واحذر أن تنكر على المشرك شركه، أو على المجوسي مجوسيته، واحذر أن تقيد نفسك بدين خاص، وتحارب سواه، فالآلهة المعبودة في كل دين هي في حقيقتها الإله الواحد، وإن تك كواكب، أو أحجاراً، أو موتى، وكل عابد لله، فما ذلك المعبود إلا عين ذات الله»!!

وتعالى الله عن إفك الزنادقة.

ويرجع الشيخ الوكيل إيمان ابن عربي بوحدة الأديان نتيجة إيمانه بوحدة الوجود، لذا فهو يزعم أن من تدين بأي دين – سواء كان وضعياً أم سماوياً – فهو سعيد مرضي»[1]. ومن هنا يتبين لنا أن غالبية الصوفية إما يدين بوحدة الوجود أو الاتحاد أو الحلول، الأمر الذي يفقد الإسلام كل معناه، ويصبح اسماً على غير مسمى، وإذا أصبحت عقيدة التوحيد المعبر عنها ب«لا إله إلا الله» يراد بها «لا موجود على الحقيقة إلا الله»، فإن ذلك الاعتراف بوحدة الوجود في صورتها المجردة، قضاء على كل معالم الدين، ومحو لهذه المعالم محواً كاملاً».

وعن حقيقة الإله في فكر الصوفية، وكيف تتعين «هُويَّته وإِنِّيَّتِه»[2] كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – في كتابه «دعوة الحق» تحت عنوان «الإله عند الصوفية» يقول[3]:«إن الصفات الإلهية دائرة بين الإثبات والنفي، أو بين الإيجاب والسلب، أو بمعنى أولى بين الإثبات والتنزيه، فنثبت لله ما أثبته من الصفات لنفسه، وننفي ما نفاه سبحانه عن نفسه.

أما الصوفية فيثبتون للإله كل شيء، ولا ينفون عنه شيئاً؛ إذ لا «غير» حتى تنفي عنه صفات هذا «الغير»، ولا «سوى» حتى تسلب عنه صفاته، وإنما الإله عندهم هو كل «شيء»، والموجودات كلها – على تباينها، ماديها وروحيها – مقومات لوجوده، مفتقراً إليها لظهوره لنفسه كما يقول ابن عربي:

---

(1) النص والتعليق من كتاب:«مصرع التصوف» للبقاعي، تحقيق عبدالرحمن الوكيل (ص99، 100).

(2) الهُويَّة: عندهم هي الحقيقة الباطنة للذات الإلهية، والإنية: هي حقيقتها الظاهرة في مجالها المتنوعة.

(3) كتاب دعوة الحق (ص31).

«فما وصفناه بوصف إلا كنا نحن – يريد العالم – ذلك الوصف فوجودنا وجوده، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه»[1].

وكلمة التوحيد عندهم – هو الله – فهو إشارة إلى «هُوِيَّةِ» الذات، أي باطنها قبل أن تتعين في صورة، و«الله» إشارة إلى «إِنِّيَّةِ» الذات؛ أي إلى ظاهرها باعتبارها وجوداً قائماً في تعينات مادية، أما «لا إله إلا الله» فلا تؤدي عندهم إلى حقيقة التوحيد المحض[2]، وإذا أقروا بلا إله فسروها بقولهم:«لا موجود إلا الله» ليتفق هذا مع ما يدينون به من وحدة الوجود.

وإله الصوفية كان وجوداً مطلقاً محضاً، لا يظهر لنفسه، ولا يسمى، ولا يوصف؛ لأن الاسم والصفة «قَيْدٌ» للوجود، فلا يكون «مطلقاً»، وهذا تناقض[3]. ولذا يطلقون على الإله وهو وجود مطلق «العَمَاء» أي حيث كانت ذات الإله في بساطتها، وتجردها عن جميع الأسماء والصفات، والنسب والإضافات، ثم تنتقل الذات من البساطة والتجرد إلى التعيين في مرتبة بعد مرتبة، وأولى هذه المراتب «الأحدية» وهي مجلى من مجالى الذات ليس للأسماء ولا للصفات، ولا لشيء من مؤثراتها ظهور فيه. الثانية «الواحدية»، وهي مجلى ظهور الذات فيها صفةٌ، والصفة فيها ذاتٌ، الثالثة «الرحمانية» وهي الظهور بحقائق الأسماء والصفات، وهناك مرتبة الهوية، ومرتبة الإنية، وغير ذلك، غير أني أناشدك الله إلا ما قرأت هذه الآية:﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾، ولا فرق عند الصوفية بين من نسميه «الخالق» وبين من نسميهم «الخلق» إلا بالاعتبار؛ إذ الخالق هو الذات الإلهية باعتبار «هويتها» أي باطنها، والخلق هم الذات الإلهية باعتبار «إنيتها» أي ظاهرها، وهم لا يصفون الإله بكونه «خالقاً»؛ إذ ليس ثمت «غيره» حتى يخلقه، وكل شيء هو الإله، ولا يمكن – تبعاً لهذا – أن نسمي الإله بالخالق، وإلا قلنا أنه يخلق نفسه، ويفسرون «الخلق» في قوله تعالى:﴿ألا له الخلق والأمر﴾ بأنه تجل من تجليات الذات الإلهية، ويزعمونه أنا لو سميناه خالقاً كان ثمت مخلوق – وما في الوجود إلا الله – فتخرج الذات عن الوحدة إلى الكثرة، فإن عملية الخلق تفيد وجود «خالق ومخلوق» أي وجود وجودين أو أثنين، و«الإثنينية» بهذا التصوير عندهم شرك وطعن في الوحدة، لو

---

(1) كتاب دعوة الحق (ص31 – 37) بتصرف.

(2) الحقيقة هم لا يرضون بكلمة التوحيد وإنما نعبر بها هنا للتوضيح، وذلك لأن ابن مشيش يقول في صلواته:«اللهم انشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، وزج بي في بحار الأحدية».

(3) نعت الوجود «بالإطلاق» تقييد في حقيقة للوجود بكونه «مطلقاً»، وهذا يخالف حقيقة التجريد الذي يكدح الصوفية في سبيل إثباته للإله قبل التعين الأول. ولقد أدرك النابلسي هذا التناقض فقرر في شرحه للصلاة الفيضية: أن الوجود منزه حتى عن الإطلاق، ولكنا نقول للنابلسي: إن هذا أيضاً تقييد للوجود؛ لأنه وصف بالسلب، والوصف بالسلب فيه تعيين للموصوف، فما زال هذا التناقض موجوداً رغم سفسطة النابلسي، ثم ما هذا الوجود الذي لا يسمى ولا يوصف؟ إنه أشبه بالعدم، بل امتناع العدم أقل من امتناع هذا الوجود المطلق. فهو على الأقل يسمى في حال «امتناعه» بالعدم، ثم أليس الوصف «بالوجود المطلق» تعيين صفة واسم لهذا الموصوف المسمى. فكيف لا يوصف ولا يسمى؟!

سميناه خالقاً، واعتبرنا المخلوق غيره لقامت الحوادث بالذات، وهذا نفي لوجود القديم المحض، أو لكان القديم حادثاً، والواحد كثيراً، هكذا يزعمون، ولذا يسمون الإله دائماً ب«الحق»، ولا يسمونه بالخالق إلا مجازاً، بل لا يمكن أن يصرح زعماؤهم بهذا.

ويضرب الجيلي مثلاً في كتابه «الإنسان الكامل» يوضح في زعمه الاتحاد التام بين الحق والخلق، وعدم المغايرة بينهما إلا باعتبار، ذلك المثل: هو الماء والثلج، فمثل العالم مثل الثلج، ومثل الحق الماء الذي هو أصل الثلج، فاسم «الثلج» مُعَارٌ على المنعقد من الماء، واسم «المائية» يطلق حقيقة، فالفرق بين العالم وبين الإله – إن اعتبرته فرقاً – هو الفرق بين الماء في حال مائيته، وبين نفسه في حال انعقاده ثلجاً، وسيذوب الثلج يوماً، فيعود ماءً، وسيتجرد الإله عندهم يوماً فيعود كما كان وجوداً مطلقاً.

ويقول ابن عربي:

جمع وفرق فإن العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر

ولهذا يقلقون الليل بترتيل تسبيحتهم المقدسة «المظاهر عين الظاهر»، ويصفون تبعاً لذلك الخلق «وهم المظاهر» بصفات «الحق» وهو «الظاهر»، يصفون الخلق بصفات الخلاق من ربوبية، وألوهية، وسواهما، ويصفون الخالق بصفات الخلق من نقص، وعجز، وجهل.

يقول ابن عربي:«فما يحد شيء إلا وهو حَدُّ الحق، فهو الساري في مسمى المخلوقات، والمبدعات، ولو لم يكن الأمر كذلك ما صح الوجود، فهو عين الوجود، فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبر له»[1].

أما عن قضية التوحيد عند الصوفية فقد كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل في مجلة الهدي النبوي[2] تحت عنوان «التوحيد» مقالاً ذكر فيه ما كان يعتقده الجنيد باعتباره سيد الصوفية القدامى، وكذا مجموعة من كبارهم، جاء فيه:

«سُئِل الجنيد[3] عن التوحيد، فقال:«معنى تضمحل فيه الرسوم، وتندرج فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما لم يزل».

وسُئِل أيضاً عن توحيد الخواص فقال:«أن يكون العبد شَبَحاً بين يدي الله سبحانه تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته في لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وعن دعوة الخلق له، وعن استجابته بحقائق وجوده

(1) انظر النص كاملاً في كتاب دعوة الحق: للوكيل (ص34).

(2) مجلة الهدي النبوي – عدد (7) – لسنة 1383ه.

(3) نختار الجنيد لأنه سيد الصوفية القدامى كما يعبر الصوفيون، ولأن بعض من يحسن الظن بالتصوف القديم يظن الخير في الجنيد، فليقرأ إذن هؤلاء ما يقوله الجنيد، ليعلموا أن التصوف هو التصوف!!

ووحدانيته في حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته؛ لقيام الحق سبحانه له فيما أراد منه، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله، فيكون كما كان قبل أن يكون».

خلاصة هذا: إلغاء الوجود الإنساني والإرادة الإنسانية، والفكر الإنساني ليزعم ذلك الصوفي أن الله هو الذي يفعل له، ويتصرف له ويتكلم على لسانه، ويشعر ويحس بدلاً عنه!! فلم إذن كان خلق السماوات والأرض، و لم إذن جعل الله آدم في الأرض خليفة، وسخر له ما في السماوات والأرض؟ و لم أرسل الله الرسل، ومنح عباده العقل؟ وخلاصته إن دين الصوفية يؤكد أنه لا وجود إلا وجود الله، ولا فعل إلا فعل الله، فلا شر ولا ضلال، ولا باطل ولا عوج في السلوك، فكل الأفعال منسوبة إلى الله حقيقة لا مجازاً.

ولقد قيل للجنيد:«أيزني العارف يا أبا القاسم؟» فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً[1].

والعارف هو صفوة الصفوة من الصِّدِّيقين والقديسين عند الصوفيين!!

وقال الجنيد أيضاً:«التوحيد الذي انفرد به الصوفية هو إفراد القديم عن المحدث والخروج عن الأوطان وقطع المَحَابَ، وترك ما علم وجهل، وأن يكون الحق سبحانه مكان الجميع».

وإفراد القديم من المحدث لا يدل على حقيقة التوحيد الذي أرسل الله به رسله؛ فعبدة الأصنام والمجوس والصابئة والفلاسفة ينسبون إلى الله القِدَم ويترهونه عن الحدوث فلم ينفرد به الصوفية كما زعم الجنيد ثم هو لا يهب للصوفية مكاناً بين المسلمين، فإنه بعض الحق لا كله. قد يعتذر عشاق الجنيد عنه بأنه يريد إفراد القديم عن المحدث بمعنى إثبات مباينة الرب سبحانه لخلقه، وعلوه فوق عرشه، وإثبات صفاته التي أثبتها لنفسه، ويريد أيضاً إفراده سبحانه بالعبادة، وهذا الحق لا يريده الجنيد، ولا توحي به عبارته، ولو كان يريد شيئاً منه لذكره، فإنه ليس بالعَيي في البيان، ولا بالغبي في التعبير عن أفكاره!! وحسبك قوله:«ترك ما علم وجهل»، بهذا الإطلاق وهذا التعميم!! فما علمته أن الله ليس كمثله شيء، وأنه هو السميع البصير، فهل يجوز ترك مثل هذا العلم؟ ثم ما هذا التعميم في قوله:«وأن يكون الحق – أي الله – مكان الجميع»، إن من سمات هؤلاء مكر النفاق، ولهذا يدعون كلماتهم مطلقة الاحتمال»، فإن أخذوا بها، قالوا: نريد منها كذا وكذا، ولو كانوا يريدون حقاً هذا الحق لصرحوا به في غير مواربة ولا مراجاة، ولاسيما، وهم متمكنون من ناصية البيان.

إن حقيقة ما يدين به الجنيد: هو أن ينظر الصوفي إلى الوجود كوحدة، ليس فيه إلا الوجود القديم!!

ثم إننا لا نجد في الكتاب ولا في السنة وصف الله بالقديم[1]، ولا إطلاق اسم القديم عليه، وكلمة «القديم» كما وردت في القرآن لا يجوز إطلاقها على الله.

---

(1) ص135، 160، الرسالة للقشيري وتدبر – بعد زعم سيد الصوفية الجنيد – قول الله سبحانه:﴿قل أمر ربي بالقسط﴾، وقوله جل شأنه:﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

اقرأ هذه الآيات:﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾، ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾، ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾، ﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾، فقد قيل عن الضلال: إنه قديم، وكذلك عن الإفك وأعذاق النخل والآباء السابقين، فهل يجوز إطلاق «القديم على الله سبحانه وهذا معناه، وهذه هي مواردها في القرآن؟

أما ما ورد في القرآن مما لا يشوبه ما في كلمة «القديم» من نقص، فقوله سبحانه:﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾، ولهذا كان من مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم:«أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء».

وهكذا لم يردد علماء «الكشف» غير ما رددته الضلالة القديمة.

ولقد سُئل الشبلي:

أخبرنا عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال:«ويحك! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو مُلْحِد، ومن أشار إليه فهو ثَنَوِيٌّ، ومن أومأ إليه فهو عابدُ وثن، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم، فهو مصروف مردود إليكم، محدث مثلكم».

وقيل:«التوحيد إسقاط الياءات. لا تقول: لي، وبي، ومني، وإليَّ».

وقال رويم:«التوحيد محو آثار البشرية، وتجرُّد الألوهية».

وقال الشبلي:«ما شم روائح التوحيد من تَصَوَّر عنده التوحيد».

وقالوا:«من الناس من يكون في توحيده مكاشفاً بالأفعال يرى الحادثات بالله تعالى، ومنهم من هو مكاشف بالحقيقة، فيضمحل إحساسه بما سواه، فهو يشاهد الجمع سراً بسر وظاهره بوصف التفرقة»[2].

وفي كلام الشبلي استحالة التوحيد، وعدوان أحمق الجراءة على القرآن، فقد جاءت آياته كلها مفصحة في جلاء وإعجاز عن حقيقة التوحيد، توحيد الله في ربوبيته وتوحيده في ألوهيته، على حين يقول الشبلي:

«من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو مُلْحِد، ومن أشار إليه فهو ثَنَوِيٌّ»، وهو في تعبيره هذا يفصح عن حقيقة معتقده؛ فالإشارة تستلزم وجود مشير، ووجود مشار إليه، وتستلزم المباينة بينهما. ولهذا قال الشبلي: من أشار إليه فهو ثنوي!! أي يدين بإلهين!!

هذا لأن الشبلي يدين بأن وجود الخلق عين وجود الخالق؛ فلا مشير، ولا مشار إليه، بل المشار إليه عين المشير!!

---

(1) قال ابن فارس في معجمه: يقال شيء قديم إذا كان زمانه سالفاً، وقال الراغب في مفرداته:«ولم يرد شيء من القرآن والآثار الصحيحة «القديم» في وصف الله تعالى، والمتكلمون يستعملونه ويصفونه به وأكثر ما يستعمل القديم يستعمل باعتبار الزمان».

(2) اقرأ هذه التعريفات في باب التوحيد من رسالة القشيري.

أما إسقاط الياءات، فَجَبْرِيةٌ صماء، أو هي تعبير ماكر عن وحدة الوجود أيضاً، أما بقية التعريفات فتدور حول ما بينا.

قيل لأبي بكر الطمستاني:«ما التوحيد؟ فقال: توحيد ومُوَحِّد ومُوَحَّد، هذه ثلاثة»[1]. نفس الصورة أو الأقانيم:«الآب، والابن، والروح القدس».

وليس فيما نقلناه من تعريفات نور من الحق، ولا عبق من طيب التوحيد.

قناع: يدين التصوف بأن للدين ظاهراً وباطناً[2]، ولهذا نجد للصوفية أقوالاً يرضون بها أهل الظاهر في عرفهم. «أهل الظاهر هم أهل الحق الوثيق الجليل؛ لأنهم يدينون بما أرسل الله به خاتم النبيين، يؤمنون به إيماناً مستقيماً لا اعوجاج فيه».

ومن أقوال الصوفية التي ينطقون بها في التوحيد تجنباً لسفك دمائهم بما رووه عن الجنيد، وقد سئل عن التوحيد:«إقرار الموحِّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحد الذي لم يلد، ولم يُولَد بنفي الأضداد والأنداد والأشياء بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وفي هذا التعريف – رغم وجود ألفاظ يمكر بمعناها – تعبير عن توحيد الربوبية، غير أن الجنيد القائل لهذا هو عين الجنيد الذي نقلنا لك تعريفه من قبل للتوحيد، عين الجنيد الذي يقول:«إذا تناهت عقول العقلاء إلى التوحيد تناهت إلى الحيرة». إذن لا توحيد ولا يقين!!

وسئل البوشنجي عن التوحيد، فقال:«غير مشبه الذات، ولا منفي الصفات».

وفي تعريفه سكر صوفي يرائي الحق والإيمان والباطل والكفر، وبمثل هذه التعريفات التي تلمع بلمعة من نور الحق يتخذ الصوفية لأنفسهم جنة يدرءون بها من صولة الحق وأنصاره في بيئة تقدس الحق».

أما هم – كما رأيت، وكما سترى – لا يدينون بحقيقة التوحيد الذي أرسل الله به رسله وبهم وجه إلى العوام، ووجه إلى الخواص، والعوام هم من يأخذون دينهم عن الكتاب والسنة، أما الخواص: فهم من يأخذون دينهم عن كشف!!

والشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – كان حريصاً على أن ينفي عن نفسه صفة التحيز أو التحامل على الصوفية فكثيراً ما يناشد القارئ إن مَسَّهُ فيما يقول عنهم وهمٌ أو ريبةٌ، إلا ما قرأ شيئاً من كتبهم، ولذا يقول:

---

(1) ص136 الرسالة.

(2)ينسب الغزالي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الزور:«ما من آية من آيات القرآن إلا ولها ظهر وبطن، ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن»، وهذا الزور أيضاً:«للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع» (ص28، 331) الجواهر الغوالي – ط: الكردي، وكلا القولين مفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«وقد يعيب علينا بعض من سحرهم طقوس الصوفية وشاعريتها الكهنوتية، قد يعيبون علينا العنف في المحاجة، لكننا نقول لهؤلاء: رويدكم، إنما نسمي الأشياء بأسمائها ونصفها بصفاتها، فلا نقول عن الزقوم أنه تفاح الجنة، ولا عن الغسلين إنه رحيق الفردوس، ولا عن الشرك إنه توحيد.

بل نحسب أن نداهن النفاق فنزعم أن شرك الصوفية خطأ فحسب»[1].

وهنا يوجه الخطاب إلى القارئ يرشده إلى الطريقة التي يعرف بها الحق، ناصحاً له، بقوله: ناشدتك الله[2] – إن مسك فيما أقول وهم ريبة، أو فتنك منهم عن الحق غزل ابتسامة، أو ترنيمة عاشقة بتسبيحة أو دعاء، ناشدتك الله إلا ما قرأت شيئاً من كتبهم، لتعرف رب الصوفية الأعظم، اقرأ من الفتوحات أو الفصوص، أو ترجمان الأشواق، أو عنقاء مغرب، وكلها لابن عربي».

اقرأ من «الإنسان الكامل» للجيلي من تائية ابن الفارض وشرحها للنابلسي أو القاشاني، اقرأ من الطبقات والجواهر، والكبريت الأحمر للشعراني، اقرأ من «الإبريز» للدباغ. اقرأ من كتاب «الجواهر والرماح» وهما للتيجانية، و«روض القلوب المستطاب» لحسن رضوان، بل اقرأ حتى «مجموع الأوراد ودلائل الخيرات».

وعن أهمية هذه الكتب عند الصوفية يذكر – رحمه الله – طائفة من الألقاب التي خلعوها على بعض واضعيها قائلاً:«فما دعوتك إذن إلى تلاوة كتب تنقم منها الصوفية دلائل الحق، وإشراق الهدى، بل إلى كتب يقدسها الصوفية على اختلاف نوازعهم، وتباين أهوائهم»[3].

«إن الصوفية تنعت ابن عربي بأنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر»، وتخر له ساجدة، والجيلي بأنه «العارف الرباني والمعدن الصمداني»، وابن الفارض بأنه «سلطان العاشقين»، والشعراني بأنه «الهيكل الصمداني والقطب الرباني»، وإيمان الصوفية بكتبهم لا يتزعزع وإن أظهروا لك القول بأن ما فيها من خروج عن الحق إنما هو مدسوس عليهم[4].

ومن بعد ذلك، ومن قبل كل ذلك، أترك لذكائك وفطنتك أن تحكم عقلك فيما هو خطأ وما هو صواب، كما أدع لكل ذي بصر وبصيرة، أن يفرق بين الحق وأهله، وبين الباطل وحزبه، وآمل في النهاية أن يرجع كل صاحب ضلالة عن ضلالته، إلى القول السديد، وإلى كلمة التوحيد، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

هذا على حين يرى الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – أن هناك ثمة أوجه شبه متلازم بين عقيدة الصوفية والفلاسفة وغيرهم ممن يعتقدون التثليث، فكتب يقول:

العقل البشري ووجود الله:

---

(1) كتاب هذه هي الصوفية (ص22) للشيخ عبدالرحمن الوكيل.

(2) نفس المصدر (ص34، 35).

(3) كتاب هذه هي الصوفية (ص34، 35).

(4) انظر رسالة صوفيات للشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص12، 13).

يحاول العقل البشري – وهو قيد المادة – أن يكتنه حقيقة الوجود من أزله إلى أبده، وأن ينفذ إلى سريرة أسرار الغيوب فيما وراء اللانهاية.

ويتطاول هذا العقل في كبرياء بغيضة، فيحاول اكتناه حقيقة الوجود الإلهي، وتصوره، وتصويره، وإخضاعه لمقاييس العقل الباطلة، وأوضاع قيمه الزائفة في الوجود، والفكر والأخلاق.

كان ذلك فيما وراء الحقب السحيقة من تاريخ الإنسانية المجهول، وكان ذلك فيما وراء الميلاد، وكان، في كل عصر من عصور هذا العقل بدت منه تلك المحاولة الجريئة، فأعلن العقل مرة، وقد قهرته الحقيقة وصرعته قبل أن يلمس نقابها المقدس، أن وجود الله محسٌّ معقول، ولكن ما هو؟ وكيف؟ ومن هو في الحقيقة الذاتية؟

أسئلة أبدية لن يجد العقل عنها الجواب الحق: كيف يحاول العقل وهو رهن اللحم والدم والعظم أن يدرك حقيقة الوجود الإلهي، ورب الوجود، وهو فوق العقول وفوق كل شيء؟......... الله موجود....... قضية عند العقل أجلى من الجلاء، وأشد وضوحاً من البداهة عند الفكر، قد يستطيع العقل في غلواء كبره البرهنة على أن النور ظلمة، والخير الذاتي شرٌّ، والوجود عدم، ولكنه أمام تلك القضية «الله موجود» يخر ساجداً مخبتاً مؤمناً.

والعلاقة بين الموضوع والمحمول علاقة ثابتة متمكنة، بل واجبة الثبوت والتمكن والدوام إلى ما لا ينتهي، ولكن ما حقيقة الذات؟ ما حقيقة وجودها؟ أمشخصة تلك الذات؟ أو جودها مطلق أو متعين؟ وهل واحد ذلك الوجود أو متعدد؟ وإذا كان واحداً فما معنى وحدته؟ أهي الوحدة الحقة التي هتفت بحقيقتها الأديان «الله واحد لا شريك له، الخالق، الباري، المصور، له الأسماء الحسنى، العليم بالجزيئات والكليات الذي خلق الكائنات من العدم؟ أم هي تلك الوحدة الصورية الذهنية، التي تجرد رب تلك الوحدة من صفاته، بل تغالي في تجريده حتى لتصفه بالسلوب والعدميات، فتجعله هو بذاته عدماً، ذلك لأن العدم هو الذي لا يوصف إلا بالسلوب؟

هنا يزل العقل في بعض أصنامه وأزمانه ويضل، ويصور الباطل حقاً، والمستحيل واجباً، والعدم وجوداً، يزل العقل ويضل، إذ يحاول تصوير الوجود الإلهي ووحدته تصويراً يتواءم وقضاياه الكاذبة، ويتلاءم وما في الذهن من صور باطلة، ويتفق وما أداه إليه حسه المخادع، بقياس الغائب على الشاهد.

تعاليت يا رب سبحانك........ أنت الخالق، ويحاول المخلوق أن يخلق صورتك!! أنت الإله المعبود الأعظم. ويحاول المألوه أن يتأله عليك!! منحتنا العلم والوجود والسمع والبصر، ولكن بعض من منحتهم نعمك هذه الجليلة العظيمة يأبون عليك ذلك، فيحاولون – في سفههم وخبالهم – تجريد ذاتيتك العظمى من العلم والوجود والسمع والبصر، لماذا؟ اسمع للعقل البشري في ضلاله وباطله يصور لك هذا الضلال، وذلك الباطل، يقول مغالطاً ليس لله سمع، لأن السمع يتطلب مسموعاً وسميعاً فتعدد الذات، والذات لها الوحدة الذهنية، هذا تصوير العقل الضال لمثل هذا الضلال، طبقوا صور الذهن على الواقع، وفهموا أن تعدد العلاقات أو الأحوال، أو الصفات ينتج عنه تعدد الذات، مع أن الواقع المحس يكذبهم في ذلك التصور الزائف المخادع، وذلك التصوير الكاذب، لهذا كان لابد من معرفة الله عن طريق الذهن، لا عن طريق العقل وحده، فإنا إذا تتبعنا جميع أطوار الفكر الإنساني وتصوره لله، رأيناه

أحياناً يصف الله بما لم تصفه به الأديان، من مثل العشق والعاشق والمعشوق، أو اللذة واللاذ والملتذ، أو العقل والعاقل والمعقول، أو يجرده من صفات أثبتتها الأديان جميعها لله، فيجرده الفكر الإنساني من كل صفة أحياناً، أو يصفه ببعض صفات يحسب أنها لا توهم التعدد، وكان أن نفي العقل عن الله صفة أنه خالق.

نفي العقل عن الله أنه خالق:

نعم نفي العقل البشري في ضلاله عن الله صفة أنه خالق، فكل شيء صادر عن الله بالوجوب، لا بالاختيار، وما من شيء خلق من لا شيء، فالمادة لهذا قديمة، أو كل شيء فاض عن الله فيضان النور، فلا يوصف الله بأنه خالق لأن الخلق يتطلب حركة ومحركاً، وانتقالاً، والله غير متحرك، ولا منتقل، ولا يوصف بالحركة، كل هذا التصور الفاسد والتصوير الباطل لأنهم يرون ذلك في الوجود المادي المحس، والواقع الملموس، فكأنهم قاسوا الله على ما تنقله إليهم الحواس، من صور المشاهد الواقع من الوجود المادي، ومع ذلك يقولون: إنهم يفهمون الله عن طريق العقل.

صفة الوجود:

ونفى العقل الضال أيضاً عن غير الله صفة الوجود، وجعلوا من مفهوم الوجود مفهوم الله، والله غير متعدد، وتبعاً له كذلك الوجود يكون غير متعدد، ولكن الأديان على إطلاقها تقرر وجود الله، ووجود غير الله، فتعترف بثنائية الوجود، ولكنها تفرق بين وجود الله ووجود غيره، فوجود الله لذاته وغير مسبوق بشيء، وأول لا مبدأ له، وآخر لا نهاية له: أما وجود غيره، فوجود يسبقه العدم، ويطويه الفناء، ومحتاج إلى من يوجده.

الوحدة والوجود:

اتفقت الفلسفة مع الصوفية على أن الوجود واحد، فلا يوصف غير الله بالوجود، واتفقت معها أيضاً على أن الله واحد بصفة مطلقة، أو بمعنى أدق على أن ذلك الوجود المطلق، واحد حسب ما قدمناه من معاني الوحدة عندهم، ولكن المشاهد أنه يوجد عالم مُحَسٌّ.

فكيف صدر هذا العالم عن الله؟ كيف صدر المتعدد عن الواحد؟ الكثير عن الوحدة؟ المتغير عن غير المتغير؟ كان لابد للفلسفة أن تتحايل تحايلاً ممزقاً متهافتاً حتى تصور صدور المتعدد عن الواحد، فقالت الفلسفة: إذا كان شيء يمكن أن يكون من الواحد وغير المتغير، فذلك الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخرج عنه مباشرة هو كائن ثان، واحد، وغير متغير[1]، والواحد غير المتغير، لا يمكن أن يكون منه العالم المتغير من غير واسطة وبعد زمن لا عمل

(1) انظر في إعجاب وإكبار رد ابن تيمية على أسطورة الفلسفة «الواحد لا يصدر عنه إلا واحد»، وذلك في منهاج السنة (1/ 111)، ومجموعة الرسائل الكبرى (ص365) الجزء الأول لتؤمن بأن شيخ الإسلام ابن تيمية كان ذا عقلية فلسفية ناضجة تمام النضج وعلى أنه استوعب بعقله الجبار كل نظريات الفلسفة ثم رد على باطلها ردوداً عقلية محكمة ودينية رشيدة رضي الله عن شيخ الإسلام وأرضاه.

فيه، فيجب لهذا أن ينتجه بطريق غير مباشرة. وفي الأزل أي بوسائط أزلية متدرجة وفق سلسلة ميتافيزيقية[1]. لهذا اخترعوا ما سموه العقل الأول وما سموه النفس الكلية وغير ذلك.

أما الصوفية فأجابت عن هذا السؤال وهو: كيف يصدر الكثير عن الواحد؟ وما علاقة المحسات هذه بالوجود المطلق، أجابت بأن الله هو عين هذا العالم.

حسب تصوير ابن عربي والجيلي، أو بأن الله حالٌ في ذلك العالم حسب تصوير الحلاج فضلال الصوفية والفلسفة إنما جاء بسبب افتراضهم قضايا ظنوها صادقة، أنه لا يمكن صدور العالم من الله دون أن يتغير الله، أو تعدد الذات، وبسبب تطبيقهم مفهوم الوجود على الله، فحسبوا تعدد الوجود تعدداً في الذات.

لهذا لم يتردد الصوفية في الجواب عن ذلك بقولهم: إن الوجود الواجب هو بعينه وجود العالم، فليس ثمت غير الله، بل الكون والله شيء واحد.

ولكن لما كان الوجود المطلق لا يمكن أن يكون إلا صورة في الذهن، فقد لجأوا – لكي تنسجم نظريتهم – إلى القول بالتعينات الإلهية، أو التنزلات، أو الفيوضات حسب اختلاف أذواق الصوفية ومواجيدهم، وإلى القول بالعماء[2]، وحضرة الواحدية[3]، والأحدية[4]، والهوية[5]، والإنية[6]، نعم اخترعوا هذه الأسماء الأسطورية، ليفسروا كيف تكثر الواحد، وكيف أصبح المطلق متعيناً ولماذا نفهم أن هذا الكون هو بذاته الله – تعالى جد ربنا – وكيف صار الحق خلقاً، إن إلههم كان وجوداً مطلقاً. «بل يقول النابلسي نفسه: إن الله منزه حتى عن قيد الإطلاق» لأن وصفه بالإطلاق تعين له، والله بدأ أمره عندهم كان غير متعين.

---

(1) انظر الجزء الثاني من كتاب «الجانب الإلهي» تأليف الأستاذ الدكتور محمد البهي (ص43) وما بعدها، فقد صور ما سماه الفلاسفة مشكلة الوجود تصويراً دقيقاً، وانظر كتاب المدخل للفلسفة الإسلامية تأليف جوتييه وترجمة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى.

(2) هي الحضرة الأحدية عند الصوفية وتتعين هذه الحضرة بالتعين الأول لأنها محل الكثرة وظهور الحقائق والنسب الأسمائية، أو بمعنى أصرح العماء هو حيث كان الله لم يظهر في مادة الصوفية.

(3) هي مجلى ظهور الذات فيها صفة والصفة فيها ذات، أو هي اعتبار الذات من حيث انتشار الأسماء منها وواحديتها بها مع تكثرها بالصفات، فالواحدية هي إذن حيث تعين الله، ووصف بوصف مع اشتراط أن تكون الصفة هي عين الذات، والذات عين الصفة.

(4) عبارة عن مجلى الذات ليس للأسماء ولا للصفات، ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة من الاعتبارات الحقية والخلقية، وليس لتجلي الأحدية في الأكوان مظهر، والفرق بين الأحدية وبين الواحدية أن الأحدية لا يظهر فيها شيء من الأسماء والصفات، والواحدية يظهر فيها صفات وأسماء مع اشتراط الموصوف عين الصفة، وقد فرق الجيلي بين العماء والأحدية وسوى بعضهم بينه وبينها ولا داعي لذلك هنا.

(5) هوية الحق غيبه الذي لا يمكنه ظهوره فهي باطن الواحدية.

(6) إنية الحق تحديد بما هو له فهي إشارة إلى ظاهر الحق، فالهوية: باطن الحق، والإنية: ظاهره.

أقول: كان إلههم وجوداً مطلقاً، أي عماء، ثم أراد أن يتعين فصار واحداً فبدت الحضرة الواحدية، ثم تكثر فظهرت حضرة الهوية؛ وحضرة الإنية، أي باطن الذات وظاهرها، وهذه الحضرة الواحدية يسموها: الحقيقة المحمدية، لأن إلههم تعين أول ما تعين في صورة الحقيقة المحمدية، فالحقيقة المحمدية عند الصوفية تشبه العقل الأول عند الفلاسفة.

التثليث عند الصوفية:

مما مضى تشم رائحة أسطورة التثليث عند الصوفية، فالذات كانت عماء، ولابد – لكي تخرج من بساطتها وتجردها – من مرورها بثلاثة مراحل:

الأولى: مرتبة الأحدية

الثانية: مرحلة الهوية.

الثالثة: مرحلة الإنية.

ثم إن الله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – يتجلى حسب وثنية الصوفية في الإنسان بجميع صفاته، ومعنى هذا: أن الحق يتحقق وجوده الكامل في النشأة الإنسانية، أن يصبح الحق والخلق عيناً واحدة تتحقق في صورة ولي أو نبي والإنسان الكامل إذن هو أنموذج للذات الإلهية عندهم، لهذا كان ثلاثي الطبيعة، كما أن الله ثلاثي الطبيعة عندهم.

ولهذا يقول الجيلي:

إن قلت: واحدة صدقت وإن تقل	اثنان حقاً إنه اثنان
أو قلت: لا. بل إنه لمثلث	فصدقت ذاك حقيقة الإنسان

ومن هو ذلك الإنسان عند الجيلي؟ إنه ربه، ولهذا يقول بعد هذا مثبتاً الصفات الإلهية، بل بمعنى أدق، مثبتاً حقيقة الذات الإلهية للذات الإنسانية في جوهرها وعرضها، في أحديتها وهويتها، وإنيتها، شارحاً تلك المراتب الثلاثة التي تمر بها الذات الإلهية، أو التي تتركب منها الذات الإلهية التي تعينت إنسان، فيقول:

انظر إلى أحدية هي ذاته	قل: واحد، أحد، فريد الشان
ولئن ترى الذاتان قلت: لكونه	عبداً ورباً، إنه اثنان
وإذا تصفحت الحقيقة، والتي	جمعته مما حكمه ضدان
تحتار فيه فلا تقول: لسفله	عال، ولا لعلوه هو دان
بل سم ذلك ثالثاً لحقيقة	لحقت حقائق ذاتها وصفان[1]

معنى هذا: أن الذات الإنسانية التي هي في حقيقتها الذات الإلهية إنما هي واحد في ثلاثة، أو ثلاثة في واحد، أو حسب تعبير المسيحيين الضالين «أحدية في تثليث، وتثليث في أحدية»، فالصوفية على لسان الجيلي قد اعترفت

(1) (ص9) من كتاب الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي – ط 1293هـ.

بالأقانيم المسيحية، اتحدت المسميات واختلفت الأسماء، وكما اجتمعت الأقانيم في المسيح عند المسيحيين اجتمعت الطبائع الثلاثة في أحمد عند الصوفيين، ولهذا يقول الجيلي بعد هذه الأبيات معقباً:

فهو المسمى أحمد من كونه ذا ... ومحمد لحقيقة الأكوان

ولذا يقول المستشرق «نيكولسون»:

«وهذه عقيدة في التثليث من الغريب حقاً أن يعتنقها مسلم، ولكن يجب ألا ننسى أن الصوفية في جملتهم يعتبرون محمداً كلمة الله»[1].

ويقول:«وصف الرسول في القرآن بأنه بشر فيه كل ما للبشر من صفات، وأنه يترل عليه الوحي من ربه بين آن وآخر، ولكنه لا يتلقاه مباشرة عن الله، بل بواسطة الملك، وأنه لم ير الله قط أو يطلع على أسراره، وأنه لا يتنبأ بالغيب، ولا يفعل المعجزات، وخوارق العادات، بل هو عبد من عباد الله ورسول من رسله»[2]. (ص 158 من كتاب التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون».

أرأيت فهم مستشرق لما ورد في القرآن عن الرسول، وفهم من يزعمون أنهم زعماء الحقيقة في الإسلام، ألا يخزى الصوفية؟

ألا يعترفون بأنهم جانبوا حقيقة الإسلام في أخص خصائصه، وأظهر ما فيه من حقائق؟ لعلهم سيكابرون من صدمة الحق فيقولون: رموز رموز أيها الشاب الضال وأنت لا تفهمها....... ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

التثليث عند ابن عربي:

والجيلي في وثنيته مقلد لسيده وشيخه ابن عربي، فابن عربي في كتابه الفصوص، وبالدقة في الفص المحمدي من كتابه هذا يقرر عقيدة التثليث، ويبني هذا الفص كله على هذه الأسطورة الوثنية، ويستدل على أسطورته بالعدد فيقول:

«وأول الأفراد الثلاثة وما زاد على هذه الأولية من الأفراد فإنها عنها». ويستدل عليها بالقياس المنطقي فإنه مركب من ثلاثة حدود: الحد الأكبر، والحد الأصغر، والحد الأوسط، مثل العالم متغير، هذا حد، وكل متغير حادث، هذا حد ثان ينتج عنها حد ثالث هو: العالم حادث.

---

(1) (ص87) من كتاب التصوف الإسلامي وتاريخه، تعريب الدكتور أبو العلا عفيفي.

(2) نحن لا نستشهد بقول هذا المستشرق إلا لكي نقارن بين قول هذا المستشرق مع كفره وبين قول هؤلاء الصوفية الزاعمين أنهم خلاصة المسلمين، ولا ريب في أن المقارنة جداً للنفس إذ نرى ذلك المستشرق المعترف بكفره خيراً من أولئك الزاعمين أنهم وحدهم أرباب الحقائق في الإسلام مؤلمة.

ويستدل ابن عربي على هذا الحديث:«حبب إليَّ من دنياكم ثلاثة»[1].

يريد ابن عربي بهذه الأساطير التي يؤمن بها أن يثبت أسطورة التثليث وأدع للقاشاني الصوفي شارح فصوص الحكم لابن عربي شرح هذا الكفر حتى لا أتهم بتحريف كلم الصوفية عن مواضعه.

يقول القاشاني تعليقاً على عنوان الفص المحمدي الذي وضعه ابن عربي وهو «فص حكمة فردية في كلمة محمدية» يقول القاشاني ما يأتي:«إنما خصت الحكمة المحمدية بالحكمة الفردية لأنه أول التعينات الذي تعين به الذات الأحدية قبل كل تعين فظهر به من التعينات الغير المتناهية، وليس فوقه إلا الذات الأحدية المطلقة المتنزهة عن كل تعين وصفة واسم ورسم وحد ونعت، فله الفردية مطلقاً، ولشموله كل تعين سماه الشيخ أيضاً هذا الفص فص الحكمة الكلية، ولا فرق بينهما بالاعتبار»[2].

يعني من هذا التخريف الوثني كله أن الذات الإلهية تعينت أول ما تعينت في الحقيقة المحمدية فانتقلت بهذا من مرتبة العماء أو الأحدية المطلقة إلى مرتبة الواحدية، فالإله عندهم كان هو العماء، ثم انتقل إلى الواحدية لا فرق بين المرتبتين إلا بالاعتبار، واسمه في المرتبة الواحدية الحقيقة المحمدية، ولا اسم له حين كان في الأحدية المطلقة.

ثم يدلف القاشاني إلى بيان أسطورة التثليث فيشرح رأي ابن عربي شرحاً دقيقاً، لقوله:«وأول الأفراد الثلاثة» فيقول القاشاني:«فتتحقق أن أول التثليث الاعتباري إنما هو بالعلم والعالم والمعلوم ومظهره في الوجود هو هذا الأكمل بجامع الأحدية والشفعية والوترية أي الواحدية التي هي الذات والصفة والاسم ويسمى باصطلاحهم حقيقة الحقائق الكبرى والبرزخ الجامع وآدم الحقيقي والعين الواحدة»[3].

يريد أن يقول: إن الصورة التي تعينت فيها الذات الإلهية كانت ثلاثية لأنها كانت في صورة العلم، والعلم ثلاثي لأنه يتطلب عالماً ومعلوماً، وبإضافتها إلى العلم تصير ثلاثة، فالعلم والعالم والمعلوم حقيقة واحدة، وكان التعين الأول أيضاً في صورة الحب.

---

(1) حديث «حبب إلي النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» يقول عنه الشيباني: رواه الطبراني في الكبير والنسائي في سننه عن أنس مرفوعاً بهذا اللفظ، والحاكم في مستدركه بدون لفظ «جعلت» وقال: صحيح على شرط مسلم، وأما ما اشتهر في هذا الحديث من زيادة ثلاث فقال شيخنا: لم أقف عليها إلا في موضعين من الإحياء وفي تفسير آل عمران من الكشاف للزمخشري وما رأيتها في شيء من طرق هذا الحديث، وبذلك صرح الزركشي فقال: إنه لم يرد فيه لفظ ثلاث، قال: وزيادة محيلة للمعنى فإن الصلاة ليست من الدنيا، انتهى نص كلام الشيباني. وهو حق ولكن الصوفية دائماً يحرفون كل كلام.

(2) (ص427) من شرح القاشاني لفصوص الحكم – طبعة حجر باستامبول سنة 1309ه.

(3) (ص428، 429) من شرح القاشاني لفصوص الحكم، وحقيقة الحقائق هي الذات الأحدية الجامعة لجميع الحقائق وتسمى حضرة الجمع وحضرة الوجود والبرزخ الجامع مع حضرة الواحدية، والتعين الأول الذي هو أصل البرازخ كلها ولهذا يسمى البرزخ الأعظم، وإذا عرفنا أن الصوفية يصفون الحقيقة المحمدية، بأنها هي الذات الإلهية في التعين الأول فهمنا أنهم يجعلون الحقيقة المحمدية هي حقيقة الحقائق وهي البرزخ الجامع وهي آدم الأول وهي العين الواحدة، يعنون أنها هي بعينها الذات الإلهية. تعاليت يا رب سبحانك عن هذه الوثنية.

فالحب يتطلب محبوباً ومحباً، وبإضافتهما إلى الحب تصير ثلاثة، فالحب والمحب والمحبوب حقيقة واحدة ثلاثة أقانيم: إله واحد، تماماً تماماً كما عند المسيحية، وما أقول ذلك من عندي، بل إن ابن عربي يصرح بهذا في قوله:

تَثَلَّث محبوبي وقد كان واحداً كما صيروا الأقنام بالذات أقنماً[1]

ونفس حضرات الذات كانت ثلاثة هي: الذات والصفة والاسم.

أرأيت تصريح ابن عربي بالأقنوم؟ أعتقد أن هذا صريح الدلالة جداً على ما يريد ابن عربي أن يقوله، إنه يريد مضاربة المسيحية في آرائهم، فكما قالوا بالأقانيم الثلاثة، يقول هو بها أيضاً، ولكن يسميها بأسماء أخرى.

خاتمة:

هذه لمحات عن أسطورة التثليث عند الصوفية، وهي دليل قوي واضح على وثنية هؤلاء الصوفيين الذين يرفعهم قوم إلى مرتبة الألوهية، بل إلى ما فوقها، وهو موضوع شائك البحث، ولكننا اكتفينا الآن منه بهذه اللمحات، وتلك الإشارات، حتى نستوعب ما ورد عنه في كل كتب الصوفية ثم نعود لتجليته وإظهاره، ونعتذر لقرائنا عن غموض بعض ما ورد في البحث، فقد أردت الاحتفاظ بكثير من اصطلاحات القوم حتى لا أتهم بتخريج كلامهم تخريجاً لا يريدونه.

وما على قرائنا الأعزة إلا الصبر على قراءته، ثم قراءته حتى يستوعبوا ما ورد فيه.

والله تعالى ولي التوفيق ونعم المولى ونعم النصير.

---

(1) (ص42) ترجمان الأشواق – طبعة بيروت 1312ه، الفتوحات المكية (171/ 3).

أنواع التصوف

نظري وعملي[1]:

النظري «الإشراقي»، وأن الغاية منه معرفة الله بالذوق، واكتناه أسرار ربوبيته بالمواجيد.

والتصوف العملي:

وهو قائم على الرياضات والمجاهدات؛ أي على الذكر والزهد العبادة.

وكثير من الباحثين يرفض التفرقة بينهما، ويرى أن التصوف النظري وليد العملي لأن النظرية وليدة التطبيق.

  

(1) انظر كتاب «هذه هي الصوفية»: عبدالرحمن الوكيل (ص166).

التصوف العملي

بعد أن استبان للشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – أن أفعال شيوخ الصوفية تخالف أقوالهم، فهم وإن كانوا يدعون الزهد والجوع، إلا أن بطون أكثرهم قد امتلأت من أموال اليتامى والبسطاء والكادحين من الناس، واتخمت من طعام الأرامل والثكلى، وانتفخت جيوبهم من كد وناتج عمل غيرهم.

فقد وفقه الله تعالى لأن يكتب في كتابه «هذه هي الصوفية» وفي «مجلة الهدي النبوي» ما يكشف به حقيقة ما تدعوا إليه الصوفية من زهد، وعزلة................. الخ.

معاً نقرأ ونتدبر ونبحث عن العبرة والعظة ولنتعرف على مصادر الأشياء، وأصل وجودها، وذلك لأنك إذا قرأت ما كتبه رحمه الله في كتاب «هذه هي الصوفية» من (ص 166) إلى (ص 172)، وكذا ما كتبه في مجلة الهدي النبوي العدد (11) لسنة (1379ه)، والعدد (12) لسنة (1379ه) عن التصوف العملي وجدته يأصل ما يكتب، ويرد الحقائق إلى مصادرها، كما ستجده أثناء كتاباته يكثر – في الهوامش – في وضع تفسيرات لبعض الكلمات التي قد تكون غامضة، أو وقعت على أذن السامع لأول مرة، ومثال ذلك كثير «كالغنوصية» و«المانوية» و«الماهية» و«الإنية» و«الأحدية» و«الذوق» و«الوجد» وغيرها.

وهو عندما تحدث عن التصوف بنوعيه:

- النظري «الإشراقي» وأن الغاية منه معرفة الله «بالذوق» واكتناه أسرار ربوبيته بالمواجيد.

وعن التصوف العملي، وهو قائم على الرياضيات والمجاهدات، أي على الذكر والزهد والعبادة نجده يرفض فكرة التفرقة بينهما، ويبرر ذلك بأن النظري وليد العملي، لأن النظرية وليدة التطبيق[1].

ويتابع – رحمه الله – حديثه في مجلة الهدي النبوي عن نشأة التصوف العملي وشعائره من فقر وزهد، فيذكر أنه كان هناك قوى خفية كثيرة تكيد للإسلام وأهله، روعها انتصار الإسلام، فهب أولئك الذين يبغون على السلام، ويعيثون في الأرض فساداً، ويسخرون الشعوب لكل شهوة عمياء ونزوة رعناء، يذودون عن سلطانهم الجائر، ويتآمرون على هذا الدين العظيم.

فكانت هناك الصليبية التي أفقدها الضربة الساحقة توازنها.

وكانت هناك الصهيونية التي قلم الإسلام أظافرها، وهتك القناع عن أضغانها ضد الإنسانية كلها.

وكانت هناك المجوسية التي أخمد الإسلام لظاها الحقود ودمر هياكل عبادة نيرانها المستعرة، وورث دولتها الكبرى.

وكانت هناك الغنوصية الماكرة، التي نسجتها العناكب من كل ملة ضالة ومذهب باطل، وقد احتشدت كلها لتدمير أمة الإسلام.

---

(1) هذه هي الصوفية (ص166).

ولقد آمنت هذه القوى أنها لن تتمكن من القضاء على هذه الأمة ما دامت تؤمن بهذا الدين إيماناً خالصاً قوياً وتنفذ شريعته تنفيذاً لا عوج فيه ولا انحراف، كما أنها آمنت أيضاً أنها لا يمكن أن تجهر بما تكيده به حتى لا تقضي بهذا الجهر على بواكير مؤامرتها، فليكن ما تقدمه لهذه الأمة صورة عليها شِيةٌ من وضح الإسلام وإشراقة من روحانيته.

لتكن صورة توضح سبيل السلوك، لا سبيل الفكر، إذ كانت الحياة العملية هي الغالبة السلطان.

ليكن ما يقدم للمسلمين نظاماً عملياً صورته إسلامية وحقيقة الغاية منه إخفاء معالم طريق الإسلام[1].

ومن هنا كما يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – فقد كان هناك تدبير دنيء ضد الإسلام، وكان هناك كيد خفي ضد الإسلام، وكانت هناك قوى تتجمع وتحتشد للقضاء على الإسلام، ولابد لهذه القوى أن تنتصر كما يحلم أصحابها، ومما يعينها على النصر أن تصرف الكثير من المسلمين عن الجهاد ضد هذه القوى التي تعمل لتدميرهم، فكانت الدعوة إلى الزهد القاتل، والجوع المنهك، والعزلة عن الناس، والفرار من المجتمع، والقعود عن التكسب والزواج، ترى هل تصلح مثل هذه الدعوة لإقامة أمة، أو تقويم مجتمع؟ هل يصلح الجوع والعزلة والفرار والتواكل العُزْبة لبناء دولة، أو بقاء أمة أو للقضاء على عدوان؟! دعا هؤلاء إلى ما دعوا إليه باسم الدين، واستشهدوا على هذا بآيات من القرآن حرفوا معناها، وبأحاديث اختلقوها[2] أو أوَّلوها تأويلاً يفسد حقيقتها ومعناها. وتحريف الكلم عن مواضعه من خطايا الصهيونية وكفرها القديم.

بل دعا بعض هؤلاء إلى زندقة خفية وجلية، وإن تعجب فعجب أن تظهر بواكير هذه الزندقة، ولما يمض على نشأة التصوف سوى حقبة قليلة. يقول أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين: «وفي الأمة قوم ينتحلون الشك يزعمون أنه جائز على الله الحلول في الأجسام، ومنهم من يجوز على الله سبحانه المعانقة والملابسة والمجالسة في الدنيا، وفي النساك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى منزلة تزول عنهم العبادات وتكون الأشياء المحظورة على غيرهم من الزنى وغيره مباحات لهم.

وفيهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم أن يروا الله سبحانه، ويأكلون من ثمار الجنة، ويعانقوا الحور العين في الدنيا، ويحاربوا الشياطين، ومنهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين والملائكة المقربين»[3]. هذا كان في أواخر القرن الثالث، بل ربما كان في أوله.

وآتت هذه الدعوة ثمرها، أو حَنْظَلها، فحال المؤمنون بها إلى زمر شاردة في التيه لا تعرف لها مستقراً ولا مآباً، زمر معذبة أضناها السرى وأنهكها الظمأ والسَّغَب، فأمست تصيخ إلى كل يَأْمةٍ أو هَمسَةٍ تزعم أنها تهديهم إلى قرار

---

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد (11) سنة 1379هـ.

(2) يقول جولد زيهر:«عن دوائر الصوفية صدر الكثير من الأحاديث الموضوعة التي قصد بها إلى تبرير قواعد هذا الاتجاه الديني وهو التصوف» ص218 التراث اليواني.

(3) (ص319) طبع مطبعة النهضة.

أو نبع يروي الغليل!! زمر يسهل قيادها والسيطرة على إرادتها، إذ لم تعد لها هي سيطرة على إراداتها، ولا دين قوي يصمد بها أمام المغير، أو يهديها سناه إذا ادلهمت الظلمات، ورانت الشبهات!! فأسرع أولئك الدعاة الذين سلكوا بهؤلاء هذا التيه، يقدمون لهم ما كانوا يهابون في أول الأمر حتى الغمغمة به. قدموا لهم أفكاراً وآراءاً في الوجود ومراتبه وتعيناته، أو الذات الإلهية وتجليات أسمائها وصفاتها، زاعمين لهم مرة أخرى أن ما يقدمونه لهم هذه المرة إنما هو الحقيقة الكبرى التي أشار إليها النبيون في رموزهم وتلويحاتهم!! فكان ما سطره أمثال ابن عربي في فتوحاته وفصوصه وابن الفارض في تائيته الكبرى والجيلي في الإنسان الكامل.

نوعا التصوف:

لهذا قسم الباحثون التصوف قسمين، أو رأوه نوعين؛ أما أولهما، فهو التصوف العملي.

التصوف العملي:

وهو يقوم على أساس مجاهدة النفس وكبت نوازعها، لأنها – كما يرى أصحاب هذه النزعة – مجبولة على الشر، ولأن الدنيا كذلك شر كبير.

ولتحقيق هذه الغاية دعوا إلى فنون من الرياضيات النفسية بغية القضاء على غرائز النفس، وإلى ضروب خشنة من الغلو في العبادات تنكرها الحنيفية السمحاء، لقد زعموا أنهم يريدون الوصول إلى الله، وأنه لن تتحقق هذه الغاية السامية إلا بسلوك هذا الطريق الذي رسموه.

وتبعاً لهذا بسطوا القول في أحوال النفس ومقاماتها، وما يجب أن تقوم به من مجاهدات، فكانت هذه البحوث التي غلفوها في كثير من الأحايين بالرمزية المجنحة بالتهاويل وقنعوها بالغموض الذي يستطيع أن يتراءى لك بعدة وجوه، لأن ما أودعوه في هذه البحوث عن أحوال النفس ومقاماتها ومجاهداتها يعارض أصول الإسلام وفروعه، ويخمش بأظافره وجه الحقيقة الصافية، وكان المسلمون أقوياء الإيمان، وكانت دولتهم قوية ولا تأذن هاتان القوتان لمثل هذا الخرف الغنوصي أن يستعلن جهرة أول أمره!!

من شعائر التصوف العملي:

الدعوة إلى الفقر والزهد: أسرف أصحاب هذا الاتجاه في الدعوة إلى الجوع، وغالوا في تمجيد الفقر، ونادوا بالفرار من كسب العيش، حتى قال قائلهم:«الفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء، والفقراء صفوة الله عز وجل من عباده ومواضع أسراره بين خلقه، بهم يصون الخلق، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق»[1].

وقيل للربيع بن خيثم:«قد غلا السعر، فقال: نحن أهون على الله من أن يُجيعنا، إنما يُجيع أولياءه»[2].

وقال أبو بكر الوراق:«طوبى للفقراء في الدنيا والآخرة». فسألوه عنه فقال:«لا يطلب السلطانُ منه في الدنيا الخراج، ولا الجبار في الآخرة الحساب»[1].

---

(1) الرسالة للقشيري (ص122).

(2) الرسالة للقشيري (123): ترى هل يفعل الله هذا بأوليائه؟

وقال بعضهم:«رأيت كأن القيامة قد قامت، وقيل: أدخلوا مالكَ بن دينار ومحمد بن واسع الجنة، فنظرت أيهما يتقدم، فتقدم محمد بن واسع، فسألت عن سبب تقدمه، فقيل لي: إنه كان له قميص واحد، ولمالك قميصان»[2].

وقال آخر:«الزهد أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول: أبني رباطاً، أو أعمر مسجداً»[3].

حتى بيوت الله ينهون عن إقامتها!! والجهاد في سبيل الله يحرمونه.

وقال غيره:«الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا، فلا زهد».

وينسبون إلى الحسن البصري هذا:«الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها، وتبغض ما فيها»[4].

وليس من شك في أن الحسن البصري بريء من هذا الخَرَف والحقد والكفر بنعم الله. ترى كيف يعيش الناس في الدنيا وكل فرد منهم يبغض الآخر!!

  

---

(1) الرسالة ص126.

(2) الرسالة ص125.

(3) الرسالة ص56.

(4) الرسالة ص56.

أصل الزهد

إذا كانت ظاهرة الزهد قد انتشرت في منتصف القرن الثاني الهجري، كرد فعل لموجة الانحلال، التي اجتاحت العالم الإسلامي في أوائل حكم العباسيين، فإن الشيخ عبدالرحمن الوكيل يرد أصول الزهد إلى فكرة «المانوية» التي كان ينادي بها «ماني بن مالك» متنبئ فارس، الذي كان يوصي أتباعه بالزهد المسرف في الغلو وبعدم الزواج ليفنى العالم.

وفي هذا الشأن يقول – رحمه الله[1] –:

أتدري عمن اقترف الصوفية دعوى الزهد الذي يحقر نعم الله، ويعمل لتحطيم كل مقومات الجماعة الإسلامية؟ إنهم بشروا بفتنة غية عن المجوسية المانوية التي آمنت بألوهية الخير والشر، وبأن هذين المتقابلين في قيم الأشياء امتزجا بربها الأكبر امتزاجاً تاماً.

وهذا الزهد الصوفي غير التقوى الإسلامية، فغاية الزهد الصوفي تدمير الجماعة الإسلامية، وغاية «التقوى» سمو بالفرد، وسمو بالجماعة.

إن الزهد الذي تبشر به الصوفية، حين تريد اغتصاب اليتيم والمسكين، ليس من شعائر الإسلام، ولا من شرعته في شيء، مهما حاولت الصوفية توشيته، ليبدو لضحاياها شعيرة دينية سامية.

ويستشهد الشيخ الوكيل – رحمه الله – على أن الزهد الذي تزعمه الصوفية فيه قضاء على الفرد، وعلى قوى الجماعة الإسلامية، وأن فيه صرف للهمم عن الجد والسعي في سبيل الخير للفرد والجماعة، بكلام المستشرق جولدن زيهر الذي يقول: عن أثر الزهد الصوفي في تغيير النظر إلى المثل العليا للمسلمين:

«تغير النظر إلى المثل الأعلى للحياة الإسلامية، فأصبح ينظر إليه من جهة تخالف تلك التي أقرتها تعاليم المذاهب السنية، وهكذا أثر الصوفية على الجماهير الخاضعة لنفوذهم، فقل إعجاب الناس بتلك السمة العسكرية لأبطال الإسلام، والشهداء الأقدمون الذين، ما كانوا إلا من فئة المجاهدين، فانصرفوا عنها، وولوا وجوههم نحو صور الزهاد الشاحبة، وأجسام العباد الهزيلة والرهبان المنقطعين في الصوامع، بل إن الأبطال الأقدميين في عصور الإسلام الأولى الذين كانوا مثالاً يحتذى، صار لزاماً عليهم أن يحصلوا على صفات البطولة الجديدة، أي أنهم جردوا من سيوفهم، وألبسوا أردية الصوف[2].

ويمضي الشيخ – رحمه الله – معقباً على كلام جولد زيهر بمقال في مجلة الهدي النبوي عدد (1) من المجلد (36) يوضح فيه، كيف كشف المستشرق بفقرته هذه، عن جناية مؤرخي الصوفية، على تاريخ أبطال الإسلام، وكماته السابقين.

---

(1) كتاب «هذه هي الصوفية» (ص170).

(2) كتاب هذه هي الصوفية ص170، 171.

كما يصور المقال كيف حولت الصوفية، المثل الإسلامي الأعلى لأبطاله وكماته وشهداءه، إلى صورة مجاذيب ذوي خرق بالية قذرة ونتنة.

وكيف صار أولياء الصوفية بله شعث غُبرُ صُفر الوجوه، وثيابهم مراقع خلقة دنِسَة. ويستدل على ذلك بما جاء على لسان الشعراني في «الطبقات الكبرى».

الدعوى إلى الخلوة بالعذلة:

على أن الأمر لم يقف عند دعوة الصوفية إلى الزهد الصوفي على ماله من آثار ضارة على قيم المجتمع الإسلامي، وعلى تغير النظر إلى المثل العليا للمسلمين.

بل دعوا إلى الخلوة، والعزلة، والفردية، حيث قال ذو النون[1]:«لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة».

وقال غيره:«إن كان في مخالطة الناس خير فإن في العزلة السلامة».

وقال الجنيد:«من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس».

وقال غيره:«الزم الوحدة وامح اسمك من القوم واستقبل الجدار حتى تموت».

وقال أحدهم:«لقيني الخضرُ، فطلب مني الصحبة، فخشيت أن يُفسد عليَّ توكلي».

وقال غيره:«إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك، فقد أعطي خير الدنيا والآخرة».

إن الدعاة إلى هذه العزلة يصورونها تصويراً فيه خلابة السحر وفتنة العشق، فيزعمون أنها عزلة العبد عن الناس؛ ليختلي بربه!!

ولكني أسأل: ما حال ذلك المجاهد الفدائي الذي يحمل سيفه، ويقتحم به الحرب في سبيل الله، ألا يكون مع الله سبحانه؟

وذلك الفلاح الذي يحمل فأسه، والعرق الساخن يتفصد من جبينه، وهو يضرب الأرض بفأسه القوي، متوكلاً على الله، ألا يكون مع الله؟

وأي الصنفين خير، أولئك الذين آثروا أنفسهم وغَلَّلهم حبها بالأثرة الطاغية، فاعتزلوا الناس جميعاً، دون أن يقدموا لهم خيراً، بل عاشوا يطعمون من كد الناس، أم أولئك الذين آثروا الخير العام، والنضال والكد باسم الله؟

إن هؤلاء الدعاة يقيسون عشقهم لله – كما يزعمون – بعشقهم للغانيات، ففي عشق هؤلاء تستحب الخلوة والعزلة عن الناس عند عبيد الجسد، ولكن الله يا هؤلاء رب الجميع، لا رب فرد واحد حتى يختصه بالخلوة معه، إنه مع المحسنين، مع المتقين، مع الصابرين، ما قال: إنه مع المعتزلين، وإنما هو الله الرحمن الرحيم.

ترى ماذا يحدث لو أن كل مسلم استجاب إلى هذه الدعوة.

---

(1) مجلة الهدي النبوي عدد 12 لسنة 1379.

فقد نقرأ في صفحات التاريخ قصص بعض المسلمين الذين اعتزلوا الحياة ويحاول من يستهويهم هذا القصص أن يتخذ منه مثلاً أعلى في الحياة له، غير أن الحق يفرض علينا أن نعرض هذا على مبادئ الإسلام، فهل في هذه المبادئ السامية ما يبيح تلك العزلة الموحشة عن الحياة[1]؟

إن الدين الذين ندين به، والحق الذي يفرض علينا الدفاع عنه والواجب الذي لابد من القيام به، يوجب علينا ذلك كله أن نعقب على ما ذكر.

لا ريب في أن هذه الدعوة دعوة قاتلة فاتكة، إنها دعوة إلى الخمول والضعف والجبن، إنها تؤثر الفرار من الحياة والإذعان الخانع لكل بغي وجور، وتؤثر العزلة الصماء التي تسد سمعها – إن كان لها سمع – عن كلِّ نداء جليل، وكل دعوة إلى الخير والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، والكفاح في سبيل بناء الجماعة على التآخي والتكافل البر الرحيم، إنها دعوة الأثرة الباغية التي تدفع بالأمة إلى هاوية العدم، ماذا يقدم هذا الجائع الذي يسحقه الفقر لأمته؟ أو هذا الجاثم على هواه في كهفه المظلم الرهيب؟

إنني أتصور الدنيا – إن جنحت إلى هذه الدعوة واتخذتها لها منهاجاً في الحياة – مغاور مظلمات يقبع في كل مغارة منها شبح معروق ضامر الجسد زائغ العينين متهدل اللسان والشفتين أشعثُ أغبرُ، تتوسل إشارات يديه الضامرتين إلى رشفة أو لقمة!!

تطابق عجيب:

ومما يستوقف النظر أن هذه الدعوة ظهرت تلح في النهي عن التزوج والكسب وطلب الحديث، وتوغر الصدور ضد الولد والأهل في وقت كانت الدولة الإسلامية تمور بالفتن، وتعج بالثورات التي تستهدف القضاء على الإسلام وأهله وحماته، ومما لا ريب فيه أن هذه الدعوة تمد هذه الثورة بالعون الكبير، وتعجل لها الوصول إلى الظفر بغايتها.

دفاع وردُّه:

قد يقال – وهذا لا ننكره – أنه وردت في هذه الكتب كلمات طيبات تدعوا إلى غير ذلك، بيد أن هذا أشبه ما يكون بلمحة من نور نجم قصي في ظلمات ليل بهيم، وأشدد بها جناية على الحق أن تحيطه بسياج من الباطل العربيد، ثم إن الدعوات الدينية يجب أن تكون صريحة خالصة، فلا تترع إلى قليل من حق في الوقت الذي تترع فيه إلى باطل كبير، والله يقول:﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾؟ ليس بين الحق والباطل، أو بين الهدى والضلال من صلة. ولا يجوز في الدعوة إلى الله أن نخلط الحق بالباطل، أو أن ندعو إلى هدى وضلال، أو أن نذود عن الحقيقة بالشمال، ثم نحن نطعنها باليمين.

(1) كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يعتكف الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، و لم يرد عنه أنه زاد عليها إلا في حديث رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه، فقد رووا أنه صلى الله عليه وسلم لم يعتكف عاماً في رمضان، فلما كان من العام المقبل اعتكف عشرين يوماً، ولكن هل ترى صلة بين هدي النبوة وبين ما دعا هؤلاء الشيوخ إليه؟

يقولون – ونحن لا ندفع قولهم، وإنما ندفع ما يرتبون عليه: - إن في هذه الكتب كلاماً جليلاً رائعاً جميلاً، نعم. ولكني أسأل: لماذا ننسب هذا الحق الجليل إلى غير مصدره الأصيل، لماذا لا ننسبه إلى الإسلام؟ أليس في نسبته إلى التصوف تجريد لهذا الحق من أجمل مقوماته؟

وفي معرض الرد على شبه الذين يقولون: إن الخلاف شكلي أو سطحي، وأنه لا يهم نسبة هذا الأمر إلى الإسلام أو إلى التصوف، وأنهم يستمدون هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نراه – رحمه الله – يقول: إن الخلاف عميق، فالله يقول: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، و لم يقل عند الصوفية، وإذا كان أنصار التصوف يرفضون أن يطلق على رسومهم غير التصوف، فما بالهم يريدون منا غير هذا بالنسبة للإسلام.

ولقد كان منهج الشيخ الوكيل إيثاراً للعدل، هو أن يبسط آراء التصوف كما بثها كبار شيوخه ثم يترك للقارئ الحكم في أن يقارن بين أصول الإسلام، وبين آراء التصوف، على أنه كان يعينه أحياناً بتذكيره بأدلة هذه الأصول من آيات القرآن الحكيم، والسنة المطهرة.

وحسبك دليلاً على ذلك أن تقرأ ما كتبه عن الزهد وما كتبه عن التقوى، إذ يقول:

إن الزهد[1] لم يرد له ذكر في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة النسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان لله أن يدعو عباده إلى تحقير نعمه العظيمة، أما الذي ورد في كتاب الله، فهي «التقوى»، والتقوى جماع الخير والفضل والمعروف، ألم يكن سليمان عليه السلام تقياً، وهو ينعم بهذا الملك الكبير، ألم يكن الأغنياء من أصحاب الرسول أتقياء والمال تسيل أوديته بين أيديهم أنحقر من شأن هؤلاء البررة الأخيار؛ لأنهم لم يحقروا نعم الله؟ أو لم يزهدوا في المال؟

الزهد «مانوية» ملحدة، و«التقوى» إسلام عظيم، فلماذا نأخذ بالشيء منسوباً إلى الشر، أو مختلطاً بالشر، ونترك الشيء، كله خير وحق؟!

والله يقول عن خيار عباده وأصفيائهم: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾. ما قال: وألزمهم كلمة الزهد!!

لقد حاول هؤلاء تغشية النور والجمال والحق من كلمة التقوى بسحر الباطل من كلمة الزهد، حتى أصبح الكثيرون يتعشقون سحرية «الزهد» ولا يعرفون الخير الكبير في كلمة «التقوى» بل أصبحوا وكلمة «التقوى» تثير في نفوسهم رعباً يصرفهم عنها، وعن جلال معناها وصفاء روحانيتها، ما وجه الله إلى رسول أو نبي أو ولي أمراً بالزهد، وإنما وجه إليهم جميعاً الأمر بالتقوى، واقرأ كتاب الله وتدبر آياته.

يزعم الدعاة إلى الفرار والعزلة عن الناس أنهم يقتدون في هذا بتحنث الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

ويقول الحق: إن هذا التحنث كان قبل أن يمن الله على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وكان المجتمع الذي فر منه مجتمع وثنية وفسوق، ففر إلى الغار، هرباً بنفسه من هذه الحياة المدمرة الفاسقة، أما بعد أن أصبح رسولاً،

(1) مجلة الهدي النبوي عدد 12 لسنة 1379.

فإنه لم يأو إلى غار يتحنث فيه و لم يؤثر الفرار من المجتمع ولا العزلة عن الناس، وكيف يعتزلهم، أو يفر منهم وهو يتلو قول الله:﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾، وليس من جهادهم الجثوم في كهف، أو على قُنَّة جبل.

كيف يفر، وهو يتلو قول ربه:﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾، وليس من هذا الجهاد الانطواء على النفس، والتفرد في مغارة!!

عاش صلى الله عليه وسلم بعد أن منَّ الله عليه بالرسالة مكافحاً مناضلاً مجاهداً عاملاً في دأب وصبر كريم، لا يأوي إلى غار، ولا يهفو إلى عزلة، ولا يحنو على فرار، والله يقول: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾. فهل تحنث رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار بعد أن أصبح رسولاً؟ وهل نحن مكلفون بالاقتداء به قبل أن يكون رسولاً، أو بعد أن أصبح رسولاً؟ والجواب في الآية الكريمة، وتدبر كلمتي «رسول الله»؛ إذ لا يصلح أن يوضع مكانها كلمة «محمد»، فالقدوة بمحمد الرسول صلى الله عليه وسلم، لا «بمحمد بن عبدالله» مجرداً عن هذا الوصف المحكم.

ويقول الناهون عن الزواج: إننا نستند في هذا إلى قول ربنا:﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾.

وما من شك في أن زعمهم هذا كله تلبيس وتدليس وتجاهل، فكلمة «من» وهي تفيد التبعيض رد محكم على زعم هؤلاء، وفوق هذا تقول الآية ﴿فاحذروهم﴾، وما في الأمر بالحذر أمر بتجنب، أو صدع بنهي عن التزوج وإنجاب البنين.

ثم ما رأي هؤلاء في قوله سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾، فهل ننظر إلى آية الله على قدرته ورحمته نظرة جحود، ونترو عليها بالكفر.

إن الإسلام لم يدع إلى العزبة، وإنما دعا إلى الزواج، اسمع قول الله: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: «أنتم القوم الذين قلتم كذا، وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب سنتي، فليس مني». البخاري واللفظ له، ومسلم وغيرهما.

إن النهي عن الزواج ليس من شعائر الله، وإنما هو من شعائر «ماني بن فاتك» المجوسي الفارسي الذي ادعى النبوة، فقد دان بأن النور – وهو إله المعبود – قد امتزج بالظلام – وهو إله الشر – ولن يتمكن النور من قهر الظلام إلا بعد أن يفنى هذا العالم، فحرم ماني الزواج على أتباعه، وكلفهم الزهد القاتل والصيام الساحق الطويل، ليسرع العالم إلى الفناء فيتخلص النور من الظلام، أو ينتصر إله الخير على إله الشر............

ونحن مسلمون لا مانويون!!

وهكذا صور الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – التصوف العملي في شعيرتيه الزهد والذكر، فإذا مضينا في دراسة ما كتبه عن عبادة الصوفية نجده يقول[1]:

ما عبادة الصوفية؟ أهي تلك النذور يحفدون بها إلى الجيف؟ أهي تلك السجود على عتبات الأصنام دوخها وطء النعال؟ أهي هذا التقبيل الملهوف العاشق لأحجار الأوثان رجاء سلسبيل رحمة منها ومغفرة؟ أهي هذا التوسل إلى الله بعظام نخرة، وصفوان[2] أملس وخشب عَافَه السوس من طول ما طعم منه؟ أهي هذا الدعاء العريض بالهامدين في القبور، ينشدون منهم مدد الحياة وروح الخلود، أهي تلك الأوراد[3] الشركية ينعق بها الصوفية تحت سجوات ليلهم المعربد، وشفوف السحر الراقص، في هياكل الطواغيت؟! أهي هذا الحلف بالقبور والهامدين فيها، وجعل الحلف بالله عرضة للفرار من ذنب أو جريرة؟

ذلك هو الجانب العملي من التصوف في ذكره وزهده وعبادته، أتراه يصلح لهداية الإنسانية، وقيادتها إلى مثلها العليا؟ أم تراه يفتك بها فتك السل الدفين بالصدر الرقيق الحزين؟! أما جانبه النظري، فقد دانوا فيه بأن العبد عين الرب، وبأن الشرك عين التوحيد، ذلك هو التصوف بنوعيه، إن شئت أن تجعله نوعين! فهل تراه يودي بالمسلمين إلا إلى التهلكة بعد أن يحيلهم من عباد للرحمن إلى عَبَدةٍ للطاغوت؟ من أمة قوية عزيزة كريمة موحدة للغايات والمبادئ إلى أشتات واهنة، وأشباح هزيلة مستضعفة، تضرب بها الوثنية في متاهات الباطل، ويقضي عليها الوهن والذل والصغار، فتصبح المطايا الذلل للاستعمار، وأحلاف الضعة، والمهانة والاستكانة؟!

  

(1) هذه هي الصوفية: عبدالرحمن الوكيل ص179، 180.

(2) صفوان: حجر صخري ناعم.

(3) لكل طريقة ورد خاص بها تفضله على جميع الأوراد الأخرى، بل تفضله على القرآن، قال طاغوت التيجانية:«وسألته صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفاتح، فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في السكون، ومن كل ذكر، ومن كل دعاء كبير أو صغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة» ص103 – ج1 جواهر المعاني لابن حرازم التيجاني طريقة. فتدبر كيف تجاهد الصوفية في سبيل صرف المسلمين عن كتاب الله.

الذكر الصوفي

أخي أثلج الله صدرك بالتقوى وأقر عينك بالهداية، لعلك رأيت يوماً حول أحد الأضرحة أو في موالد البدعة والضلالة، قوماً يتصايحون ويتمايلون تارة جهة اليمين وتارة أخرى جهة اليسار في حركات هستيرية بادية الخبل، فإذا سألت قيل لك إنها حلقة ذكر صوفي، وهي في الحقيقة لا تعدو أن تكون مرقصاً من مراقص الشيطان.

وكما استحوذت أوراد الصوفية وما فيها من شذوذ فكري، وضلال عقائدي، على جانب كبير من كتابات الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – في مجلة الهدي النبوي (مجلد 25 لسنة 1380ه)، فأننا نجده قد أفرد لقضية الذكر الصوفي وطرائقه وصيغه وبدعه وبهتانه، فصلاً كاملاً في كتابه «هذه هي الصوفية» جاء فيه وصف لكيفية الذكر الصوفي وأصل الذكر، وصيغ الذكر، وإليك جانباً من كتاباته يقول فيه[1]:«في أعياد الوثنية التي يسمونها موالد، وفي معابد الأضرحة التي يسمونها مساجد، وفي كهوف الدراويش، وقد أتخموا بطون الطواغيت بالسحت، في تلك الحمآت يقيم الصوفية حانات الرقص، أو ما يسمونه الذكر.

فيجلس الشيخ بين صفين من دراويش تعشقهم الرذيلة ودرويشات نفرت منهن الفضيلة.

ثم يصفق بيده إيذاناً ببدء الذكر، ثم يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله مُلحداً في حروفه وفي النطق به، وغضون جبينه تهمز الحياء وتلمز التقوى ومُنشد القوم يطربهم بالغزل الداعر في ليلى وسعاد، أو بالدفوف يدف عليها الشيطان، وبالنايات تصفر فيها الشهوة، ثم يهب الشيخ، ويهب معه المريدون، وثمت يميلون يمنة ويسرة، مُتأَوِّدَة أعطافُهم تأود الراقصات يلمحن في أيدي الرُّوَّاد دِنَانَ الخمر وفتنة الذهب، وما هي إلا لحظة، حتى تجنَّ هذه الأجساد بما فيها من رغبات مكبونة، مفصحة عن غليلها المحترق بالتأوه المخنث، والتمايل الخليع، وبالأصوات المنكرة المبحوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزينب أو نفيسة، لا يريدون زينب الطاهرة، ولا نفيسة العابدة، وإنما يريدون بهما شيئاً آخر!! فكل يغني على أنثاه!! وهكذا يظلون في اقتراف هذا الزور الملحد ساعة أو ساعتين[2]، كل يريد أن يثبت العيون الرانية في لهفة، والزغاريد المغازلة في توجع مشوق، أنه حيوان قوي الجسد!! وبعد هذا يزعمون أنها كانت من ساعات التجلي!! ولكم من أم باعت قوت يتيمها، وزوج ستر امرأته، «ومدين يهلكه الدين بقية طعامه في سبيل «شيشة» الشيخ، و«حشيش» الشيخ، و«أفيون» الدراويش. وهم يرقصون في حانات الذكر!!

أتراني بالغت؟ أم أني قصرت؟ إخالك تترع إلى اتهامي بالتقصير، فكل ذي بصر تقع عيناه على الصوفية يعربدون في حانات ذكرهم، تقع عيناه على مشاعل المجوس، تتوهج كرغبات الفاجر، على الدفوف بأيدي فتية أسبلوا شعورهم، وقد لمسهم الشيطان بلهيبه، فراحوا يتكسرون على النغم الشرود، ويهصرون غصونهم على النظرات

---

(1) كتاب «هذه هي الصوفية»: تأليف الشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص172 – 177).

(2) يظل الراقص الصوفي يتخلع ساعة في حانة الذكر ودون أن يحس بملل حتى إذا وقف للصلاة «يخبط الصلوات الخمس» في خمس دقائق!! هذا لأن الرقص الصوفي شهوة وخطيئة، أما الصلاة فطهر وعبادة.

المتوهجة الرغبات، وشيخ الطريقة سعيد، لأن شباك فتيته توقع في حبالها الهائمين، هذا يحدث، وتراه وتراه، ولا تسمع النكير عليهم من أحد، كأنما رذيلة القوم فضيلة مقدسة!!

ما هكذا ذكر الرسول ربه، وما هكذا ذكر الصحابة من بعده ربهم، ما ذكروه باسمه المفرد، ولا ذكروه في ميل وتأود، ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطق بالاسم مصفقاً، وينطقون به وراءه، ما ذكروه ولهم منشد يغازل ليلى، ما ذكروه وأصواتهم من ضجيجها تفزع الليل، وتصك جنباته، ما ذكروه جزاء مضغة لحم أو نفثة «شيشية»، ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف، ولكنهم ذكروه، كما علمهم رسوله، أما من ذكر الله ذكر الصوفية فهم مشركو الجاهلية ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾[1] وكفر اليهودية والمسيحية!!



(1) المكاء بالصفير بالفم، أو التشبيك بالأصابع والنفخ فيها، والتصدية: التصفيق.

ذكر الصوفية بدعة يهودية

جاء من المزمور التاسع والأربعين بعد المائة:«ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص وبدف، وعود، ليرقصوا.. هللوا يا، سبحوا الله في قدسه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج الهتاف. [العهد القديم، المزامير ص 641].

وإليك ما جاء في العهد القديم كتاب اليهودية والصليبية:«احمدوا الرب بالعود، بربابة ذات عشر أوتار، رنموا له، غنوا له أغنية جديدة، أحسنوا العزف بهتاف» «سبحوه بصوت الصور، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج التصويت، سبحوه بصنوج الهتاف»(1).

والذكر الصوفي برجسه، عين الرقص الصهيوني الصليبي نفسه!! وتدبر ما كتب الصوفية عن ذكرهم، وتدبر حال الصوفية في ذكرهم، وقارن بينه وبين ما نقلت لك عن المزامير وثمت تعلم علم اليقين المصدر الذي أمد الصوفية بذكرهم(2)!!

وهكذا يذكر الصوفية، وحسبك أن ترى حانة صوفية يذكرون بها؛ لتشهد الصلة الوثنية بين الذكر الصوفي، والبدعة الجاهلية اليهودية!! ولكن الدباغ يزعم «أن الصوفية يهتزون يميناً وشمالاً؛ لأن الأقطاب رأوا الملائكة تفعل ذلك»(3).

---

(1) المزامير: مزمور رقم (33) الفقرتان (3، 2)، ثم المزمور رقم (150)، والفقرات (5، 4، 3، ، والدف عبارة عن قطعة من الجلد الرقيق ممدود على إطار من الخشب، وحوله أجراس صغيرة معلقة به والرباب آلة موسيقية مثلثة الشكل ذات أربعة أوتار، وكان يدق عليها بالأصابع وصنوج التصويت هي الفقيشات التي تستعملها الراقصات وتسمى الآن «الصاجت» وصنوج الهتاف صفيحتان مستديرتان من النحاس إذا ضربت إحداهما بالأخرى رنتا والصور آلة طرب طولهما ثمانية عشر قيراطاً كان يستعملها الكهنة في العبادة. انظر قاموس الدكتور جورج بوست تحت مواد الكلمات.

(2) مجلة الهدي النبوي – عدد 3 – سنة 1382ه.

(3) (ص72 ج2 الإبريز).

الشيخ جاسوس القلب

يوجب الصوفية على الذاكر «أن يستحضر شيخه، وأن يستمد منه عند الشروع فيه، فيقول مددك يا أستاذي، وأن يرى أن استمداده منه، عين استمداده منه صلى الله عليه وسلم، فإنه الواسطة إليه، وأن يستأذن شيخه بقلبه، فيقول: دستور يا أستاذي!، وأن يستأذن أصحاب الطريق والقدم، وهم أهل السلسة، فيقول: دستور يا أصحاب الطريق والقدم[1]، وهكذا توجب الصوفية على «الدرويش» أن يتلطخ بهذه الوثنية قبل أن يذكر الله، وأن يستأذن كل هذه الأصنام؛ ليتقبل الله ذكره، ويغمره برضاه! حُجُبٌ صماء، تمور حولها الدياجير، وتقصف الأعاصير، تضعها الصوفية في طرق السالك، حتى لا يرى شعاعة من نور!!

  

(1) انظر ص28 وما بعدها من رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني ص86 – رسالة من منحة الأصحاب لأحمد بن عبدالرحمن الشهير بالرطبي.

كيفية الذكر

«أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه، وأن يبدأ ب«لا» يميناً، ويرجع ب«إله» فيتوسط، ويختم «إلا الله» يساراً قبلة القلب، فإن ذكر اسمه مفرداً ك «الله»، و«هو» ضرب بذقنه على صدره، وأن يذكر مع جماعة مع رفع الصوت، وينتع الكلمة من سرنه إلى قلبه»[1]. هذه البهلوانية الرعناء، هي صورة الذكر الصوفي، ترى هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو يذكر ربه – يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه؟ أو كان يضرب بذقنه صدره؟ أو كان يميل يمنة ويسرة؟ لم يفعل شيئاً من ذلك؛ لأنه نبي؛ ولأنه رجل أبيٌّ الرجولية، أما رفع الصوت، فالله يقول:﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾، وهو أصل الدعاء، ولكن الصوفية بهدى ربهم يعدلون!

صيغ الذكر الصوفي

«من آداب المريد مع شيخه أن يذكر ما لقنه له أستاذه، فلا يتجاوزه إلى غيره»[2]، ولهذا تعددت صيغ الذكر الصوفي، تبعاً لتعدد الطرائق، وتباين الشيوخ، فمنهم من يذكر بالاسم الفرد، ومنهم من يذكر ب«هو هو»، ومنهم من يذكر ب«أه أه»، وكل طاغوت صوفي يحرم على عبدته أن يذكروا بغير ما أذن لهم فيه، أو أن يذكروا ما ترقص به الطرق الأخرى؛ لاعتقادهم أن بعض أسماء الله قد يضر ذكرها هذا، وينفع ذاك، أو تضر في حال، وتنفع في حال أخرى، والخبير بما ينفع الذاكر، أو يضره، إنما هو الشيخ؛ لهذا لا يستطيع «الدرويش» أن يذكر «لا إله إلا الله» إلا إذا أمره بها، ولا ينادي ربه بيا لطيف، وإلا أصابه مسٌّ أو خبال، أو كما يسمونه «لطف»!

وابن عطاء الله السكندري يقسم الذاكرين إلى أنواع مختلفة، ويطلق عليهم بعض الأسماء كالعوام، والسالكين، وأهل الغفلة، وأرباب الخلوة، ثم يخصص لكل فئة منهم الذكر الذي يناسبها، فيقول:«اسمه تعالى (العفو) يليق بأذكار العوام؛ لأنه يصلحهم، وليس من شأن السالكين إلى الله ذكره».

اسمه تعالى «الباعث» يذكره أهل الغفلة، ولا يذكره أهل طلب الفناء.اسمه تعالى «الغافر» يلقن لقوام التلاميذ، وهم الخائفون من عقوبة الذنب، وأما من يصلح للحضرة، فذكره مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة.

اسمه تعالى «المتين» يضر أرباب الخلوة، وينفع أهل الاستهزاء بالدين[3].

ويستمر ابن عطاء في سرد هذا البهتان حتى يستوفي أكثر أسماء الله. هذا والله تعالى يقول:﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾، ويقول:﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

اسمه الغافر لا يصلح إلا للعوام! كأنما أولئك الطواغيت معصومون من الذنب أو آلهة! على حين كان يستغفر الرسول صلى الله عليه وسلم ربه مائة مرة! فهل تجد رحماً بين حق القرآن وبين باطل الصوفية؟

---

(1) المصدر السابق.

(2) من رسالة الحلواني ص30.

(3) «مفتاح أفلاح (ص23) وما بعدها – ط 1332ه.

ويضيف الشيخ عبدالرحمن الوكيل إلى حديثه عن الذكر الصوفي، فيكتب بمجلة الهدي النبوي عدد 3 لسنة 1381ه يقول:«إن الصوفية تحب أن يكون الذكر كله بالاسم المفرد، ولكل نحلة صوفية اسم خاص تذكر به — كما أن المريد ليس حراً في أن يذكر الله بما يريد من أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لأن الذكر ببعض الأسماء قد ينفع مريداً، ويضر بآخر.

«لهذا يجب على المريد ألا يذكر إلا بما عينه له شيخه».

يقول ابن عطاء السكندري — وهو صوفي يُوسَمُ بالاعتدال -:«من العارفين من اختار السكوت عن الذكر في النهاية».

هذا على حين يقول صوفي آخر:«نفوس العارفين تتبرم بالأذكار لأنها تستصغر ثمراتها».

ويقول آخر:«إنه ترك الذكر لأنه مستغرق في مشاهدة الذات الإلهية»[1].

وابن عطاء الله السكندري الذي يجعل لكل اسم من أسماء الله الحسنى صنفاً من الناس يذكر به ولا يذكر بغيره، ولا يذكره به غيرهم، تراه يبيح الذكر بمثل ما يأتي:

«هو هو.......... لا لا لا.......... آ، آ، أه، أه»، بل يبيح الذكر بصوت بغير حرف، ويسمي مثل هذا الذكر وراداً إلهياً، ويوجب على الذاكر التسليم لهذا الوارد الإلهي؛ لأنه حينئذ يكون مسلوب الاختيار، يزعم أن الله هو الذي يختار له حينئذ، وأن إرادته قد فنيت في إرادة الله!!

ويوضح ابن عطاء السكندري لماذا تمجد الصوفية الذكر بكلمة «هو»، يقول:«واعلم أن هو اسم موضوع للإشارة، وعند أهل الظاهر، لا يتم الكلام إلا بخير نحو هو قائم هو قاعد، وعند هذه الطائفة — أي الصوفية — هو إخبار عن نهاية التحقيق ويكتفون به عن كل بيان لاستهلاكهم في حقائق القرب، واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم، فما سواه لا شيء، حتى تقع الإشارة إليه.

ويخلص الشيخ الوكيل - رحمه الله - في دراسته إلى أن الصوفية تحب أن يكون الأمر بكلمة «الله» فقط بدلاً من «لا إله إلا الله»؛ لأنهم يرون أن من قال:«لا إله إلا الله» فهو مشتغل بغير الحق، ومن قال:«الله» فهو مشتغل بالحق!! ويعللون هذا بما يأتي:

«إن نفي الشيء إنما يحتاج إليه عند خطور ذلك الشيء على البال وخطور ذلك الشيء لا يكون إلا عند نقصان الحال، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك، امتنع أن يكلفوا نفي الشريك». ويقترفون علة أخرى لتحريم الذكر بكلمة التوحيد وهي «لا إله إلا الله» وتلك هي أن نفي العيب عمن يستحيل عليه العيب عيب، وعلة أخرى هي: أن الذاكر قد يبغته الموت عقيب نفي الألوهية بقوله: لا إله فيموت الذاكر ملحداً[2].

دجل يهطع له عباد الباطل، ويهرج فتنته!!

---

(1) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص74).

(2) «مفتاح الفلاح» (ص29).

أما عباد الرحمن، فلا يهطعون إلا لقول الله سبحانه، ولقول رسوله صلى الله عليه وسلم.

إنهم يؤمنون بأن كلمة التوحيد هي شهادة الله، وشهادة الملائكة، وشهادة أولي العلم، فهل بعد هذه الشهادة من شهادة ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾، فهل يأمرنا الله بأن نخطر الشريك على البال حين نذكره؟ أو يأمرنا بذكر فيه آفة قاتلة؟

وهل الله باغٍ حتى يحاسب من فجأه الموت قبل أن يتم الكلمة؟ أتراهم يبهتون الله بأنه لا يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور.

وإن تعجب فعجب أنهم يفرضون على المريد أن يجعل شيخه في قلبه، ويحرمون عليه أن يغيب عن باله طرفة عين، وهو يذكر الله!!

بل يفرضون عليه أن يخطر على باله كل شيوخ الطريق!! أي يفرضون عليه أن يخطر على قلبه عشرات الأغيار من الأصنام والطواغيت!!

لعل هذا يؤكد لك أن الأمر أمر كراهية مقيتة لكلمة التوحيد، لا أمر عيب بذكر آفة، ولا شرك بخطور غير على البال، هذا؛ لأن كلمة التوحيد تقضي على باطل التصوف كله وضلاله.

ثم أذكر مع خرفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم:«أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»، ولكن التصوف يزعم أن أفضل ما يقوله خاتم النبيين ما هو إلا سمة جهالة، ولوثة ضلالة!!

ولنعد مرة أخرى إلى نصوصهم.

يقول ابن عطاء:«منهم – أي من شيوخ التصوف – من اختار لا إله إلا الله، محمد رسول الله في الابتداء والانتهاء، ومنهم من اختار لا إله إلا الله في الابتداء وفي الانتهاء، بالاقتصار على الله، وهم الأكثرون، ومنهم من اختار: الله، ومنهم من اختار: هو»[1].

أما الغزالي الذي لقبه التصوف بأنه حجة الإسلام، فيقول:«لا إله إلا الله توحيد العوام، ولا هو إلا هو توحيد الخواص؛ لأن ذلك أعم، وهذا – أي الذكر بلا هو إلا هو – أخص، وأحق، وأدق، وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة»[2]. وكبرت كلمة خرجت من فم الغزالي!!

ألا تراه يزعم أن شهادة الله، وشهادة ملائكته، وأفضل ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله – يزعم أنها توحيد العوام!!

ونظرة فاحصة في قول الغزالي تؤكد إيمانه بوحدة الوجود فيما قال. فالذكر بلا إله إلا الله يثبت لله الألوهية، وينفيها عن غيره، ولكنه لا ينفي «وجود» سواه سبحانه.

- الذكر بكلمة التوحيد يستلزم الإيمان بوجود خالق معبود، ووجود خلق عابد، فهو إذن يقرر ثنائية الوجود.

---

(1) «مفتاح الفلاح» (ص27).

(2) رسالة مشكاة الأنوار من مجموعة الجواهر للغزالي.

- أما الذكر بـــ«لا هو إلا هو»، فيثبت الوجود لله وحده، وينفيه عن غيره، فكلمة «هو» إشارة إلى وجوده الباطن، فيصير معنى الجملة: لا موجود إلا الله، أو لا وجود إلا وجوده، ومعنى هذا إثبات الوجود لحقيقة واحدة، ونفيه نفياً جازماً عن سواها، أو إثبات لوحدة الوجود، أو إثبات للوحدة العامة بين الخلق والخالق، أو إثبات لما يدين به الصوفية، وهو أن الله هو عين الأشياء!! وإلى هذا يشير الغزالي بقوله:

«الفردانية المحضة، والوحدانية الصرفة».

فالغزالي يذكر موجوداً وجوده قائم بوجود غيره أو وجوده جزء من وجود غيره، أو هو يذكر في الحقيقة عدماً يتوهم أنه موجود.

ويختم الشيخ الوكيل كلامه بقوله: ليعلم الذين يؤمنون بتصوف ويكفرون بتصوف أن التصوف كله دين واحد، وأن تقسيمه إلى معتدل وغير معتدل ما هو إلا شرك لئيم يعد لاصطياد من لديه بقية من حذر الإيمان وبصيرته.

أقول هذا لأولئك الذين يحسنون الظن بالتصوف العملي، ويثنون على بعض ألوانه كتصوف الجنيد، والجيلاني، وابن عطاء، ولعلهم قد رأوا تصوف ابن عطاء وهو من الموسومين بالاعتدال العظيم في التصوف، لعلهم يعذروننا في مهاجمة كل تصوف سواء منه تصوف الجنيد، أم تصوف ابن عربي، فهذا وليد ذاك، ثم إننا لا يمكن أن نقر كمسلمين شيئاً يقوم بإزاء الإسلام، فما ثم من حق إلا دين الله.

- ويتساءل الشيخ الوكيل رحمه الله فيقول: هل القتل جهرة رذيلة؟ والقتل خفية فضيلة؟

إن من يجيب على هذا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال: أتصوف ابن عربي كفر، وتصوف ابن عطاء إيمان!!

آداب الذكر

بعد أن بيَّن الشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه الله في كتابه «هذه هي الصوفية» جانباً من آداب المريد مع شيخه وأنه يجب عليه أن يلتزم بما عين له من ذكر، وأن عليه إن جلس للذكر أن يستحضر صورة شيخه وأن يقول قبل أن يبدأ الذكر:«دستور يا أصحاب الطريق والقدم»، وبعد أن رسم لنا الصورة الكاملة لما يقوم به المريد من حركات، عندما يذكر بلا إله إلا الله، وأنها يصعدها من فوق السرة، على أن يبدأ بكلمة «لا» يميناً ويرجع «بإله» فيتوسط ويختم «بإلا الله» يساراً صوب القلب مهتزاً من قمة رأسه إلى مخمص قدميه.

تجده قد كتب في مجلة الهدي النبوي[1] مقالاً عن آداب الذكر الصوفي وكيفيته، ذكر فيه بالإضافة إلى ما سبق ذكره، ما تدعيه الصوفية من أنه لا يجوز للمريد الخروج من الذكر إلا بعد أن يستأذن الواسطى العظمى أي الرسول صلى الله عليه وسلم – ثم يقرأ الفاتحة، ثم يدعو بدعاء السكتة أو النومة كما يسميها بعضهم.

وكيفية السكتة: يسكت مطرق الرأس، ويكتم نفسه ثلاث مرات أو خمساً أو سبعاً، كافاً عن شرب الماء؛ لأن للذكر حرارة وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة، ثم يفك نفسه من هذه السكتة بقوله جهراً: لا إله إلا الله.

وهذه السكتة واجبة بإجماع شيوخ الطريق، وقد شرع كثير منهم لمن يذكر وحده أن يجلس في مكان مظلم، وإلا فليخف رأسه في جيبه أو يضع على عينيه ما يخفي عنها النور.

الرقص في الذكر:

تبهت الصوفية رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قال:«أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا: مجنون». وقد استندوا إلى هذا البهتان في إباحة الرقص، فيقول أحدهم:«أما الرقص فقد أفتى شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني الشافعي[2] بإباحة رقص الصوفية، وتبعه الحافظ السيوطي في فتوى ذكرها. ويقول غيره:«إن انضم إلى هذا القيام – قيام الذكر – رقص أو نحوه فلا إنكار عليهم في ذلك؛ لأنهم يفعلون هذا من لذة الشهود والمواجيد».

على أنهم يحرمون على الأحداث ديناً وسناً حضور هذه المجالس، ويقصدون بأحداث الدين المبتدئين في التصوف، وقد حرموا عليهم حضور مجالس الذكر الراقصة مخافة أن ينقدوها، ويقصدون بأحداث السن الصبية الصغار، وقد حرموا عليهم الحضور مخافة أن يفتتن الذاكرون بجمالهم، فيقترفوا معهم جريرة قوم لوط[3].

وكل مسلم يوقن أن مجالس ذكر الله الإسلامية ليس فيها خطر على حدث ما، وإنما فيها تربية وتهذيب وتقويم، وتنشئة على استقامة الإيمان بجناحي الحب: الخوف والرجاء.

أما المجالس التي يخشى منها على الأحداث، فهي مجالس الشيطان!!

---

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 6 – لسنة 1381هـ.

(2) (ص28) وما بعدها من رسالة للحلواني.

(3) (ص275) بغية المستفيد.

وإنا لنقول لهؤلاء الدعاة إلى الدعارة باسم الذكر: اقترفوا ما شئتم من فتاوى، وأتونا بألوف منها، عن ألوف الألوف من الشيوخ الذين يبيحون الرقص في الذكر!! فإن هذا الذي تقترفونه لن يغير من الحقيقة شيئاً، اللهم إلا إذا ظننتم أن فتوى تحول ردغة الخمر إلى مسجد، أو حمأة الرذيلة إلى معبد، أو خفايا الرقص إلى فضائل!!

لقد حرم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم، وأن لا نجادل فيه بغير علم، ولا هدى ولا كتاب منير:﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾.

فمن أين استمد شيوخ الرقص فتواهم؟

ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبيح هذه الخطيئة، أما إن جاءوا بأقوال ألوف من الشيوخ ليحلوا بها ما حرم الله، فليس هذا بمفض إلا إلى افتراء سوء الكذب على الله رب العالمين.

وجرياً على طريقة الشيخ الوكيل – رحمه الله – في إبراز أوجه الباطل في عقائد المنحرفين الضالين، إذ يسوق في القابل لها ما يكشفها ويعريها من عربدتها وضلالها وتيهها وذلك بذكر الحق والهدى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ونراه يعقب على ذكر الصوفية بما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول[1]:

«من عبير السنة المطهرة، يسطع عليك ما يشفي روحك فقارن بينه وبين ذلك اليحموم الصوفي.

قال صلى الله عليه وسلم:«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». متفق عليه.........

وكان صلى الله عليه وسلم يقول دُبر كل صلاة حين يُسَلِّم:«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون». رواه مسلم.

وقال: سيد الاستغفار أن نقول:«اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». رواه البخاري.

وفي الصحيحين عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل:«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيام السماوات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت رب السماوات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت،

(1) كتاب «هذه هي الصوفية» للشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص177، 178).

وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرتُ، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

أرأيت إلى هذا الذكر النبوي الجامع؟! إنها ضراعة النبوة والعبودية الخالصة تفتحت لها أبواب السماء، ما فيه ذكر باسم المفرد، ولا ضرب صدر بذقن، ولا هزة الرأس إلى أخمص القدم، ما فيه التتاوح بالرأس يمنة ويسرة، ولا نتع عن سرة إلى قلب، ما فيه منشد، ولا دف، ولا شبابة، وما فيه دائرة يقف في مركزها نصب يرقص الذاكرون بتصديته.

إنما فيه قلب مؤمن ضارع ملأه حب الله خشية ورهبة وتقوى، يتوجه إلى خالقه الأعظم مالك الملك كله في إيمان صادق، وتوحيد خالص، فصلوات الله وسلامه على محمد عبدالله ورسوله.

  

الذكر في الإسلام

وعن الذكر وجزاءه ووقته وكيفيته وأنواعه كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل مقالاً في مجلة الهدي النبوي[1] قال فيه:

في هذا المقال نعرض للذكر في الإسلام ليتبين لنا الحق من الباطل واضحاً جلياً.

الذكر: ذكر الله سبحانه عبودية القلب واللسان والجوارح، إنه بصيرة الإيمان وقوام الحياة، وروح الصالحات، إنه تزكية للإرادة البشرية، وتقويم للعاطفة، وتسديد للفكر، وللسلوك.

ولهذا أمرنا الله جل شأنه أن نذكره في كل حال؛ ليظل حالنا حال خير وصفاء وصلاح. تدبر قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

جزاء الذكر: وللذكر جزاؤه الروحي والمادي. تدبر قول الله سبحانه: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾، ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ حسبك من جزاء أن الله يذكر من يذكره!!

وقت الذكر: وليس للذكر وقت معين، ولا حال معين، تدبر وصف الله لأولي الألباب بأنهم ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾، وقوله جل شأنه:﴿وأقم الصلاة لذكري﴾، وقوله:﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾، وقوله:﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ من هذه الآيات وغيرها يتبين لنا أن الله – سبحانه – يأمرنا بذكره في كل حال، وفي كل وقت، وعند القيام بعمل من الأعمال الدينية أو غيرها، ولا سيما عند الصلاة والحج والقتال.

كيفية الذكر:

يقول سبحانه:﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾، فلا صخب، ولا عربدة ولا ناي، ولا مزمار، ولا طبول، ولا دفوف ولا خنات أنوف، ولا نباح شهوات من صوت المنشد!! وإنما ضراعة وخشوع يستثيرهما في القلب حب الله والخوف منه، ووعي كامل يستغرق مشاعر النفس ونوازع الحس، وتأملات اللب وعواطف القلب، وصوت شجي النبرات هو دون الجهر يعبر تعبيراً صادقاً عن قلب خالص الحب، صادق الخوف، ولكن لا يقعده رجاء الحب عن العمل، ولا رهبة الخوف عن الأمل.

أنواع الذكر:

يقول الإمام ابن القيم:«الذكر ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيد الله بها، وذكر الأمر والنهي والحلال والحرام، وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي».

---

(1) مجلة الهدي النبوي – العدد 3 – لسنة 1382ه.

ثم قال عن أنواع الذكر بالنسبة لأحوال الذاكرين إنها ثلاثة أنواع:«ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة الثانية، وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة»[1].

إننا لا نذكر إلا من نعرف، ونحن لا نعرف الذات إلا بالأسماء والصفات، فبماذا نذكر الله إذا لم نذكره بأسمائه وصفاته؟

إن ذكر الله بأسمائه وصفاته يشب روح الإيمان واليقين والطمأنينة.

بم يشعر الفقير، وهو يذكر ربه الغني؟

بم يشعر العاجز، وهو يذكر ربه القادر؟

بم يشعر المذنب التائب، وهو يذكر التواب الرحيم؟

بم تشعر الأمة المؤمنة في نضالها، وهي تذكر أن الله يدافع عن المؤمنين؟

بم تشعر الجماعة المسلمة، وهي تذكر أن العزة لله، ولرسوله، وللمؤمنين.

ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

حسب هؤلاء جميعاً قوة وسعادة إيمانهم بأن الله سيمدهم بما هم في حاجة إليه، ثم إن المؤمن الذاكر المتدبر لمعاني أسماء الله وصفاته يعمل ليكون قادراً قوياً عزيزاً، يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينشر الحب والرحمة والإحسان والسلام والعدل؛ لأن ربه الذي يحبه ويذكره هو القادر العزيز الرحيم المؤمن السلام.

المؤمن الذاكر المتدبر لمعاني أسماء الله وصفاته يجاهد في سبيل أن يكون مثلاً أعلى للعبودية القانتة لله سبحانه وحده.

المؤمن الذاكر لله بأسمائه وصفاته يلهمه الله يقين الإيمان والمعرفة، فلا يتوجه بحبه إلا إلى الله، ولا بخوفه إلا منه، ولا بتوكله إلا عليه، ولا يعرف له رباً غير فاطر السموات والأرض، ولا يستميل قلبه ذلك الوهم التجريدي الذي جعلته الفلسفة رباً، ولا ذلك الصنم أو العدم الذي صورته الصوفية مفيضاً للوجود، مستكناً في كل موجود!! ولا ذلك المسخ المترنح بين العدمية والصنمية الذي صورته أهواء علماء الكلام!!

من هدي الإسلام في الذكر القولي:

مما قصه الله علينا في القرآن دعاء يونس تحت الظلمات:﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

ومن ذكر أولي الألباب كما بين الله في القرآن، وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴾ ومن الذكر الجميل مع الدعاء الجميل كما بين الله في القرآن:﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)﴾ [يوسف: 101].

---

(1) مدارج السالكين (2/ 430) – ط السنة المحمدية.

وكان من ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم:«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». متفق عليه.

الذكر بالاسم المفرد:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:«والذكر بالاسم المفرد مظهراً ومضمراً بدعة في الشرع، وخطأ في القول واللغة؛ فإن الاسم المجرد ليس هو كلاماً لا إيماناً، ولا كفراً».

ويقول:«وأما ذكر الاسم المفرد، فبدعة لم يشرع، وليس هو بكلام يعقل، ولا فيه إيمان»[1].

وما قاله الشيخ الجليل سوى الحق، فما أوردته عليك من هدي القرآن في الذكر يتجلى لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يذكر ربه بالاسم المفرد و لم يكن يقف بين أصحابه مصفقاً بيديه، يتناوح، وهم يتناوحون، و لم يكن يأذن لمنشد يرقص بنغماته وشبابته وشهوات الذاكرين، و لم يكن يتمايل – وهو يذكر – يمنة أو يسرة أو يضرب صدره بذقنه، كما يفعل المخنثون، و لم تمسسه جذبة تملأ بالزبد شدقيه كما يفعل المشعبذون!!

ومن يقارن بين ذكر الإسلام وذكر الصوفية يجد الحق الذي يحاول الباطل أن ينتسب إليه، ومن يقارن بين الذكر الصوفي وذكر الشرك الجاهلي يجد التطابق التام بين الذكرين، تدبر قول الله عن المشركين:﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديةً﴾ أي ما كانت صلاتهم التي يتقربون بها إلى الله حول الكعبة إلا صفيراً وتصفيقاً، وهل يقترف شيوخ الطرق في مراقصهم إلا ذلك؟!

نقد صوفي:

يقول صوفي كبير هو الشيخ «حسن رضوان» في أرجوزته الكبرى عن الذكر:

لكنـــه مستحســـن عنـــد الخلـــف ... فقـــط، ولـــيس ثابتـــاً عـــن الســـلف

لا ســـيما إن كـــان في المســـاجد ... فمنعـــه مـــن أعظـــم المقاصـــد

فإنـــه عـــن «ابـــن مســـعود» ورد ... إنكـــاره، ويـــا لهـــذا مـــن ســـند

ما أتـــى في الـــذكر مـــن لفـــظ الحلـــق[2] ... فـــالعلم مقصـــود بـــه، لا مـــا ســـبق

والشيخ «حسن رضوان» من دعاة «وحدة الوجود»، ولكننا نحتج به هنا على أصحابه، ورأيه صريح في أن الذكر الصوفي الذي يقترفه القوم لا يقره قرآن ولا سنة، ولا سلوك من خيار السلف، فهل هذا الخلف الملعون أهدى من أولئك السلف الأبرار سبيلاً؟ وهذا الذي قاله «ابن رضوان» حق أبى إلا أن يقهر صوفياً كبيراً على الاعتراف به.

---

(1) مجموع الرسائل والمسائل (56/ 5).

(2) يعني ما ورد في الأحاديث عن حلق الذكر.

ثم يحمل الرجل على الذكر الصوفي حملة شعواء فيقول:

واستعملوا ذكر الإله للطرب	بهيئة فيها إساءة الأدب
فهللوا، وحنجروا أصواتهم	على السوى ليدركوا مرضاتهم
ومططوا الألفاظ كالمغاني	وأفسدوا بذلك المعاني
وربما في النفي واواً أدخلوا	ومن إله الهمز ياء أبدلوا
وبعضهم يزيد في الهاء الألف	واللحن فيما بعد هذا يختلف[2]
فقائل: اللو[1]، وأه إن درج	أمامهم، ولا يرون من حرج
والمنشد المرغوب عندهم حدث	يكون شأنه الجمال والعبث
فإن أتى بلفظة مونثة	تأوهوا، والبعض منهم حدثه
أو صاح كالنسا، ولا يبالي	من نفسه بقبح هذا الحال
فحركت من حظه النفساني	ما أوجب التواجد الشيطاني
وكم وكم من موبقات ظاهرة	في نقض دعوى قصد محض الآخرة[3]

وما لنا بعد نقده من نقد، فقد استهدف، فأنفذ السهم إلى المقاتل[4].

السماع والوجد:

يقول الإمام الجليل ابن القيم:«المسموع على ثلاثة أضرب: مسموع يحبه الله، ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به. الثاني: مسموع يبغضه، ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه. الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه، ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه، ولا ذمه. فمن حرم هذا النوع الثالث، فقد قال على الله ما لا يعلم، وحرم ما أحل الله، ومن جعله ديناً وقربة يتقرب به الله، فقد كذب على الله، وضاها بذلك المشركين». ثم قال عن النوع الأول: إنه هو سماع آيات الله المتلوة التي أنزلها على رسوله، ووصف ابن القيم هذا السماع بأنه أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. ثم استنبط من آيات القرآن ما يفيد أن هذا السماع ثلاثة أنواع: سماع إدراك بحاسة الأذن، وسماع فهم وعقل، وسماع فهم وإجابة وقبول. ثم قال: إن سماع المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة إدراكاً وفهماً، وتدبراً، وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه، وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه، فهو

---

(1) أي ينطقون لا إله إلا الله «هكذا» لويلاها، الخ. أي ينطقون (الله) كما ذكر في البيت.

(2) بمثل هذه الحملات خدع الشيخ حسن وأمثاله المسلمين عن معتقداتهم، فظنوا الخير فيهم، ولو أنك قرأت أرجوزة الشيخ حسن لرأيته أحد الناعقين في صراحة بأن الله سبحانه هو عين كل شيء.

(3) روض القلوب المستطاب (ص342) وما بعدها.

(4) غير أن الشيخ حسن أشبه بالسارق الذي يعف نفسه عن سرقة الدرهم، ليسرق ألوف الدنانير، فهو ينقد شراً، ليبث من وراء نقده شراً مستطيراً ألأم خبثاً!!

هذا السماع، وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء، لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المراشد، لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنيين والمطربين[1]، ثم ذكر السماع الذي يبغضه الله، ويكرهه، فقال: إنه سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه، ومثل لهذا بسماع الباطل إلا إذا كان متضمناً رده وإبطاله، وبسماع اللغو، وبسماع الغناء، ثم رد رداً مفحماً محكماً على الصوفية الذين أباحوا سماع الغناء. سماع المكاء والتصدية والمعازف والخمريات، وعشق الصور من المردان والنسوان، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها[2].

أما الغزالي الملقب بحجة الإسلام، فقد جعل لباب «السماع» عنواناً هذا نصه:«باب السماع، وآثاره في القلب بالوجد، وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب»، ويعني بالسماع، سماع الأغاني، وإليك قوله:«إن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر، وقد طويت فيها جواهرها، كما طويت النار في الحديد والحجر، ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقادح السماع، ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها، وتظهر محاسنها، أو مساويها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه[3].

وإن تعجب، فعجب أن يحبس الغزالي قلمه الصوال الجوال على صفحات طوال يحاول فيها إثبات أن سماع الأغاني له قيمة عظمى تنحسر دونها كل قيمة!!

ثم يفصل الغزالي آراء من حرموا السماع ويجهد نفسه في الرد عليها، ثم ينتهي به التجوال الخاسر المكدود إلى قوله:«من أحاط بعلم علاج القلوب، ووجوب التلطف بها علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور – يعني سماع الأغاني – دواء نافع لا غنى عنه»[4].

ثم يقول في مكان آخر:«قال بعضهم: ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس، ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة، فإن غاية ذلك معصية وغاية الخطأ ههنا كفر»[5].

ونقول للغزالي: إذا كانت غاية الخطأ ههنا كفرا، فلما يلح الغزالي في الدعوة إليه؟

وما أجمل ما يقول الإمام الجليل ابن القيم عن أصحاب سماع القرآن:«لم يعدم من اختار هذا السماع – سماع القرآن – إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشاداً عن غَيٍّ وبصيرة من عمى، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة مفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة،

---

(1) مدارج السالكين (482/ 1) وما بعدها – ط السنة المحمدية.

(2) مدارج السالكين (482/ 1) وما بعدها – ط السنة المحمدية.

(3) الإحياء (237/ 2).

(4) المصدر السابق (ص253).

(5) المصدر السابق (ص255)، وقوله منقول عن اللمع (ص272).

وزجراً عن هوى وحثاً على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء. وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل».

ثم يتوجه بصفاء إيمانه وصدق إخلاصه منادياً أرباب السماع الصوفي بقوله:

«نحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونوراً وحياة: هل وجدوا ذلك – أو شيئاً منه – في الدف والمزمار ونغمة الشادن ومطربات الألحان، والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان.

ويالله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات، لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله ويعاقب عليه».

إن أصحاب السماع الصوفي يعرفون جيداً الغاية منه ويكافحون في سبيل الوصول إلى هذه الغاية المجرمة.. إنها صرف المسلمين عن القرآن حتى لا يسلط النور على ما يكيدون به للإسلام وأمته، ولا يرى الناس ما عليه أصحابه من وضاعة في الدين والخلق.

  

الأوراد والأذكار

واستكمالاً لحلقة السيطرة على المريدين، فقد وضع شيوخ الصوفية للمريدين أوراداً وأذكاراً تختلف من طريقة لأخرى، وأضفوا عليها هالة من القدسية، وهددوا من تخلف عنها بالحرمان من المدد، حتى يظل المريد حليف باطل، وحلس إلحاد، وعبد تصوف.

من هنا فقد استأثرت أوراد الصوفية، بقدر كبير من كتابات الشيخ عبدالرحمن الوكيل، فكتب عدة مقالات في مجلة الهدي النبوي في الأعداد 8، 9، 10، 11، 12 مجلد 25 لسنة 1380ه، تناول فيها بالشرح والتعليق أوراد كل من ابن شيش، ابن عربي، وابن إدريس، ورد على الذين يقولون لماذا تلحون في حربكم على التصرف؟

فقال:«ما قام التصوف إلا ليعارض دين الله في كل أمة، وإلا ليقضي على قيمه المقدسة، والتصوف نفسه يعترف بهذا فيسمى دين الله «شريعة»، ويسمى أساطير باطله «حقيقة».

أو يسمى المعاني الحقيقية لكلمات الله «ظاهراً»، ويسمى ما يفتريه من معانٍ باطلة لهذه الكلمات «باطناً»، وبهذا يفسد العقيدة والفكر والأخلاق، على أن القارئ الذي شع نور الإيمان في قلبه، ورزق البصيرة التي تفصل بين الحق والباطل، يُجِلُ الحقيقة عن أن تنال منها ومن قداستها صيت بعيد أو شهرة واسعة.

الأوراد والأذكار:

لكل طريق ذكر معين، ولكل جماعة من الصوفية أوراد خاصة، على المريد أن يعتصم بالورد الذي عينه له شيخه، فإن مدد الشيخ في ورده الذي رتبه، فمن تخلف عنه حرم المدد، وهيهات، أن تصبح في الطريق.

الورد وحي:

ولكي تتمكن قدسية الأوراد من قلوب المريدين، نفث الشيوخ في روعهم أن الأوراد ما هي إلا وحي تلقوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة وشفاهاً وعن رؤيا صادقة.



نظرة في الأوراد

يقول شيخهم الأكبر ابن عربي[1] في أحد أدعيته: «اللهم يا رب من ليس حجابه إلا النور، ولا خفاءه إلا شدة الظهور، أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كل تقييد التي تفعل فيها ما تشاء وما تريد».

وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري وتحولك في حضرة صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصوري أن تصلي على سيدنا محمد صلاة تكتمل بها بصيرتي بالنور المرشوش في الأزل، لأشهد فناء ما لم يكن، وبقاء من لم يزل وأرى الأشياء كلها في أصولها معدومة مفقودة، وكونها لم تشم رائحة الوجود فضلاً عن كونها موجودة[2].

«ولكي نعي ما يريده ابن عربي نذكر رأيه في الوجود، أو في الله سبحانه.

يرى ابن عربي أن الله كان وجوداً مطلقاً لا يتميز باسم ولا بصفة، فأراد سبحانه أن يظهر هذه الحقيقة، وتفصلت وتكثرت، فكان ذلك الوجود المادي الذي نراه.

فإن شئت – فقل عن الكون: إنه عين الله باعتبار باطنه، وإن شئت، فقل عنه: إنه غيره باعتبار ظاهره، ولكنها غيرية اعتبارية فحسب؛ إذ ما ثم إلا الله، أو ما ثم إلا حقيقة واحدة ذات وجهين؛ أحدهما يسمى: حقًّا، والآخر يسمى خَلقاً.

ولهذا يتحدث ابن عربي في ورده هذا عن «مرتبة الإطلاق» ويعني بها حال «الوجود» قبل التعين في مظاهره المحسوسة، وهي مرتبة «الأحدية» التي ليس للحقيقة الإلهية فيها أسماء وصفات، فمناط الأسماء والصفات ليس الذات، وإنما مناطها مظاهر الذات المتنوعة، ولهذا صح عند الصوفية إطلاق أسماء الأشياء وصفاتها على الله إطلاقها حقيقياً، لأنها عينه وحقيقته.

ويتكلم عن تحوّل ربه في صور أسمائه وصفاته بالوجود الصوري!! ويعني بالوجود الصوري وجود الكائنات؛ إذ ما ثم لها وجود حقيقي، فوجودها الباطن هو الوجود الإلهي.

أما التحول في صور الأسماء والصفات، فيعني به ظهور الحقيقة الإلهية في صور المظاهر الكونية التي هي تعينات أو تجدات لصفات الحقيقة الإلهية وأسمائها، والتي يطلق عليها حقيقة أسماء الله وصفاته، ولاسيما الربوبية والألوهية!!

ويتكلم عن «فناء ما لم يكن، وبقاء من لم يزل» ويعني بقوله الأول: فناء الكائنات في نظر القلب ولمسات الشعور رغم وجودها في مجال الحس!! ويعني بالقول الآخر بقاء الحقيقة الإلهية ظاهرة وحدها في كل شيء بحيث لا تخفي المظاهر حقيقة الظاهر، أو لا تخفي صورة ما ظهر وهو الكون، حقيقة ما بطن، وهو الله، يضرع ابن عربي إلى أن يكشف عنه الحجاب، ليرى الحقيقة المقدسة، حقيقة وحدة الوجود، ليرى أن الكائنات هي الله، وأن الله هو عين

---

(1) محيي الدين بن عربي الطائي الأندلسي، صاحب الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وزعيم القائلين بمذهب وحدة الوجود، وخلاصة فكره كما جاء في ص92، من كتاب الفصوص ج1 ط الحلبي: ما في الوجود مثل، فما في الوجود ضد، فإن الوجود حقيقة واحدة والشيء لا يضاد نفسه. انظر كتاب هذه هي الصوفية: للشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص210).

(2) مجموعة الأحزاب – ط 1298ه.

الكائنات، أو بتعبير آخر: حتى لا يرى غير الله، إذ ما ثَمَّ «غَيْرٌ» حتى لا تتعلق به رؤية!! ولهذا يعقب على قوله هذا بقوله:«وأرى الأشياء كما هي في أصلها معدومة مفقودة، وكونها لم تشم رائحة الوجود، فضلاً عن كونها موجودة» تراه في هذه الكلمات الوثنية يضرع إلى الله أن يهب له البصيرة التي تدين بوحدة الوجود عن بينة، ولا تفرق بين الذات ومظاهرها.

إن حمل «الوجود» على السماء، أو على الأرض، أو على الإنسان، أو على الحيوان، على الجماد حملاً حقيقياً يستلزم التعدد والتكثر، ويناقض دين «ابن عربي» الذي يؤمن بالوحدة الصرفة بين الخالق والخلق!!

فبماذا نؤمن، لنرضي ابن عربي وأتباعه؟

يجب أن نؤمن بالعينية التامة المطلقة بين وجود المظاهر ووجود الظاهر، أو بأن وجود الأشياء هو عين وجود الله سبحانه، وإلا انحدرنا إلى هوة الشرك، أو إلى الإيمان بثنائية الوجود.

  

ورد ابن مشيش

قبل أن نخلص إلى الحديث عن ورد ابن مشيش، وشرح الصوفي الكبير عبدالغني النابلسي لهذا الورد، نجد الشيخ الوكيل رحمه الله يؤكد أن الوصول إلى القمة التي دعى الإسلام إليها كل مسلم لا يتم إلا باتباع السبيل المستقيم – من شريعة الله وعقيدته، لا مجاهدات التصوف المزعومة، ولا شطحاته الموهومة، ثم يواصل حديثه قائلاً:«كل بسمات النور، وهمسات الطيور، وريا العبير، ورونق الصفاء في القبة اللازوردية، وسَبْحُ الأرواح في فيوض الأحلام وهذه النجود الساحرة في الفضاء الرحب، وكل ما نرى ونسمع ونشعر من تسبيحات الطهر للخلاق القدير بديع السماوات والأرض كل بحمده يسبح، وكل بالثناء عليه يلهج، وكل إليه يضرع في عبودية صافية خالصة إلا طائفة، إنهم أولئك الآبقون عن هدى الله، السارون في جمود تحت أقبية الليل، وهنالك تحت قباب الأوثان المفعمة بالوثنية من مباخر المجوس، تتجاوب أصداؤهم بهذا النعيق:«اللهم انشلني من أوحال التوحيد».

لقد أمرهم الشيوخ بهذا، وأمر الشيخ كما يعتقدون هو أمر الله، ثم إن الشيوخ أقسموا لهم أن هذا الورد الذي ابتدعه عبدالسلام بن مشيش وبث فيه أخبث نتن الوثنية، هو أروع وأروح صلاة يضرع بها مؤمن، إنه ورد القديسين والربانيين والشهداء.

إنه المعبر الذي يجب أن يعبره من يريد الوصول إلى شاطئ الخلود الأبدي في الفردوس الأعلى، أو هو المعراج الذي ترقى عليه الروح إلى الربوبية الخلاقة، والألوهية المعبودة!! إنه كما يقول شارحه الصوفي الكبير عبدالغني النابلسي:«وقد تضمن حقائق شريفة، ومعاني دقائق لطيفة، برزت من عالم غيب رب العالمين، إلى سماء قلوب العارفين».

أما ابن مشيش الذي افتراه، فيصفه النابلسي بقوله: حجة الطريقة، وينبوع الحقيقة، إسناد العارفين، ورافع لواء الواصلين[1].

فلننظر في هذا الورد الذي برزت معانيه – كما يزعمون – من عالم غيب رب العالمين، والذي يعتبرون صاحبه رافعاً لواء الواصلين!!

يبدأ ابن مشيش ورده هذا بقوله:«اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار»، ويقوم النابلسي بشرح هذه الفقرة ببحث عن الصلاة على الرسول، فيقول:«وهي أي الصلاة على الرسول – وإن اختلفت مواردها، وتنوعت مصادرها، فمرجعها إليه – أي إلى الرسول – وحقيقتها منه عليه، إذ ما صلى على محمد، إلا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن صلاة العبيد عليه صدرت منهم بأمره من صورة اسمه:«فميم» اسم محمد، رأس صورة آدم المكرم، وهذا الحكم جار فيها من آدم وبنيه، فإنها بأمره صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو – يعني الرسول –

(1) ص55، 589، شرح النابلسي للصلاة المشيشية على هامش مجموع الأحزاب.

تعالى اسمه، وبالتحقيق ما صلى على رسول الله إلا الله[1]، ثم يزعم النابلسي أن هذا التفسير لم يسبقه إليه أحد، وأنه إلهام ألهمه، وهو جالس في حضرة الحق على بساط القرب[2].

ثم يشرح النابلسي مسألة انشقاق الأسرار، وانفلاق الأنوار من محمد، فيقول:«المراد بها أسرار الذات، وأسرارا الصفات، وأسرار الأفعال، فهذه الأسرار كلها كانت مبطنة بما تجلى عليها من اسمه الباطن حجب عنها خلقه بنور كبريائه، فكانت كذلك حتى جاء صلى الله عليه وسلم، فحولها باسمه تعالى الظاهر، وأظهرها باسمه المبين، فكان هو المظهر لها وكاشف الحجاب عنها[3]!! اقرأ «المظهر» بضم الميم أو فتحها.

إن النابلسي – كأساتذته من الصوفيين – يعتقد أن الله كان وجوداً مطلقاً[4] لا يسمى ولا يوصف، ولا يمكن أن يصدر عنه فعل، ثم انتقل هذا الوجود من مرتبة الإطلاق إلى مرتبة التقييد، أو من مرتبة التجريد إلى مرتبة التبيين والتجديد!!

فظهر في صورة الحقيقة المحمدية، وبظهوره فيها ظهرت أسماؤه وصفاته وأفعاله.

فهل يعقل الناعقون بورد ابن بشيش؟! وهل يعرفون أنهم في كل سحر يقولون لله: اللهم صل على من وهب لك الوجود، وخلع عليك أسماؤك وصفاتك، وأعطاك القدرة على أن تفعل!! أو اللهم صل على المخلوق الذي خلقك!! وجعلك قادراً على أن تريد، وتشاء، وتفعل؟!

ثم يقول ابن بشيش: ولا شيء إلا وهو به منوط؛ إذ لولا الواسطة – كما قيل – لذهب الموسوط. فبماذا يشرح النابلسي هذا القول؟ اسمع إليه يقول:«كل شيء إليه استناده، ومنه استمداده، إذ لولا وجوده لما وجد الوجود». لولا محمد ما تحقق وجود الله!! لأن الله عندهم هو الوجود!!

ثم يقول ابن بشيش: اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، وإليك طرفاً من شرح النابلسي لهذا القول:«إنه عليه الصلاة والسلام يجمع جميع أسرار أسماء الصفات، وأما أسرار أسماء الأفعال فهو مُظْهِرُها ومَظْهَرُها، وهو سر الله الذي أودعه مكوناته العلوية والسفلية، فهو السر الذي به ظهرت الأسرار، وهو النور الذي أشرقت منه الأنوار، فلا مسكون إلا هو سره الذي قام به أمره، فلولا السر المحمدي الذي أودعه الله

---

(1) ص557 المصدر السابق.

(2) يرى أمثال النابلسي أن الغلو في الزندقة فخر عظيم، ولهذا تراه، وترى أمثاله يزعم أنه لم يسبق إلى مثل هذه الزندقة، والحقيقة أنه مسبوق بها من سادته ابن عربي وغيره، وسادته مسبوقون بها من قبلون صوفي اليهودية، وأفلطوين صوفي المسيحية، وأمثالهما.

(3) ص558، المصدر السابق.

(4) وصف الله بأنه وجود مطلق معناه أنه جل شأنه: عدم مطلق، أو أنه لا يوجد إلا صورة في الأذهان، إذ ليس في خارج الذهن كلي مطلق، ووصفه بأنه وجود مطلق بتعين معناه أنه جل شأنه جزء من خلقه، فكيف يوصف بأنه خالق، أو قهار، وهو مخلوق مقهور؟

المكونات الملكوتية، والسر الأحمدي الذي أودعه المكونات الملكية لما قامت بها أسماء الصفات، وأسماء الأفعال، لولا محمد ما ظهر لله وجوده ولا صفة ولا اسم ولا فعل وما ظهر كائن؛ لأن محمداً هو الحقيقة الإلهية في مرتبتها العينية».

هذه الملعونات من خطايا الزندقة هي دين ابن مشيش وقومه!!

ويقول النابلسي:«إن محمداً سمي حجاباً لأنه حجب العقول عن النظر في حقائق الذات، والتفكر فيها، بهذا أرسل محمد، فكان حجاب الله الأعظم، فأظهر الفرق وأبطن الجمع».

بهتان عظيم؛ لأنه يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أظهر خلاف ما يبطن، أو أمر بالشريعة والظاهر، وأخفى الحقيقة والباطن.

وزندقة: لأنه يزعم أنه محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر الناس بالفرق وأخفى الجمع، والفرق حال يشهد فيها السالك الخلق متميزاً عن الخالق، أو المحدث غير القديم، أما الجمع فحال يشهد فيها السالك الوحدة بين الخلق والخالق، أو بين الحادث والقديم.

الأمانة العلمية:

والأمانة العلمية في منهج الشيخ عبدالرحمن الوكيل اقتضته عندما تعرض بالنقد والتفنيد لورد ابن مشيش أن يذكر ما قاله النابلسي في شرحه لهذا الورد، وذلك حتى لا تسول لأحد نفسه، أن يتهمه بتحريف الكلم عن مواضعه؛ لأن النابلسي قطب عظيم في التصوف تجمع كل الفرق على احترامه.

ثم انبرى بعد ذلك بالنقد والتحليل العلمي الهادف، مطالباً كل مسلم أن يفتح قلبه للنور، وأن يصغى إلى نداء الفطرة ودعاء الحق، وأن يذعن لشهادة الكائنات، وأن يحرر عقله من ربقة التقليد الجاهلي الأعمى للشيوخ والأجداد، وأن يتابع معه الحديث عن قول ابن مشيش:

«وذج بي في بحار الأحدية وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع، ولا أجد ولا أحس إلا بها».

إذ عمد[1] – إنصافاً للعرض – إلى ذكر بعض فقرات من شرح النابلسي، والذي يقول فيه عن ورد ابن مشيش:«إن مقصود الشيخ بدعائه أن ينقله الله من حضرة الفرق إلى حضرة الجمع فيعود نظره إليه، وجمعه له عليه فتفنى الرسوم ولم يبق إلا الحي القيوم، والمراد بأوحال التوحيد متشابهات أحكامه التي زلت فيها أقدام كثير من الناس........ وأما المراد بقوله: وأغرقني في عين بحر الوحدة، فقد أراد أن يكون مستهلكاً في حقائق التوحيد غائباً

(1) مجلة الهدي النبوي عدد (10) لسنة 1380ه، (ص14 إلى ص19).

في الشهود عن الوجود، وهذا هو الفناء المميز عند أهله بفناء الفناء[1]، وصاحب هذا المقام فانٍ عن فنائه باق مع الحق لعين الجمع، فرداني الصفات وحداني الأفعال».

يقول الشيخ الوكيل معقباً:

«إن همسة من القلب أو الشفة بكلمة:«مشيشية» من هذا الورد تجرد صاحبها من الإيمان!! فالأحدية التي يضرع ابن مشيش إلى الله أن يزج به في بحارها هي – كما يقول الجيلي: عبارة عن مجلى الذات ليس للأشياء، ولا للصفات، ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة من الاعتبارات الحقية، والخلقية[2] وليس لتجلي الأحدية في الأكوان مظهر، أتم منك – يعني الإنسان – إذا استغرقت في ذاتك»[3].

فابن مشيش إذن يدعو الله أن يفنيه عن بشريته، ليشهد نفسه، وقد أمست وجوداً مطلقاً في مرتبة الأحدية.

إنه لا يريد أن يصير رباً؛ لأن الربوبية تستلزم وجوب مربوب، وفي هذا ما فيه من إثبات الثنائية والغيرية، ولهذا يستشرف إلى المرتبة العظمى، مرتبة الوجود الإلهي المطلق قبل أن يتعين في صور الكائنات!! أو يتجلى في مظهرين، مظهر الخالقية، ومظهر الخلقية!!

ويمضي الشيخ الوكيل – رحمه الله – في إظهار مفهوم الصوفية لعبارة:«وانشلني من أحوال التوحيد»، فيقول: التوحيد غير الوحدة عند الصوفية، فالتوحيد مرتبة العوام، أو علماء الرسوم، وهو علم الشريعة، أما الوحدة فمرتبة الخواص أو الفانين في بحار الشهود، وهي علم الحقيقة؛ لأن التوحيد يقتضي الإيمان بأن وجود الله غير وجود خلقه، وبأن الله هو حده المعبود الذي يجب أن يتوجه إليه بالعبادة خلقه، وبأنه سبحانه ليس كمثله شيء، أما الوحدة: فهي فرج القيم[4] ومحو تام لكل فارق بين الخالق والخلق في الذات والصفات والأسماء والأفعال، فكل ما يحكم عليه بأنه ذات هو في الحقيقة ذات الله، وكل ما يحكم عليه بأن صفة هو في حقيقته صفة لله، سواء في ذلك صفات الحيوان والإنسان والنبات والجماد، وكل فعل – تبعاً لهذا – هو فعل الله حقيقة، لا مجازاً، إذ ما ثَمَّ غيره من فاعل حتى ينسب إليه فعل ما!! أو وجود حتى ينسب إليه وجود.

---

(1) الفناء: مقام يغني فيه السالك عما سوى الله!! غير أن مقام الفناء لا يلتمس الذروة التي ينشدها الصوفي، لأن السالك لا يزال شاعراً فيه، شاعر فيه بأنه فان عن شيء ما، لهذا قالوا: بفناء الفناء الذي يفنى فيه الشاعر عن نفسه، ويفنى عن فنائه، فيستغرق في مشاهدات الذات وحدها!!.

(2) للذات الإلهية في دين الصوفية وجهان أو اعتباران، فهي باعتبار باطنها تسمى حقا وهي باعتبار آخر تسمى خلقاً، وهذا بعد ظهورها في صور الكائنات، فاللذات الإلهية – إذن – حق وخلق.

(3) والحق هو باطن الذات المقابل لظاهرها المسمى خلقاً، ولا يقال عن الذات الإلهية في مرتبة الأحدية: أنها حق؛ لأنه لا يقال عنها هذا إلا في مقابلة ظاهرها، وهو الخلق، وما ثم صور خلقية للذات في مرتبة الأحدية.

(4) لا يفصل التصوف الإشراقي بين حقائق الأشياء، فما ثم إلا حقيقة واحدة، كذلك لا يفصل بين التناقضات في حقائق الفكر، والأخلاق والدين، فالحق عين الباطل، والخير عين الشر، والإيمان عين الكفر، هذا لأنها صادرة عن ذات واحدة، وقد صرح زعماؤه بهما في غير ما لبس ولا غموض ولا إبهام، ولاسيما ابن عربي والجيلي.

وقد تضافرت البراهين الساطعة والأدلة القاطعة عقلية ونقلية على أن التوحيد هو عقيدة الإسلام، وكل آيات الله في الكائنات، وكل آيات الله في كتابه تشهد وجود رب خالق، ووجود مربوب مخلوق[1] وكل خاطرة وبادرة وهمسة ولمسة وحس وشعور تشهد بهذا شهادة حق وصدق، وشهادة الكون على فاطره ومبدعه، وشهادة الكتاب على ربوبية منزلة، هذه الشهادات كلها تقيم على نفس ابن مشيش الصوفي فتجعله يرتاب في معارفه الصوفية!؟ إنه كلما تدبر آية نقلية، أو عقلية، أو كونية سطعت في نفسه إشراقة توحي إليه بالشك في نتائج «الوجد» الصوفي!! غير أن الكفر أعزّ عليه من الإيمان، والباطل من الحق، إنه يرى يقين الحق من القرآن صاعقة تدمر باطله الصوفي، ويسمى هذا اليقين أوحالاً!! لهذا تراه في حماقة جحوده، وعتو الحقد من كفره، يفزع إلى «ربه» المصنوع من أوهامه، فيقول:«انشلني من أحوال التوحيد»، انشلني من هذه الحقائق التي تجعلني أرتاب في أننا ذات واحدة وحقيقة واحدة!!

ولهذا يلح في الرجاء، ويؤكد قسوة ضلالته بقوله عقب هذا:«وأغرقني في عين بحر الوحدة»، أغرقني حتى لا أرى النور، ولا أسمع الحق، ولا أجد الهدى، ولا أحس بشيء من ذلك كله، أغرقني في هذا الشعور القاهر المسيطر الذي يجعلني أوقن دائماً أنني أنا أنت، وأنك أنت أنا!! أوقن بسمعي وبصري ووجداني وإحساسي بأنه ما ثم غيري أو بأنه ما ثم غيرك، فكلانا واحد[2] أو كلانا ذات يسمى تارة «الله وأخرى ابن مشيش». فهل يتدبر المقلدون؟!

هذا هو ورد السحر الذي يتهجد به المفتونون تحت غلائل السَحَر، وقد أسكرهم عبق البخور الوثني الذي يزكم قباب الأصنام، فيخالونه نوافح من عبير الفردوس، ترف بها غلال الحور والملائكة!!

أفي مثل هذه اللحظات التي تفيض صفاء وروعة وجمالاً وروحانية، وتغمر النفس بالخشوع القدسي للرحمن، أفي مثل هذه اللحظات لا أضرع إلى الله إلا بهذه الكلمات الملعونة الكفر:«اللهم انشلني من أحوال التوحيد»[3]؟

  

---

(1) لهذا كان يقول عفيف الدين التلمساني الصوفي الكبير:«القرآن كله شرك، ليس فيه توحيد، وإنما التوحيد في كلامنا» (ص177) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية.

(2) انظر ما يقول ابن عربي في الفصوص:

وكـــل كـــلام في الوجـــود كلامـــه ســـواء علينـــا نثـــره ونظامـــه

حتى كلام الإلحاد والفسوق. ويقول ابن عربي أيضاً:

فـــلا تقـــع العـــين إلا عليـــه ولا تنظـــر العـــين إلا إليـــه

يقول كل شيء تقع عليه عيناك هو الله، وكل شيء تنظر إليه فهو الله.

(3) يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل:«لقد أوليته كل هذا الاهتمام؛ لأن الصوفية على تباين طرائقهم يكادون يجمعون على أنه أعظم ورد صوفي».

ورد ابن إدريس

بعد أن عرفنا رأي الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – بشأن ما جاء في ورد ابن بشيش وكذا ورد ابن عربي، وأنهما ينهلان من منبع غير صاف ويشربان من ماء آسن، بقي أن نعرف رأيه في ورد «ابن إدريس»، وهو من كبار أئمة الصوفية، حيث ذكر شواهد من أوراده، على ما يدين به من اعتقاد في حق الله تبارك وتعالى، وحق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد وضح لنا وبين أنه – أي ابن إدريس – قد سلك نفس مسلك ابن مشيش وأنه يضرب في نفس التيه الذي سلكه سلفه من قبل.

ومن منطلق الحق والإنصاف والعدل في العرض، وهو المنهج الذي ألزم الشيخ عبدالرحمن به نفسه في الكتابة[1]، نراه لكي يذكر – رحمه الله – الأدلة على ختل فكر ابن إدريس بما قاله صوفي آخر هو القاشاني، في شرحه لتائية ابن الفارض، والذي حاول أن يدثره بدثار من الغموض، وذلك لكي يبرز لنا المقصد الذي يرمي إليه ابن إدريس بما جاء في ورده من قوله:«سلطان حضرات الذات وما بعده»، إذ يقول القاشاني في شرحه لتائية ابن الفارض:«اعلم أن للذات ثلاث حضرات هي أصولها الأولى:

- حالة الفردية: وهي حالة وجودها في عين الجمع حيث لم يكن معها شيء.
- الثانية المعية: وهي حالة وجودها مع كل شيء في عالم التفرقة.
- والثالثة الوترية: وهي حالة بقائها بعد فناء كل شيء في مقام الجمع.

والحضرة الأولى: ما وردت الصفات منها.

والحضرة الثانية: ما وردت إليها ثم صدرت عنها.

والحضرة الثالثة: ما صدرت إليها.

وفي حضرة الفردية تحتجب تعينات الأسماء والصفات المندمجة في الذات بظهور الذات.

وفي حضرة المعية تحتجب التعينات بالأسماء، والصفات.....

وفي حضرة الوترية كل واحد من الذات والصفات متجلية لا تحتجب بالأخرى[2].

ثم يعقب الشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه الله على ذلك الشرح فيقول:

«وخلاصة قوله: أن الحضرة الأولى هي الوجود المطلق أي وجود الحقيقة الإلهية قبل الظهور بأسمائها وصفاتها، أما الثانية فهي الحقيقة الإلهية، وقد ظهرت بأسمائها في المظاهر الكونية المحسوسة، وفي هذه الحضرة لا يكون للذات وجود خاص منفصل ولا ذات مميزة عن وجود وذوات المظاهر الكونية، وإنما يكون وجودها وذاتها عين وجود وذوات كل شيء، فإن شئت معبوداً، فاعبد أي شيء تراه، وإن شئت أن تكون من العارفين، فاعبد كل شيء؛ لأن الحقيقة الإلهية هي عين كل شيء».

---

(1) مجلة الهدي النبوي (عدد 12) لسنة 1380ه.

(2) (ج1 ص133) كشف الوجوه على هامش شرح ديوان ابن الفارض.

وبعدُ: فهيا أخي هداك الله إلى الصواب، وأرشدك إلى الهدى، وجعلك للصواب والهدى هادياً ومرشداً.

نقرأ معاً ما كتبه الشيخ الوكيل – رحمه الله – في ورد ابن إدريس:

ورد إدريس: يقول أحمد بن إدريس في ورد له:«اللهم صلِّ على طامة الحقائق الكبرى، سر الخلوة الإلهية ليلة الإسراء، تاج المملكة الإلهية، ينبوع الحقائق الوجودية، حق الحقيقة العينية، وهوية المشاهد الغيبية، تفصيل الإجمال الكلي، الآية الكبرى في التدني والتدلي».

وله ورد آخر هذا نصه:«اللهم صلِّ على سلطان حضرات الذات، مالك أزفة تجليات الصفات، قطب رحى عوالم الألوهية، جبال مرج بحار أحدية الذات، طلسم كنوز معارف الإلهيات، سدرة منتهى الإحاطيات الخلقيات الصفاتيات بيت معمور التجليات الكنهيات الذاتيات، سقف مرفوع الكمالات الأسمائية، بحر مسجور العلوم اللذنيات، حوض الإلوهية الأعظم»[1].

وفي دلائل الخيرات:«اللهم صلِّ على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك، إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود».

تعليق على الورد الإدريسي:

وخلاصة وردي «الإدريسي»: اللهم صلى على محمد الذي هو باطنك وظاهرك، وذاتك وصفاتك وأسماؤك، الذي هو روح الوجود، وعين كل موجود، الذي به ظهر كل شيء، وعنه صدر كل شيء، والذي هو عينك وعين كل شيء!!

إن ابن إدريس يضرب في نفس التيه الوثني الذي سلكه ابن بشيش، بيد أن نعيقه بالزندقة مقيت عريض، فقوله:«حق الحقيقة العينية، وهوية المشاهد الغيبية، يؤكد لنا إيمان «الإدريسي» بأن محمداً هو الحقيقة الإلهية في وجودها المطلق، وعمائها المبهم، وأحديتها الصرفة. وقوله: تفصيل الإجمالي الكلي «معناه: أن محمداً هو مجمع كل الحقائق الإلهية في تجردها، وهو عين هذه الحقائق في تعيناها، إن محمداً كان هو الوجود المطلق الذي أجملت فيه كل الحقائق الوجودية، وتعينت أسماؤه وصفاته في صور الكائنات المحسوسة فكان هذا الكان، فمحمد إذن هو الذات الإلهية في أحديتها، وهو هذه الذات في كثراها أو تجسداها!!

كانت الحقيقة الإلهية شيئاً مجملاً كعنوان الكتاب، ثم فصل هذا الشيء تفصيلاً، كما يفصل العنوان بالكلمات التي تعبر عن مضمونه في كل صفات الكتاب، ومحمد هو العنوان، وهو هو كل الكتاب!! هو الحقيقة المجملة، هو أفراد الخلق جميعاً، لأهم تفصيل للحقيقة المجملة، فالسماء والأرض والحيوان والإنسان والنبات والجماد، والبر وما عليه والبحر وما فيه، والجو وما يحتويه، كل هذه المخلوقات هي عين خالقها وذاته وصفاته وأسماؤه، أو هي هي محمد؛ لأنه هو هذا الخالق، وهو هو عين ذلك المخلوق بأجناسه وأنواعه وأفراده.

---

(1) (ص169، 161) أفضل الصلوات جمع يوسف بن إسماعيل النبهاني – ط بيروت – سنة 1304ه.

ووِرده الآخر صريح بيّن الصراحة، وما فيه من إيماء ولا رمز، وإن كان مفتريه قد حاول أن يدثره بدثار من الغموض، فقوله:«سلطان حضرات الذات وما بعده يؤكد به اعتقاده أن محمداً هو الحقيقة الإلهية في وجودها المطلق، وفي تعينات صفاتها في صور الكائنات، هو علم الذات المحيط، وقدرتها الغالية، وقيومتها التي بها يقوم كل كائن، ويحيا ويرزق»!!

ثم تدبر ما جاء في دلائل الخيرات، وقل لي من تلك العروس؟ ومن ذلك الرجل الذي جعله الله إمام حضراته؟ أو يرضى شيخ من هؤلاء أن نقول عنه: إنه عروس؟ ولعلهم يظنون أن الله سبحانه «حضرة» من تلك الحضرات التي تعربد فيها شهوات القوم، وترغى وتزيد نزوات غرائزهم، ويسمونها حضرات ذكر!!

وأن محمداً هو منشد هذه الحضرة!! أو قائدها المخنث الذي يقود رقص الخطايا من الوالغين في دنها الدنس!! أما ما يزعمونه من أن محمداً هو السبب في كل موجود، فهي أسطورة استهلكتها الغنوصية عبر الأحقاب التي ثارت فيها بحربها ضد دين الله، إنك تجدها في تصوف كل الأمم القديمة، أو تجدها في التصوف المسيحي الذي دان به «أفلوطين» والتصوف اليهودي الذي دان به «فيلون».

أما آية الحق والهدى، ففي قول الله:﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم

في نظر الصوفية

إنه لما يأسف له الإنسان، أنك ترى كثيراً من الناس، لا يدركون أن الله تبارك وتعالى، الذي فرض على المسلمين حب رسوله صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعزيره، وأن أحدهم لا يكمل إيمانه حتى يكون الرسول أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين.

وقد قال الرسول الكريم:﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ الله وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [6: 50].

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم، حذر أمته من الغلو في شأنه، ونهاهم عن الابتداع في رسالته ونصحهم بما معناه:«أنا عبدالله ورسوله ما أحب أن ترفعوني عن المترلة التي أنزلني الله إياها».

ولكن مما يورث الحسرة أنك ترى كثيراً من المتصوفة، تحت ستار الحب للرسول صلى الله عليه وسلم قد قالوا الأباطيل، وفعلوا الأعاجيب.

ومما تأفكه الصوفية أن جبريل عجب حين رأى محمداً صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن قبل أن يعلمه إياه.

فسأل جبريل، فأجابه النبي: ارفع الستر مرة حين يلقى إليك الوحي، ففعل جبريل، فرأى محمداً هو الذي يوحي إليه، فصاح مسبحاً، منك، وإليك يا محمد؟.

ويتناقل هذه الأسطورة صوفي عن صوفي، وقد فح ابن عربي بهذه الفرية إذ يقول في تفسيره لقول الله تبارك وتعالى:﴿فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [20: 114].

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطي القرآن مجملاً قبل جبريل من غير تفصيل الآيات السور، فقيل له: لا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل، فتلقيه على الأمة مجملاً، فلا يفهمه أحد عنك لعدم تفصيله»[1].

وقبل أن نقفك على رأي الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – عن الحقيقة المحمدية عند الصوفية أرى أنه من الضروري أن تقرأ أولاً ما كتبه عن:

أطوار الوجود الصوفية:

حيث يقول[2]:

«تدين الصوفية بأن الوجود الإلهي له أطوار، أو مراتب، أو تترلات أو تعينات، أو نسب، أو إضافات، فكلها ذوات مدلول خرافي واحد».

---

(1) هذه هي الصوفية (ص110)، النص من ص6 الكبريت الأحمر للشعراني على هامش اليواقيت والجواهر.

(2) هذه هي الصوفية (ص91).

وأولى تلك المراتب «العماء» والوجود الإلهي في هذا الطور لا يوصف بوصف، ولا يسمى باسم، ولا يعرف بحد ولا برسم، أو كما يقول الكمشخانلي:«اعلم أن حقيقة الذات الإلهية من حيث هي هي، امتدادها – أعني مدة بقائها – غير مضبوط لأنها من حيث هي كذلك لا وصف لها، ولا رسم، فهي العماء، إذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجوه، ما لم تتعين بصفة.

وأول هذه التعينات علمها بذاتها، فهذه الصفة تنزل لها من الحضرة الإلهية الذاتية التي لا نعت لها إلى الحضرة الواحدية التي هي حضرة الأسماء والصفات، وتسمى: الحضرة الإلهية»[1]. نقلت لك النص بتمامه، ليستيقن قلبك بأننا ننصف الصوفية، فلا نسمهم إلا بما يعرفوا به، وقد يسمى الرب الصوفي في تلك المرتبة بالوجود المطلق، بيد أن النابلسي في غلو التجريد الذي ينتهي به إلى العدم المطلق، ينزه الوجود في تلك المرتبة حتى عن الإطلاق؛ لأن وصفه بالمطلق قيد، أو صفة له، فيستلزم أن يكون المطلق مقيداً، والمقيد مطلقاً[2]، فيتوتر التناقض بين وصفيه، ويستلزم أن تكون له صفة، وهو مجرد كل التجريد في ذلك الطور عن الاسم والصفة!!

ولقد أراد هذا «العماء، أو الوجود المطلق» أن يتعين في صورة؛ ليعرف وليعرف نفسه[3]! فتعين في صورة «الحقيقة المحمدية»، فكانت هي التعين الأول للذات الإلهية، أو الفتق بعد الرتق، أو معبر الوجود من الإطلاق إلى التقييد، أو من العماء إلى الأحدية ثم الواحدية!!



(1) ص93 جامع الأصول للكمشخانلي.

(2) رغم هذا، فهو واقع في التناقض؛ لأن الوصف بالسلب، أي عدم الإطلاق، قيد أيضاً للوجود، كالوصف بالإيجاب.

(3) هذه علة وضع الحديث الصوفي «كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبي عرفوني»، ويفسر الصوفية «فبي» بكلمة «محمد» لأنها تساويها في العدد في حساب الجمل.

انظر كتاب «دعوة الحق» تأليف الشيخ عبدالرحمن الوكيل (ص33، 32).

الحقيقة المحمدية

يعرفها الصوفية بقولهم:«هي الذات مع التعين الأول، ولها الأسماء الحسنى وهي اسم الله الأعظم»[1]، فمحمد الصوفية ليس بشراً، ولا رسولاً، وإنما هو الذات الإلهية في أسمى مراتبها!!

يقول الدمرداش:«حقيقة الحقائق هي المرتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة لسائر المراتب كلها، وهي المسماة بحضرة الجمع، وبأحدية الجمع، وبها تتم الدائرة، وهي أول مرتبة تعينت في غيب الذات، وهي الحقيقة المحمدية»[2].

ويقول الكمشخانلي:«صور الحق هو محمد؛ لتحققه بالحقيقة الأحدية والواحدية»[3]، فمحمد عندهم هو الاسم الأعظم، فما الاسم الأعظم؟ إنه «الجامع لجميع الأسماء، أو هو اسم الذات الإلهية من حيث هي هي أي المطلقة»[4]. ومحمد هو الأحدية! فما هي إنها «مجلى الذات الإلهية، ليس للأسماء، ولا للصفات، ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة من الاعتبارات الحقية[5] والخلقية»[6].

ومحمد هو الواحدية، فما هي عندهم؟ إنها «عبارة عن مجلى ظهور الذات فيها صفة، والصفة فيها الذات»[7].

والفرق بين الأحدية والواحدية:«أن الأحدية لا يظهر فيها شيء من الأسماء والصفات، أما الواحدية فتظهر فيها الأسماء والصفات»[8]. وبهذا يتجلى لك أن الصوفية تعتقد في محمد أنه هو الله سبحانه ذاتاً وصفة، وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه هو الوجود المطلق، والوجود المقيد، أنه كان ولا شيء قبله، أو معه، ثم تعين في صور مادية سمي في واحدة منها بجماد، وأخرى بحيوان، وهكذا حتى اندرج تحت اسمه كل مسمى، وصدقت ماهيته على كل ماهية[9].



(1) انظر تحت المادة جامع الأصول في الأولياء للكمشخانلي والتعريفات للجرجاني.
(2) ص7 رسالة في معرفة الحقائق لمحمد الدمرداش.
(3) ص107 جامع الأصول للكمشخانلي.
(4) ص92 المصدر السابق.
(5) أي لا توصف بأنها حق، أو خلق في تلك المرتبة.
(6) عن جامع الأصول تحت مادتي الأحدية والواحدية وعن الإنسان الكامل للجيلي (30/1).
(7) الإنسان الكامل للجيلي (30/1).
(8) الإنسان الكامل للجيلي (30/1).
(9) انظر أيضاً مجلة الهدي النبوي عدد 5 لسنة 1366هـ.

من هدي الله

ذاك هو محمد الصوفية، أما محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، فقد جلا لنا ربه وخالقه، ومن اصطفاه رحمة للعالمين، جلا لنا حقيقته في قوله الحكيم:﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

ونحن نؤمن – كما هدى القرآن والسنة – بأن أول خلق الله هو القلم أو العرش، فمتى خلقت أسطورة الحقيقة المحمدية الصوفية؟! ونعلم بالتواتر القطعي أن عبدالله بن عبدالمطلب تزوج بآمنة بنت وهب، وأنهما أنجبا طفلاً سمي محمداً, وأنه نشأ نشأة الخير والطهر والشرف والكرامة، وضيء الطفولة، نقي الصبا، طهور الشباب، فلم يشب نقاء صباه ريبة، و لم تهتف بقدس شبابه نزعة هوى، ولا نزعة صبوة، فكانت دنياه كلها معبداً يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده.

ونعلم أنه جد في الحياة راعي غنم، ثم تاجراً، فكان في حياته المثل الأعلى في الجد القوي الصالح، والأمانة التي تعتصم بالتقوى، والحكم الحكيمة في كل ما يصرف به شئون دنياه، والرعاية التي تقدس الحق والواجب كل ما حمل من أمانة، وأنه كان في أطوار حياته الكامل في الأدب والخلق، وحكمة العقل وسمو العاطفة، ونباغة الفكر، وقوة الإرادة ومضاء العزيمة، وجلال الشرف، وعزة الكرامة، ونبل المروءة، وكرم الإيثار والنجدة، وسماحة النفس، فلم يغمر قلبه إلا حب الله، و لم تترع به الإرادة إلا إلى الخير، ولا العاطفة إلا إلى السمو، ولا الفكر إلا فيما ينال به رضا الله، جواداً مسماحاً في سخائه وبره، محسناً كل الإحسان في كل ما أنعم الله به عليه، فلم يغضب إلا للحق، و لم يجبن إلا عن الذنب، و لم يطمع إلا فيما هو عند الله، ثم اصطفاه ربه خاتماً للنبيين، فجاهد في الله حق جهاده، وبلغ كل ما نزل إليه من ربه، وشهد الله له بذلك، ثم قبضه الله إليه بعد أن صارت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فصلوات الله وسلامه عليه.

هذا قبس نستهدي به حياة محمد صلى الله عليه وسلم، فقل لي من الحقيقة المحمدية، تلك الأسطورة الصوفية الموغلة في تيه القدم والعدم: من أبوها؟ من أمها؟ ومم خلقت؟ ولمن أرسلت؟

  

شأن محمد

وتزعم الصوفية أن شأن محمد هو شأن الله!! اسمع إلي صوفي يقول:

«شأن محمد في جميع تصرفاته شأن الله، فما الوجود إلا محمد»، ويقول:«لا يدرى لحقيقته غاية، ولا يعلم لها نهاية، فهو من الغيب الذي نؤمن به».

ويقول:«ولما كانت بشريته صلى الله عليه وسلم نوراً محضاً، كانت فضلاته مقدسة طاهرة، و لم يكن لجسمه الشريف ظل كالأجسام الكثيفة، وهذا النور المحمدي، هو المعني بروح الله المنفوخ في آدم، فروح الله محمد»[1].

  

(1) هذه النصوص عن كتاب النفحات الأقدسية للبيطار (ص9، 11، 13).

المهاجر من مكة

يقول ابن عربي:«اللهم أَفِضْ صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني[1]، وآخر التترلات المضافة إلى النوع الإنساني، المهاجر من مكة – كان الله[2]، و لم يكن معه شيء ثانٍ – إلى مدينة، وهو الآن ما عليه كان، محصى عوالم الحضرات الخمس[3] في وجوده، سر الهوية في كل شيء سارية، الجامع بين العبودية والربوبية الشامل للإمكانية والوجوبية[4]، أرأيت إلى قطب الصوفية الأكبر في غي إلحاده الأكبر، يفتري أن محمداً هو الله، وتأمل دعاء مكره، فيما يعبر به عن كفره، في قوله:«المهاجر من مكة كان الله و لم يكن معه شيء ثان إلى المدينة». إنك حين تقرأ تلك الجملة دون تدبر ستظن أن فيها خللاً، وأن جملة «كان الله، و لم يكن معه شيء ثان» لا صلة لها بما قبلها، ولا بما بعدها، وأعترف أني خدعت، فظننت أن هذه الجملة مقحمة، وحرت في إدراك هدف ابن عربي من وضع تلك الجملة التي تبين عن حق كريم بين باطل عربيد وآخر لئيم! بيد أني عدت إلى النص أتلوه، وفي فكري دين ابن عربي، وثمت بدا لي هدفه في وضح وجلاء، وتبين لي أن الجملة ليست مقحمة، وإنما هي لحمة دينه وسداه، فلنعد إلى الجملة نرتبها كما تحتم قواعد اللغة الصحيحة «المهاجر من مكة إلى المدينة كان الله، و لم يكن معه شيء «ثان» ما زدنا شيئاً على قوله، ولا نقصنا منه، وكل ما فعلناه هو وضع قوله:«إلى المدينة» موضعه، بعد أن نأى به ابن عربي عنه؛ ليمكر به، ويلتوي على القراءة فهمه! بهذا يبدو لك جلياً أن ابن عربي يفتري أن المهاجر من مكة إلى المدينة لم يكن هو محمداً رسول الله، وإنما كان هو الله متجلياً في صورة اسمه فيها «محمد».

ولا ريب في أنك تعرف أن صاحب الرسول في الهجرة كان أبا بكر، غير أن ابن عربي يقول:«و لم يكن معه شيء ثان»، يعني أن أبا بكر هو الآخر لم يكن إلا الله متعيناً في صورة اسمه فيها:«أبو بكر»[5].

---

(1) العماء عند الصوفية: هو الحضرة الأحدية، وهذه تتعين بالتعين الأول؛ لأنها محل الكثرة وظهور الحقائق والنسب الأسمائية. جامع الأصول مادة العين.

(2) نصب لفظ الجلالة باعتباره خبرا لكان، فيكون معنى الجملة «المهاجر من مكة كان هو الله».

(3) يجعلها القاشاني ثلاثاً فقط: الفردية وهي حالة وجود الذات الإلهية في عين الجمع حيث كانت و لم يكن معها شيء ثان، الثانية حضرة الوترية وهي حال بقائها بعد فناء كل شيء في مقام الجمع، الثالثة حضرة المعية وهي حالة وجودها مع كل شيء في عالم التفرقة، والأولى ما وردت الصفات منها، والثانية ما صدرت إليها، والثالثة ما وردت إليها ثم صدرت عنها. كشف الوجوه الغر (ص133).

(4) ص2 مجموعة الأحزاب – ط استامبول سنة 1298ه.

(5) كل هذا ينطلق من أصل واحد يقوم عليه الفكر الصوفي وهو وحدة الوجود.

ومحمد الصوفية له مظهران، أو اعتباران، فهو عبد أو خلق باعتبار ظاهره، وهو رب أو حق باعتبار باطنه، ولهذا يصفه ابن عربي – باعتبار ظاهره – بأن له العبودية ويصفه – باعتبار باطنه – بأن له الربوبية! ويصفه بأن له الإمكانية باعتبار ناسوته، وبأن له الوجوبية، باعتبار لاهوته!

والنابلسي في شرحه لصلاة ابن بشيش يقول:«ما صلى على محمد إلا محمد؛ لأن صلاة العبيد عليه، صدرت منه بأمره من صورة اسمه»[1].



(1) ص557 مجموع الأحزاب – ط استامبول.

كرَّة من الحق على الباطل

أما محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، فيهدينا الله إلى حقيقته بقوله:﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:144]، وفي قوله سبحانه:﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ حجة من الحق تزهق الباطل الصوفي كله.

وأما اعتقاد المسلمين في نبيهم الحق، فهو أنه صلى الله عليه وسلم «بشر مثلنا يوحى إليه»، فالقرآن – وهو كلام الله وهداه ورحمته – يفرض عليهم الإيمان بذلك، فلا مناص من الإخبات له بالقلب والفكر والشعور، ويزيدنا القرآن هدى؛ إذ يقرر أن بشرية الرسول الأعظم مثل بشريتنا، في أسلوب من القول مشرق الإعجاز في بلاغة البيان وفصاحته، في أسلوب يفرض على الفكر الإيمان بمعناه البين دون أن يشتبه معناه الحق حتى على الأمي الجاهل، وذلك في قوله قل:﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:110].

كلام هو الحق والحكمة والهدي في أسلوب حكيم جلي محكم محكم، لا يأذن حتى لخاطرة واهية من ظن أن تقتحم عليك قدس يقينك؛ أو أن تحوم خفية حوله أو تفسد عليك شيئاً ما من فهمك لمعنى الآية. ومن تدبر «بشر مثلكم» لرأى أشعة الهدي الإلهي الأعظم تغمر حوله الوجود كله، وتهديك إلى الحق الذي يجب أن تؤمن به، ألا تراها تجعل بشريتنا هي المقياس الذي به نقيس بشرية رسول الله الكريم، حتى لا يفتنا حب هذه البشرية الطهور؛ فنظنها خلقاً آخر، أو نوعًا من البشرية يغاير في حقيقته بشريتنا، فلا ندرك كنهها، ولا شيئاً من خصائصها؛ لأنها لم تتحقق إلا في فرد واحد؟ لقد كان يكفي في الدلالة على المعنى أن يقال:«قل: أنا بشر»، أو «أنتم بشر مثلي»، ولكنه سبحانه – هو الحكيم العليم الخبير – شاء أن يعرفنا بشرية محمد صلى الله عليه وسلم بما نعرفه نحن من خصائص هذه البشرية التي فطرنا عليها، وبما نبتليه من قيمها ومقوماتها، وبما نعالج من غرائزها وعواطفها[1] وبما نعلمه – عن الله – من حقيقة بدئها وغاية منتهاها، وبما نتجاوب به مع رواد الوجود من حب أو كراهية. ولذا طعم صلى الله عليه وسلم، وشرب، وتزوج، ونجل خير البنين، وذاق الشبع والجوع والمرض، ومست قلبه الأحزان، وذرفت عيناه الدموع، وجاشت نفسه برحمة البكاء، وغير ذلك مما قضاه الله على البشرية من أقدار في هذه الحياة، ثم جاءه صلى الله عليه وسلم ملك الموت الذي وكل بنا.

غير أن بشريته صلى الله عليه وسلم آمنت حق الإيمان بما هداها الله إليه، وأنعم عليها به، فأدت حق الله كاملاً من الحق والشكر، وحلقت فوق قمة السمو الإنساني الأعظم، فكانت وحدها هي النجم الأرفع الأسمى، وتألقت بعبوديتها الخالصة فوق أعلى أفق للتوحيد الخالص، فما زلت بها عاطفة لإثم، ولا هنت بها غريزة إلى ذنب؛ لأنه صلى الله عليه وسلم اتخذ الله وحده ربا له، وجعل رضاه غايته والدعوة إليه هدف كفاحه وجهاده، والغاية العظمى لدنياه، والفلك الأعظم الذي تدور فيه حياته.

---

(1) غرائز البشرية الصالحة وعواطفها نفس غرائز البشرية الطالحة وعواطفها في الفطرة والفرق أن صاحب الأولى وجهها وجهة الخير، ووجهها الآخر وجهة الشر.

ثم تدبر ما حكم الله به على المشركين الذين قالوا ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7] إنه جل شأنه حكم عليهم بأنهم ضلوا فلا يستطيعون سبيلاً! لتعلم أن هذا الذي استنكره المشركون ليس إلا قدر الله العدل الحكيم الذي قضاه على البشرية، وقسطاً من أقساطها في الوجود، وأنه لا يمس مقام النبوة بأثارة من ضعة، إذ النبي – قبل كل شيء – بشر، والبشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق!

وتدبر ما وصف الله به رسله جميعاً:﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: 9]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20]، تدبر هذه الآيات؛ لترد بها فرية الوثنية التي تزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم نجم الحياة الأبدية الخالدة في الدنيا، وأن فضلاته كانت مقدسة طاهرة وإشعاعاً من أضواء الربانية!

لماذا – إذن – كان يتوضأ صلى الله عليه وسلم، ويتيمم، ويغتسل؟

وتدبر خطاب الله لنبيه:﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)﴾، [الزمر: 30]، ذكر موتنا عقب موته؛ لنهتدي إلى أن الموت الذي قَضِيَ علينا هو عين الموت الذي قُضِيَ علي نبيه صلى الله عليه وسلم! ورغم هذا – على ما فيه من وضح وجلاء – وجد من يزعم أن موت محمد معناه الحياة السرمدية، وجد من يضع للفظ نقيض معناه، أو يضع للفظ إسفاف الشهوة من هواه!

ويقول الصوفية:«إنه صلى الله عليه وسلم يحضر كل مجلس، أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف، ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته، لم يتبدل منه شيء»[1].

ذلك على حين يكتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – تحت عنوان «أشرف صفات الرسول في أشرف مقاماته» قائلاً:

والله سبحانه يصف رسوله بأشرف الصفات – وهي العبودية – في أشرف مقاماته، وأخلدها ذكراً وأجلها أثراً وغاية:﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، يصفه ربه بالعبودية الصرفة الخالصة وحدها في تلك الليلة التي استشرف فيها قمة السمو الأعظم، آه لو قيل:«أسري بمحمد»، فحسب إذن لراح الصوفية يثيرون ما يفتنون به من شبهات لا تجد من اللفظ النور القوي الذي يبددها، إذن لآلوا أن محمداً لم يكن بشراً، ولا عبداً، وإنما كان روحاً إلهياً سخرت لقدرته الآفاق، وعبدت لقهره متون الفضاء، فجاءت كلمة «عبده» في الآية حجة الحق المتلألئة التي تبيد الظنون، وتبدد كل شبهة تختلس الفتنة للعقول بأوهامها جاءت برهاناً ربانياً – لا ينقص أبداً – على أن محمداً صلى الله عليه وسلم، ما كان إلا بشراً

---

(1) (ص219/ 1) كتاب رماح حزب الرحيم لعمر بن سعيد الفوتي ط 1345، ولا تزال بقايا من هذا الفكر تعيش في ضمائر الناس إلى الآن، ويرددون حديثاً واهياً في متنه وسنده وهو: حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، وتعرض عليَّ أعمالكم............... الخ.

يوحى إليه، حتى في تلك الليلة وقف فيها دون عرش ربه الأعظم، يقبس من نور الله وهداه، فما بالك به في كل أصائل عمره وعشاياه؟!

ويصفه سبحانه بالعبودية في مقام الدعوة إليه:﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 18]، وتدبر إضافة «عبد» إلى «الله» ليغمر بيقين الحق قلبك، فلا يشتبه عليك الفرق الجليل العظيم الكبير بين عبودية محمد وربوبية ربه وألوهيته، ولا تفتنك مجوسية الصوفية تهبت الحق بزعمها أن محمداً هو الله!!

ويصفه سبحانه بالعبودية في مقام هو الفيصل الحق الأكبر بين كون محمد دعياً، وكونه نبياً، ذلك هو مقام التحدي بالمعجزة العظمى، معجزة القرآن:﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [سورة البقرة: 23].

والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يضع لنا على الطريق صوي ومنارات، حتى لا نحيد عنه، فنهلك، ويرشدنا إلى الحق؛ حتى لا تزيغ بنا غلواء الشاعرية في الحب، فيقول صلى الله عليه وسلم:«لا تطروني، كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله» ويدوي صوته الأخاذ الرائع بصيحة الحق يعظ بها ذلك الصحابي الذي جرفه غلو الحب، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم:«أنت سيدنا»، فصاح به؛ ليصمت، ثم أرسلها تعبر الأجيال والأحقاب والدهور عظة شافية هادية:«إنما السيد الله تبارك وتعالى»[1].

فما إن تهامست تحت قبة الفلك الأصداء الراعشة الخافتة والواهنة المذعورة من قولة الصحابي، حتى تجاوب الوجود كله بدوي الصيحة الهادية من الرسول، تحول بين الأخرى وبين أن تطمئن في سمع، أو تهز وتراً من قلب، وما زالت قلوب المؤمنين تتجاوب بعظة محمد العظيم في حب وإجلال، فصلى الله عليه وسلم.

وفي الصلاة – وهي شعيرة الحب العابد – علمنا الرسول عن أمر ربه أن نشهد أن محمد عبدالله ورسوله، ولكن الصوفية تأبى إلا أن تدين بأن ذلك الحق باطل وخطيئة، فتكذب الله ورسوله، وتقول: لا، بل محمد هو الرب الأعظم!

وفي حديث الشفاعة يقص علينا الرسول صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام وقد ناشده الخلق أن يستأذن ربه في أن يشفع لهم عيسى عنده – يقول:«اذهبوا إلى محمد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، ولكن الصوفية تأبى إلا اتهام عيسى بالحقد على محمد، وجحود فضله، فتقول: لا، بل هو رب نعبده، ونضرع إليه أن يهب لنا ما يملكه الله وحده، فيهتف الصوفية حتى يصكوا سمع الصخر – إن كان له سمع -:«الشفاعة يا محمد».

تدبر ما ذكرتك به من آيات الله؛ لتؤمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم، لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده، وأنه كان بشراً يوحي إليه، لا الله، ولا شريكه كما تفتري الصوفية!

---

(1) عن حديث رواه النسائي بسند جيد.

آراء المستشرقين[1]

ومما يلوع النفس بالحسرة والقلب بالأسى أن يدرك المستشرقون – عداوتهم للإسلام – هذا الحق، ويظل الصوفية – ومنهم أحبار كبار يختالون أنهم أئمة الإسلام – مصرين في جحود أصم على عداوة ذلك الحق، يقول نيكلسون:«إذا بحثنا في شخصية محمد، في ضوء ما ورد عنه في القرآن من آيات وما أثر عنه من الحديث في الصدر الأول، وجدنا الفرق شاسعاً بين الصورة التي صور بها في ذلك العهد، وبين الصورة التي صور بها الصوفية أولياءهم، أو تلك الصورة التي صور بها الشيعة إمامهم المعصوم، وظهر من المقارنة أن صورة شخصية الرسول لا تفضل عند الموازنة صورة الولي الصوفي، أو صورة الإمام الشيعي، إن لم تكن دونها، ذلك أن الولي الصوفي والإمام المعصوم، قد وصفا بجميع الصفات الإلهية، بينما وصف الرسول في القرآن بأنه بشر فيه كل ما للبشر من صفات، وأنه يتزل عليه الوحي من ربه بين آن وآخر، ولكنه لا يتلقاه مباشرة عن الله، بل بواسطة الملك، وأنه لم ير الله قط، أو يطلع على أسراره، وأنه لا يتنبأ بالغيب، ولا يفعل المعجزات، أو خوارق العادات، بل هو عبد من عباد الله ورسول من رسله»[2].

ثم يتحدث الرجل عن محمد صلى الله عليه وسلم عند الصوفية، فيقول:«فمحمد إذن ليس المصدر الذي يستمد منه جميع الأنبياء والأولياء علمهم بالله فحسب، بل هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود بأسره، كما أنه العلة الأولى في خلق كل ما هو مخلوق، والعقل الكلي الذي يصل ما بين الوجود المطلق «الله» وبين عالم الطبيعة، وليس العالم إلا صورة الحقيقة المحمدية، كما أن الحقيقة المحمدية ليست إلا صورة الله»[3].

ويقول جولد زيهر:«إن صورة النبي كما صورتها السنة، وقد أصابها التبديل والتحوير، لكي تتلاءم مع تقديس الأولياء، حتى نجم عن ذلك أن العقائد الشعبية، وضعت صورة للنبي تتعارض تماماً مع البيانات البشرية التي صور بها القرآن والسنة مؤسس الإسلام الأول»[4].

ويقول هنيرش بكر:«من الثابت أن الغنوص قد أثر في إيجاد هذه الصورة التي صورتها العصور الوسطى الإسلامية المتأخرة لمحمد، وكان سببا في إيجاد ما يشبه عبادة محمد، وهذه العبادة، وتلك الصورة مخالفتان لما كان عليه الإسلام الأول كل المخالفة، أما الأولياء لله في الإسلام، ففي مقابل الأرواح القدسية في الهلينية «هم الكائنات الروحية الوسيطة بين الذات الإلهية وبين المادة عند الغنوصية» حتى أن محمداً – وهو نموذجهم الأعلى

---

(1) لا أذكر رأي هؤلاء احتجاجا به، وإنما هو لبيان أن هذا الحق، قد أدركه هؤلاء المستشرقون على عداوتهم، فقرروه، على حين يعاديه الصوفية ويكفرون به.

(2) ص158 في التصوف الإسلامي ترجمة الدكتور عفيفي.

(3) ص16 المصدر السابق.

(4) ص234 العقيدة والشريعة لجولد زيهر.

– ينتهي بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل، وأن يكون الرحيم المخلص القدير ومن طريق هذا المذهب، انقلبت فكرة الوحي التي كانت مجودة في الإسلام الأول إلى ضدها»[1].

ويقول فيليب حتى:«والعقيدة الثابتة في باب الإيمان هي أن محمداً رسول الله، وخاتم النبيين، وفي علم الإلهيات القرآني ليس محمداً إلا بشراً لم يتم الله على يده من العجائب غير إعجاز القرآن، إلا أن التقاليد والأساطير التي اصطنعتها.العامة، من بعد، نسجت حول هامة الرسول هالة من النور الإلهي»[2].

وهكذا يدرك يهود ومسيحيون حقائق من الإسلام يتعامى عنها أحبار الصوفية، لقد تجرد أولئك المستشرقون قليلاً من التجرد، ولكنهم فهموا كثيرا من الفهم الصائب، فوصفوه صلى الله عليه وسلم ببعض صفاته، ولولا أنك على بينة من عقائدهم الأسطورية الباطلة، لظننتهم في قولهم هذا مسلمين يتهجدون في المحاريب في نور من القرآن!

أو يرضيك أن يصدع بذلك الحق، قوم لم تلن قلوبهم لدين الحق، وأن يسجد الصوفيون للباطل، يعبدون خرافاته، ويمجدون أساطيره، ويزعمون أنهم أئمة الدين وأعلامه!!

  

---

(1) ص12 التراث اليوناني، ترجمة الدكتور بدوي.

(2) ص177 ج1 تاريخ العرب لفيليب حتى.

كل شيء من نور محمد

بهذا يدين الصوفية، وفيه يتغزلون، ولقد عبر الدباغ عن هذه الأسطورة إذ يقول:«اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب، وما فوقها، وما تحتها إذا جمعت كلها، وجدت بعضاً من نور النبي، وأن مجموع نوره، لو وضع على العرش، لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش، لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم، لتهافت، وتساقطت»[1].

ويقول تيجاني: لما خلق النور المحمدي، جمع هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعاً جمعاً أحدياً، قبل التفصيل في الوجود العيني، وذلك في مرتبة العقل الأول[2].

ويقول الحلواني في قصيدته «المستجيرة» يخاطب رسول الله:

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى	فرداً لفرد، والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته	من نورك السامي، فيا عظم الكرم
فلهذا إليك الخلق تفزع كلهم	في هذه الدنيا، وفي اليوم الأهم
وإذا دهتهم كربة فرجتها	حتى سوى العقلاء في ذاك انتظم
جُدْ لي، فإن خزائن الرحمن في	لح يدك اليمين وأنت أكرم من قسم[3]

والله تعالى يقول:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: 12، 13]، ومحمد صلى الله عليه وسلم إنسان، وإلا فليأتوا له بصفة أخرى، والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يقول:«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[4].

تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن النور، وعمن خلق منه، فلم يذكر عن نفسه أنه خلق من نور، كما ذكر عن الملائكة، وتحدث عن آدم الأب الأول للبشرية، ومن خلقه، وأنه خلق مما ذكر في القرآن، يعني من طين لازب، ومحمد صلى الله عليه وسلم ابن آدم، فلمن تنتسب الحقيقة المحمدية الصوفية؟!

وفي كتاب الله آية واحدة تدك وحدها كل ما يوفض إليه الصوفية من نصب أقاموها لهذه الأسطورة، تلك هي قوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128] وكلمة «شيء» أوسع كلمة في العربية دلالة على العموم والشمول، حتى أطلقها بعضهم على الموجود والمعدوم، بل يعمم ابن

---

(1) ص84 ج2 الأبريز.

(2) ص14 الرماح لعمر بن سعيد.

(3) ص14 وما بعدها من رسالة لأحمد عبدالمنعم الحلواني.

(4) مسلم وأحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها.

عربي دلالتها، حتى يجعلها تتناول الصور الذهنية! وفوق هذا جاءت كلمة «شيء» نكرة في سياق النفي، فزاد عمومها وشمولها.

وتدبر قوله سبحانه:﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9].

فهل يدين الصوفية في الرسل جميعاً بما يدينون به في محمد، إذ ليس هو بدعاً من الرسل؟!

وتدبر قوله سبحانه لنبيه:﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: 21، 22].

هذه هو هدي القرآن، فقارن بينه، وبين ما افترته الصوفية من إفك حول النور المحمدي الذي خلق منه كل شيء!!

الأولياء

اتفقت كتب اللغة العربية، ومعاجمها على أن المقصود بكلمة الولي في اللغة وفي الشرع هو «المحب، والصديق، والنصير»[1].

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن:«الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد، وقد قيل إن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات أي متابعته لها، والأول أصح، والولي القريب، فيقال: هذا يلي هذا أي يقرب منه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:«ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض، فلأولى رجل ذكر»[2]. أي لأقرب رجل ذكر.

هذا مفهوم الولي ومعناه في لغة القرآن.

وتحقيقاً لقضية التوحيد، وانطلاقاً من القول السديد، كتب الشيخ الوكيل مقالاً[3] عن مفهوم الولاية في اللغة، وعن الولي في القرآن، وعن أولياء المؤمنين ودلائل الولاية، وجزائها، وأتبعه بمقال آخر، تحدث فيه عن، النهي عن اتخاذ أولياء من دون الله، ومن هم أولياء الشيطان وماذا يفعل بهم، وحقيقة الولاية البشرية.

ثم تساءل عما إذا كان الولي يستقل بالعطاء؟ وهل ولي الله معصوم.

وأعقب ذلك بما تعتقده الصوفية في الولي، ومفهوم الولاية عندهم.

الولي في القرآن الكريم:

يبين القرآن أن الولي الحق الأعظم في الدنيا والآخرة هو الله سبحانه وتعالى، وقد وصف الله جل شأنه في القرآن بأنه ولي، ومولى، ووال.تدبر هذه الآيات:

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نزلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 196، 197]، ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:9].

وكذلك وصف سبحانه بأنه مولى:﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: 40] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:11]، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:51]، ووصف سبحانه بأنه وال أيضاً:﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: 11].

---

(1) لمعرفة المزيد عن كلمة الولي يمكنك الرجوع إلى كتاب مختارات من كتابات الشيخ أبو الوفاء درويش، إعداد فتحي أمين عثمان، وكذا كتاب قضية الأولياء ومحبتهم، إعداد فتحي أمين عثمان.

(2) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص6-ط الإمام.

(3) مجلة الهدى النبوي، عدد (4، 2) لسنة 1384ه.

أولياء المؤمنين:

قلت: إن الله ذكر أنه هو حده الولي سبحانه، وقد بيَّن القرآن أيضاً أن من هذه الولاية تشرق ولاية الرسول والمؤمنين للمؤمنين، فالله يقول:﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون﴾ [المائدة:56، 55]، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71]، فولينا الله، وولينا رسول الله، وولينا المؤمنين والمؤمنات، والذين نتولاهم هم الله ورسوله والذين آمنوا، وقد بينت الآيات:

صفات الأولياء: فهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، وهم الراكعون، أي الخاشعون الآخذون أنفسهم بالذل لله سبحانه.

ولا تعارض أبداً بين هذه الآيات التي تثبت أن الولاية لله، ولرسوله وللمؤمنين وبين الآيات التي تثبت أن الولاية لله سبحانه وحده مثل قوله جل شأنه:﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 107]، ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [6: 51]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [6: 14].

نعم لا تعارض، فإن ولاية الرسول لنا هي بأمر الله، وولاية المؤمن لنا هي بأمر الله، والرسول لا يوالي إلا من والى الله، والمؤمنون لا يوالون إلا من والى الله، فهم إذن أولياء الله، وهم أيضاً إنما يجعلون ولايتهم للمؤمنين باسم الله، وابتغاء رضوانه، لأنه هو الذي فرض عليهم هذه الموالاة، فقاموا بما فرض الله عليهم، فالرسول ليس بالولي المغني عن الله، ولا بالمولى الذي يستمد الولاية من نفسه، ويحبو بها من يشاء من نفسه؛ لأنه هو نفسه فقير إلى الله سبحانه، ويضرع إلى الله أن يكون الله وليه، وأن يجعل له أولياء من عنده ولهذا كان من دعاء المؤمنين:﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [4: 75]، فاحذر أن تتخذ لك من دون الله وليا، واجعل الله وحده وليك بهذا المعنى الذي تبسطه تلك الآيات المحكمات، فالرسول وليك بأمر الله، والمؤمنون أولياؤك بأمر الله.

ولي الرحمن وآيته وجزاؤه:

سبقت آيات بينت صفات أولياء الرحمن، وإليك آيات أخر أجملت صفاتهم في صفتين هما ملاك الإسلام كله ظاهرة وباطنة:﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [10: 62، 64]، فالصفتان الأساسيتان اللتان هما أساس الدين وقوامه وملاكه وروحه هما الإيمان والتقوى، وقد جاءت هاتان الصفتان في آيات كثيرة من القرآن الكريم غير هذه الآية كما جاءت هذه الصفة:﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [4: 76]،

فأولياء الله يقاتلون في سبيل الله، وهم يقاتلون أولياء الشيطان ومن جزائهم غير ما سبق في الآية الأولى:﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [2: 257].

فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وقد فصل القرآن مفهوم الإيمان، ومفهوم التقوى فلتتدبر في كتاب الله ما ورد عن الإيمان، وما ورد عن التقوى.

ولهم الجزاء الجليل الأعظم: هداية مبصرة بصيرة، وإخراج من كل شبهة وضلالة إلى نور اليقين والإيمان الوثيق، حسبك أن الله هو الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، وتدبر جمع كلمة الظلمات، وإفراد كلمة النور لتدعو الله كثيراً أن ينقذك من الضلالات وأسبابها، فهي كثيرة أما النور فواحد وهو سبيل الله، وليس لله إلا سبيل واحد!! واحذر الكلمة الكافرة الهدف:«الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق» فهذه صوفية وثنية.

ثم هم لا خوف عليهم، والخوف يكون مما في المستقبل، والمستقبل بيد الله الذي يحبهم وبيده كل شيء، فكيف يخاف عليهم من شيء؟ ومستقبلهم رائع محفوظ بيد الحفيظ، ولا هم يحزنون: والحزن لا يكون إلا على ما فات، لأنه لا يعود مرة أخرى، أو لأن ما سيأتي لن يكون مثله، وهؤلاء الأولياء لا يحزنون على ما فات؛ لأن ما سيأتي هو خير مما مضى، أو هم في حقيقة الأمر لم يفتهم شيء، فنعيم الآخرة هو النعيم، ومتاعها هو المتاع، هكذا الولي لا يخاف مستقبله[1]، ولا يحزن على ما ماضيه، لأن مستقبله أعظم، وأجل وأجمل.

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، أما البشرى العظمى لهم فهي القرآن، تدبر قول الله سبحانه:﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [19: 97]، والقرآن كما هو بشرى هو كذلك بشير، تدبر قول الله:﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10)﴾ [9: 10، 17].

لهذا كان القرآن هو البشارة العظمى في الدنيا، لأنه أخرج أولياء الله من الظلمات إلى النور، وفصل بين الخير والشر وجعل للمؤمنين الأمل المحقق الأكبر في حياة أفضل ونعيم أبدي مقيم، وما بشر المؤمنون ببشارة أعظم ولا أجل من القرآن.

وبماذا بشر القرآن المؤمنين؟ تدبر ما مضى وتدبر هذه الآية:﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3)﴾ [18: 2، 3]، وتدبر هذه الآيات:﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [42: 22، 23].

---

(1) لاحظ في الخوف، قيل:«لا خوف» وهذا لا ينفي أنهم يخافون، أما في الحزن فنفاه عنهم بلا يحزنون.

وقوله جل شأنه:﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)﴾ [9: 21، 22]، وحول هذه البشارة ترى أحلامهم وآمالهم، وتتجه الإرادة والعزيمة والسلوك، فيعتقدون، ويعملون ما يحقق لهم مضمون هذه البشرى، ويفرحون بأن وفقهم الله إلى اعتقاد وعمل ما يحقق لهم هذه البشرى، ولن تجد خيراً منهم أخلاقاً، وتدبر أيضاً قوله سبحانه:﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [2: 25].

وهناك بشرى عظيمة أيضاً وردت في القرآن، تلك هي التي نستنبطها من هذه الآية:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [13: 30، 32].

وتدبر قول الله:﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [36: 11].

فبشارة الأولياء هي القرآن، وما ورد فيه من أجر عظيم، وما تبشرهم به الملائكة من أنهم أولياؤهم، وأن لهم ما تشتهي أنفسهم، ومنها تبشير الولي بمصيره العظيم عند الاحتضار كما ورد في بعض الأحاديث تفسيراً لما ورد في تلك الآية.

بشراهم في الآخرة:

تدبرها في الآية:﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [21: 103]، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [57: 12].

وقارن بين هذه الآية وبين قوله سبحانه:﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [25: 22]، هذه هي بشارة الأولياء في الآخرة، ومن خلال البشارات تستطيع أن ندرك صفات أهلها، فقد جاء:﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾، ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

فولي الله مسلم مؤمن تقي محسن صابر مخبت منيب إلى الله، يستمع القول فيتبع أحسنه، متجنب لعبادة الطواغيت، فعال للصالحات.

ما للظالمين من ولي:

لقد جعل الله نفسه وليا للمؤمنين، وأمر رسوله والمؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض، أما غير المؤمن فليس له من دون الله ولي ولا نصير، تدبر قول الله سبحانه:﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [46: 32]، ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [42: 8]، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [42: 44]، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [42: 46]، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [4: 123].

فكيف يطمع الذين يتمردون على كتاب الله أن يكون لهم ولي؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [18: 57]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [6: 21]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [6: 93]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [6: 144]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ الله﴾ [2: 140].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ [61: 7]، والصوفية تفتري على الله الكذب، وهي تدعى إلى الإسلام، فتدعوا هي إلى ابن عربي وابن الفارض، والصوفية تزعم أن معارفها عن وحي، ولم يوح إليها شيء، والصوفية تعرف الحق، وتكتمه، والدليل ما كتب ابن عربي في الفتوحات، ففي كتابه آيات بينات تدل على أنه يعلم الحق، ولكنه يصر على عداوته وكتمانه في كتب أخرى.

النهي عن اتخاذ أولياء من دون الله:

بين الله لنا – سبحانه – أنه هو الولي؛ ولهذا حرم علينا أن نتخذ من دونه أولياء.

تدبر قوله سبحانه:﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [9: 14]، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [7: 3]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [6: 1].

ثم فصل سبحانه، فقال:﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [9: 23].

وقال يبين لنا موقفنا من المنافقين:﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [4: 89].

وعن الكافرين وأهل الكتاب:﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [3: 28]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [5: 51].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [5: 57].

وقال عن الشيطان وذريته:﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [18: 50].

وبين لنا موقفنا من هؤلاء جميعاً في آية مجملة، فقال:﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [76:4].

أولياء الشيطان:

يقول ربنا سبحانه عن هؤلاء:﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [7: 37].

ولماذا فعل بهم الله ذلك؟ لماذا تركهم للشيطان؟ لماذا جعل الشيطان وليا لهم؟

تدبر قول الله سبحانه:﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [7: 30]، فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وتدبر أيضاً هذه الآية:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [2: 257]، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [16: 63].

ماذا يفعل الشيطان:

تدبر قول الله سبحانه:﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [3:175]، ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [6:128].

هذه بعض آيات في أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، فتدبرها يا أخي بقلب خاشع، وفكر قانت، وروح تحب النور، ونفس تتوق إلى الحقيقة، ثم قارن بين الولي في القرآن وبين الولي في وحي الشيطان، وثمت لن تجد إلا حقا يحاول باطل الصوفية العدوان عليه ببغيه.

  

لا ينفع اتخاذ الأولياء من دون الله:

وقد ضرب الله لنا مثلاً عظيماً يوضح هذه الحقيقة توضيحاً لا يغيب عن فهم أحد لولا سطوة التراث الصوفي:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [29: 41، 42].

ويقول سبحانه عمن اتخذوا آيات الله هزواً، وأبوا إلا أن يلوذوا بالأولياء:﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [45: 9، 10]، فهل تغني إقامة الموالد، وإقامة المقاصير، وفرشها، وإضاءة معابدها، والنذر لها؟ ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [13: 24]، وبعدها يقول:﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [13: 16].

وتدبر هذا المثل:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [22: 73]. وتدبر نفي الله عن الأولياء شيء ما:﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [24: 22].

هل تتدبر مثقال ذرة؟ وهل تتدبر أنه ليس له ظهير منهم؟ وتدبر أيضاً:﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [35: 13، 14].

والقطمير: لفافة نواة التمر، وتدبر معي هذه الحقائق المشرقة من الآية، الحقيقة الأولى: أن الأولياء لا يملكون شيئاً، حتى القطمير لا يملكونه، الحقيقة الثانية: إنهم لا يسمعون الدعاء؛ لأنهم موتى، فالله يقول:﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾، محمد صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يسمع الموتى، فهل يستطيع غيره من الإنس والجن؟

الحقيقة الثالثة: إنهم لا يستجيبون الدعاء من دعاهم إذا فرضنا أنهم يسمعون؛ لأنهم لا يملكون استجابة الدعاء. الحقيقة الرابعة: إنهم سيكفرون يوم القيامة بشرك من دعوهم، وهذا يؤكد أن الداعين لهم مشركون بهذا الدعاء، ومن يقول هذه الأنباء؟ إنه الخبير سبحانه، فهل نرتاب؟ معاذ الله.

كلمة طيبة عن أولياء الرحمن:

يقول الإمام الصبار الشكور ابن تيمية عن أولياء الرحمن:«وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم وأفضل أولي العزم محمد خاتم النبيين وإمام المتقين».

ثم يقول:«والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة، قال تعالى:﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ [57: 10]، وقال تعالى:﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [9: 100]، والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح: صلح الحديبية، فإنه كان أول فتح مكة.

وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة، وأفضلهم أبوبكر، ثم عمر، هذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها.

وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول، واتباعاً له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبوبكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملاً به، فهو أفضل أولياء الله؛ إذ كانت أمة محمد أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وأفضلهم أبوبكر رضي الله عنهم».

حقيقة الولاية البشرية:

إنها كما تدبرت من القرآن عبودية خالصة ليس لغير الله فيها أثارة من ملك ولا أمر، عبودية نهضت بصدق الإيمان وإخلاص التقوى، والمتابعة الجادة الصادقة في كل ما أمر الله به أو نهى عنه، عبودية تؤمن بأن الله له وحده الخلق والأمر، وبأنه وحده على كل شيء قدير، وبأنه ليس كمثله شيء هو السميع البصير، وبأن له ملك الشفاعة جميعاً، وبأنه لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، عبودية تحب الله، وبهذا الحب تحب رسله وأولياءه، وبهذا الحب ترجو ثوابه، وتخاف عقابه، وبهذا الحب تتوسل إليه، وتتزلف، وبهذا الحب تصدق بكل ما جاء عنه، وتؤمن به.تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبأن الناس جميعاً فقراء إلى الله، سواء منهم الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم من عموم الخلق، تؤمن بأن محمد هو الرسول بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كافر من أولياء الشيطان، وأما خلق الله تعالى للخلق ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم ونصره لهم على أعدائهم وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا لله وحده يفعل بما يشاء من الأسباب لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل»[1].



التفاضل في الولاية:

يقول ابن تيمية:«وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى:﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 124، 125].

أنواع الأولياء:

ورد في القرآن أنهم في كل أمة طائفتان؛ الطائفة الأولى: السابقون المقربون، والطائفة الأخرى: أصحاب اليمين المقتصدون، أما الأولياء في أمة محمد، فهم ثلاثة أنواع، تستطيع أن تستنبطهم من قوله تعالى في سورة فاطر:﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الحمدللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [35: 32 – 34].

(1) ما بين القوسين من كلام الإمام ابن تيمية في الفرقان، غير أني وضعت كلمة «الرسول» الواردة في «بأن محمداً هو الرسول» مكان كلمة «الواسطة» التي وردت في كلام ابن تيمية.

فالأنواع الثلاثة هم كما وردوا في الآيات:«النوع الظالم لنفسه، والنوع المقتصد، والنوع السابق بالخيرات بإذن الله»، وأقول: إنهم أولياء أمة محمد؛ لأنها هي المعنية بقوله سبحانه:﴿أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾.

هل يستقل الولي بالعطاء:

العطاء كلمة من الله، والله يعطي المؤمن، ويعطي الكافر:﴿كلاً نمد هؤلاء، وهؤلاء من عطاء ربك﴾، «وأما العبد الرسول، فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه، ولا يعطي من يشاء، ويحرم من يشاء بل يعطي من أمره ربه بإعطائه ويولي من أمره ربه بتوليته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى كما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«إني والله لا أعطي أحداً، ولا أمنع أحداً، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»[1].

ولي الله غير معصوم:

وليس ولي الله معصوماً من الخطأ، فقد جعل الله من أوليائه ذلك الصنف «الظالم لنفسه»، وقد قص الله علينا قصة أول أوليائه من البشر، وهو آدم، فذكر عنه قوله المحكم:﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [20: 121]، ولكن رغم هذا لم يخرجه الله سبحانه من ولايته، بل علمه كيف يتوب فتاب، فتاب الله عليه، ومن ترك أمراً من الكتاب والسنة إلى أمر يزعم أنه ألقي إليه في روعه، فقد تعمد الكفر بما أنزل الله، فإذا ما رأيت إنساناً يخالف الشرع، ويسند هذه المخالفة إلى ما تلقاه عن الله فقد تردى في كفرين: أشدهما شناعة: الافتراء على الله سبحانه، والعبد الصالح المذكور مع موسى في سورة الكهف ما فعل أمراً يخالف شرعه الذي أوحاه إليه، ولهذا لم يعترض موسى عليه السلام حين علم حقيقة الأمر.

هذا ولي الله كما بيَّن القرآن، وقد جلوت لك معناه وعلامته بآيات الله، لا بكلمات الشيوخ، فلم تجد فيها للولي ذلك المفهوم الصوفي، وإنما وجدته عبداً مخلصاً لله سبحانه، والله لم يختر وصفاً جليلاً لأعظم أوليائه خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم غير وصف العبودية، وهذا في أعظم مقامات الرسول وأحواله، وفي الإسراء:﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ في مقام التحدي بالقرآن:﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾، وفي مقام الدعوة إلى الله:﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، هذا وصف محمد صلى الله عليه وسلم في أعظم مقام وأجل حال، فما بالك بغيره؟ والله يقول عن عيسى في أعظم مقام وحال له:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [43: 59].

وعيسى عليه السلام نفسه في أجل مقاماته يقول كما قص الله عنه:﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [19: 30]، والله يقول عن داود:﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [38: 44]، ويقول عن المسيح والملائكة:﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [4: 172]، ويقول

(1) ما بين قوسين كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان.

عن نوح:﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾، وتأمل الوصوف بالعبودية لنوح في هذه الآية:﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [54: 9].

إن جمال الوصف وجلال التوكيد لهذا الوصف يتذوقهما من تمرس بفهم القرآن وأدب لغته، ويقول عن زكريا:﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [19: 2]، ويقول عن زوجتي نوح ولوط:﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [66: 10]، ويقول عن إبراهيم:﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [37: 111]، ويقول عن موسى وهارون:﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [37: 122]، ويقول عن إل ياسين:﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [37: 132]، ويقول عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب:﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [38: 45]، ويقول عن الرسل جميعاً:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [38: 171] ويقول عن خلقه جميعاً:﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [19: 93].

وتقول هذه الآية:﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [6: 18]، فهو فوق العباد بقهره، وتدبر ذكره اسمه القهار هنا؛ لتسجد لجلال الله وقهره، وتؤمن بأنه القهار وحده لكل فرد وشيء من خلقه، رسلهم وأنبيائهم وأوليائهم وملوكهم وأمرائهم، للسماء والأرض، للبحر والبر، للسهل والجبل، للعواصف والأنواء، فسبحان الذي يسجد له من في السماوات والأرض، وما فيهما. ثم تدبر أيضاً الإتيان بالاسمين «الحكيم الخبير»، ثم تدبر أيضاً الوصف بالقهر في هذه الآية:﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [6: 61، 62].

فهل ترى هنا غيراً له في القهر والحفظ، والإماتة والبعث والحكم والحساب؟ أين الأولياء هنا؟ هم هنا عبادٌ تحت قهر الله وحفظه وحكمه وأمره، لا ترى لأحد حولاً، ولا أمراً، ولا حكماً!

الولي في عرف الصوفية[1]:

لقد مر بنا الكثير، ولكني أذكرك ببعض نصوص الصوفية، قال أبو الحسن الشاذلي:«لو كشف عن نور الولي لعبد من دون الله»!!

لماذا؟ يقول ابن عجيبة: لأن الله يتجلى على أوليائه بكبريائه وقدرته وعلمه المحيط، فيصبح الولي متصفاً بكبرياء الله وقدرته وعلمه المحيط، ولكنه يستتر هذه الصفات فيهم، وإلا كان السر غير مصون، والكنز غير مدفون.

ويستطرد ابن عجيبة: فيقول:«وثبت عن الشيخ ابن يزيد أنه لما تجلى له هذا النور قال: سبحاني ما أعظم شأني».

---

(1) مجلة الهدي النبوي عدد 5 لسنة 1384ه ص45 وما بعدها.

قال الحلاج:

أنـــــا أنـــــت بـــــلا شـــــكٍّ فســـــبحانك ســـــبحاني
وتوحيـــــدك توحيـــــدي وعصـــــيانك عصـــــياني

ويقول ابن عجيبة أيضاً عن الله والولي:«ظهر بعظمة الربوبية في مظاهر العبودية». ويقول أبو العباس المرسي:«معرفة الولي أصعب من معرفة الله، وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجوه بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته»، والخصوصية هي – كما يؤكد ابن عجيبة – أوصاف الربوبية من قدرة الله وعلمه وسائر كمالاته مما تحار فيه العقول، وتذهل فيه الأذهان!!

ثم يقول:«فإذا كمل تطهر الروح من الأغيار، وأشرقت عليها شموس الأنوار كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات»[1].

ويقول في مكان آخر:«إذا صح منك البيع أدركت أنوار الملكوت متصلة ببحر الجبروت، وصرت لا يحجبك عن الله أرض، ولا سماء، ولا عرش، ولا كرسي، ولا أفلاك، ولا أملاك، وصرت أنت قطب الوجود تدوره بيدك كيف شئت»[2]، وهو عين تعبير النسطورية.

ويقول صاحب النفحات الأقدسية أنه قيل لبعض الأولياء:«كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحيي وأميت، وأنا على كل شيء قدير»[3].

ولا يدهشنك هذا، فهو دين الصوفية منذ وجدت، فهي تدين بأنه ما ثم غير الإنسان، أو ما ثم غير الخلق، وهذا الخلق المشهود هو في حقيقته رب معبود.

وتدبر قول عبدالكريم الجيلي في هذا:«قال الله: قل يا محمد هو، أي الإنسان الله أحد»، ثم يقول:«والله هو الولي»، يعني: الإنسان الكامل، «وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير» أي الولي؛ فهو حق متصور في صورة خَلْقِية، أو خلق متحقق بمعاني الإلهية، فعلى كل حال وتقدير، وفي كل مقال وتقرير هو الجامع لوصفي النقص والكمال والساطع في أرض كونه بنور شمس المتعال، فهو السماء والأرض وهو الطول والعرض، وفي هذا المعنى قلت:

لي الملـــــك في الـــــدارين لم أر فيهمـــــا ســـــواي، فـــــأرجو فضـــــله، أو فأخشـــــاه
وإني رب للأنـــــام وســـــيد جميـــــع الـــــورى اســـــم وذاتي مســـــماه[4]

---

(1) ص156، وما بعدها شرح الحكم لابن عجيبة.

(2) ص133، وما بعدها الفتوحات الإلهية لابن عجيبة بهامش شرح الحكم له.

(3) ص6 النفحات الأقدسية.

(4) ص22 وما بعدها ج1 الإنسان الكامل (ط 1293ه).

هذا دين عبدالكريم الجيلي، وهو ممن يخشع الصوفية في رحابه، ويسجدون، يدين هو وأشياعه بأن الولي هو الله!! فهل يصدق مسلم[1]؟

والعجب أنه وجد من يصدق هذا الكفر المقيت، ويهفو قلبه إلى نباح هذه الزندقة الطاغية.

ونبرأ إلى الله من هذا الزيغ والإلحاد.

وأرجو أن نتدبر مرة أخرى حقيقة الولي في القرآن، لتعلم أي عبد قانت خاشع يقف في ذل العبودية بين يدي الله في خوفه ورجائه يدعوه أن يغفر له!!

ثم انظر ما أقام الناس بيتاً من بيوت ومقاصير لعبادة الموتى، الذين قد يكون منهم أشد الناس لله معصية، وقطاع طرق، ولصوص أيتام، وقتلة أطفال!!

وتدبر ما يحدثون من موالد لهؤلاء، يجدها العرابيد المجان الفساق حمأة يتلطخون فيها بردغة الآثام والخطايا، ثم استعذ بالله أن يكون قلبك من القلوب التي تهفو إلى هذا الكفر الدنس!!

ثم استعذ بالله من أن تجعل الاستغاثة بالأولياء وغيرهم هي وسيلتك إلى الله سبحانه، فلا تنادهم، ولا تدعهم، ولا تضرع إليهم، ولا تطف حول مقاصيرهم، ولا تغش مسجداً بني لهم.

وتدبر هذه الآية:﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾، واحذر أن يفتنك الفاتنون عن إخلاص التوحيد لله سبحانه، فتقول بحق فلان أو بجاه فلان، فإنه لا يجوز أن يقسم على الله بأحد من خلقه، وحق فلان له، وجاه فلان له، لا لك أنت:﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾، واحذر التأويل الكافر لقوله سبحانه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [5: 35][2]، فقد فسر ابن عباس حبر هذه الأمة الوسيلة بأنها القربة، وكذا مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبدالله بن كثير والسدي وابن زيد وغيرهم.

وقال قتادة:«تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه»، ويقول ابن كثير:«وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، والوسيلة[3] هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود».

وقال البيضاوي في تفسير الكلمة:«أي ما تتوسلون به إلى ثوابه، والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، من وسل إلى كذا تقرب إليه»، وقال ابن جرير:«واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه». فماذا يريد عبدة الموتى؟ أأتوسل إلى الله بجثة؟ أأتوسل إلى الحي بالميت؟ أأتوسل إلى القادر بالعاجز؟ أأقول يا رب بحق عبدك؟ أأقول يا رب يا غني بحق هذا الفقير؟ أم أقول: يا رب أنا عاجز، وأنت قادر، يا رب أنا فقير إليك، وأنت الغني.

---

(1) تقرأ باقي أبيات القصيدة وشرحها والتعليق عليها في كتاب «هذه هي الصوفية» (ص58، 59، 60).

(2) فسر الصوفية الوسيلة بدعاء الموتى، وجثث الموتى، وأضرحة الموتى فجثة الميت وسيلة إلى الله، وضريحه وسيلة إلى الله، ودعاء جثته وسيلة إلى الله!!

(3) يراجع ما جاء في كتاب مختارات من كتابات الشيخ أبو الوفاء درويش باب «الوسيلة» إعداد فتحي عثمان.

تصور في ذهنك عمل الطائفين حول القبور، أو المولين وجوههم شطر مقاصيرهم، فمنهم من يدعوها بنفسها فيقول: يا سيدة، يا سيد يا ابن بنت الرسول، هؤلاء مشركون.

وآخرون يقولون: يا رب هؤلاء، بجاه هؤلاء عندك، هؤلاء كافرون ملحدون، فليس من الوسائل إلى الله هذا.

ولم ينقل عن رسول محبب، أو ملك مقرب، أو نبي أو ولي أنه فعل شيئاً من هذا، واقرءوا تاريخ الآدمية والنبوات في القرآن، واقرءوا تاريخ أبي بكر في محاربته لأهل الردة، وتاريخ عمر وعثمان وعلي، وصفوة أصحابه وأتباعه، فما نادى أحدهم رسول الله، وما توسل بحقه وجاهه، ولكنهم جميعاً كانوا يتوسلون بطاعة الله وطاعة رسوله، وتقوى الله وحده؛ أفتتركون كل هذا لرواية مأفون أو عابد صنم، وتأتون بأحاديث ما تفوه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

إن الملائكة والنبيين والرسل هم أنفسهم يجتهدون في طلب الوسيلة إلى الله، فبمن يتوسلون؟ أبأنفسهم! إنما يتوسلون إلى الله بأعمالهم.

تدبر قول الله سبحانه:﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [17: 56، 57].

وتدبر هذه الآية:﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [18: 42].

إن أقرب الخلق إلى الله يطلب الوسيلة إلى الله، فما بالك بمن هم دونه؟ إن أقرب الخلق إلى الله لا يملك كشف الضر أو تحويله، فما بالك بمن هم دونه؟

ولو افترضنا وجود آلهة مع الله، لسعت هذه الآلهة تطلب سبيلاً إلى رضوان رب العرش العظيم، فماذا يا أخي بعد هذا من هداية؟

ولقد يحاول بعض الناس فتنتك ببعض أحاديث قيل عنها إن سندها صحيح، والله يعلم أن هدفها قاتل، وسندها شيطان! فما يقول رسول الله أبداً إلا ما يؤيد القرآن!!

ولقد تتصور أنت أحياناً أن هذه الأحاديث لا توقع في كبير، ولكنك لو تدبرت لوجدتها تنحدر بك إلى ما كنت تخشاه؛ فاحذر أن تصدق أن رسول الله يدعوك إلى التوسل إلى الله بغير طاعته واتباع ما جاء به. هدانا الله وإياك سواء السبيل.

خاتم الأولياء

تبين لنا فيما سبق أن:

أصل الولاية المحبة والقرب، وضدها العداوة التي تستلزم البغض والبعد، والولي هو من والى الله بالطاعات وبتنفيذ أوامره وترك نواهيه.

وإذا كانت الولاية الشرعية تابعة لتنفيذ الأوامر والنواهي الشرعية بمعنى أن يعبد الله بما شرع وبما أمر، فينبغي أن يعلم أن أكثر المسلمين التزاماً وطاعة، وبالتالي أفضل المسلمين وأقربهم إلى الله هم جيل الصحابة، هذا فيما يختص بالأمة الإسلامية، وأفضل من والى الله بطاعته مطلقاً من خلقه عامة هم الأنبياء، وأفضل الأنبياء هم المرسلون، وأفضل المرسلين هم أولي العزم منهم، وأفضل أولي العزم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك أصل ينبغي أن يستقر في قلب كل مؤمن وأن يعتقده اعتقاداً جازماً لا يلحقه ريب، ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم، وإمام جميع الأنبياء إذا اجتمعوا[1].

هذا في حين تأخذ الولاية عند الصوفية معنى خاصاً اصطلاحياً يتميز به عن المعنى العام المشار إليه فيما سبق، ولا نجد فيما بين أيدينا من مراجع صوفية حديثاً عن الولاية قبل الحكيم الترمذي في كتابه «ختم الأولياء»، وهو أول من تكلم عن الولاية وعن ختم الأولياء وصاغ من الحديث عنها نظرية كان لها أثرها الكبير في كل من تحدث عنها بعده من الصوفية، إلى أن وصلت هذه الفكرة إلى ابن عربي، فجعل منها مذهباً خاصاً في التصوف صاغه في ثوب رمزي من المصطلحات التي ينفرد بها ابن عربي في «الفصوص والفتوحات» على ضوء مذهبه في وحدة الوجود[2] وابتداء من الحكيم الترمذي نجد لفظ الولاية والولي يأخذ معنى رمزياً يبتعد به عن المعنى العام له.

وخلاصة القول عن خاتم الأولياء عند الحكيم الترمذي: أنه أفضل الأولياء، وذلك على ضوء نظريته في الحقيقة المحمدية، وهذا الرأي يناقض النصوص الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في فضل السابقين كأبي بكر وعمر وباقي الخلفاء الأربعة إذ هم خيار الأمة.

وقد تصدى الشيخ الوكيل رحمه الله لهذا الفهم الباطل والقول الخاطئ الذي جر الصوفية إلى الاعتقاد الذي يجعل خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء والذي نادى به الحكيم الترمذي وابن عربي.

فكتب فصلاً في كتابه «هذه هي الصوفية»[3] يكشف فيه عوارهما، نذكر لك جانباً منه يقول فيه حاكياً عقيدتهم في الولاية والأولياء:

---

(1) من قضايا التصوف، تأليف: أ.د محمد السيد الجليندي (ص199).

(2) من قضايا التصوف، تأليف: أ.د محمد السيد الجليندي (ص211).

(3) «هذه هي الصوفية» (ص155، 156، 157، 158).

وكما جعل الله للنبيين خاتماً: جعل الصوفية للأولياء خاتماً، والعنكبوت الأول الذي سال لعابه بهذه الأسطورة هو الحكيم الترمذي[1]، قال السلمي:«تفوه من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية»، وقال: إنه يقول:«إن للأولياء خاتماً، كما أن للأنبياء خاتماً، وأنه يفضل الولاية على النبوة»[2].

ويقول ابن تيمية عنه:«في كلامه من الخطأ ما يجب رده». ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية، مثل دعواه فيه أنه يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر وغيرهما، ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء الذي يكون في آخر الزمان، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء»[3].

وتوالت عناكب الصوفية على هذه الأسطورة، حتى قتلت بها ذباباً من الخلق كثيراً. قال ابن عربي – وهو يتحدث عن علم وحدة الوجود -: وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء وما يراه أحد من الأنبياء، أو الرسل إلا من مشكاة الرسل، وخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه – متى رأوه – إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة – أعني نبوة التشريع – تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً، فالمرسلون من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء»[4].

  

---

(1) هو غير صاحب السنن، فهو محمد بن علي بن الحسن بن بشير أو «بشر» الترمذي الملقب بالحكيم عاش إلى حدود 320هـ.

(2) ص170 ج2 مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة – طبع الهند.

(3) ص79 وما بعدها رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(4) ص62 ج1 فصوص الحكم – ط الحلبي.

تفضيل خاتم الأولياء على خاتم النبيين

زعم ابن عربي في النص الذي نقلته عنه آنفاً أن الرسل لا يستمدون أشرف علومهم إلا من خاتم الأولياء، وهذا يستلزم تفضيل الولي الخاتم على الرسل بعامة وعلى النبي الخاتم بخاصة، ويقول ابن عربي:«ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة، غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء، فلا بد من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله، ويرى في الحائط موضع لبنتين، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينتك اللبنتين، فيكمل الحائط، كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فإنه آخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول».

ويقول:«وفينا من يأخذه عن الله، فيكون خليفة عن الله بعين ذلك الحكم»(1).

وبذلك يكون قد فضل خاتم الأولياء بأمرين؛ أولهما: أخذه عن الله مباشرة، أما خاتم النبيين فيأخذه عن الله بواسطة الملك. الأمر الآخر، هو أنه على يديه تم الدين، فابن عربي يشير بهرائه ذاك إلى الحديث الصحيح الذي مثل فيه رسول الله ما بعث به هو والأنبياء من قبله ببيت كانت تنقصه لبنة وأنه صلى الله عليه وسلم، هو الذي جاء بتلك اللبنة، يعني أنه هو الذي أتم الله به على المسلمين دينهم.

ولكن ابن عربي يزعم أن الدين كان ناقصاً لبنتين، فأتى محمد صلى الله عليه وسلم بواحدة، وأتى خاتم الأولياء بلبنة أخرى، فلم يكمل دين الله إلا على يد خاتم الأولياء! أين هذا الإفك من قول الحق جل وعلا:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [5: 3].

---

(1) ص163، 63 المصدر السابق.

لماذا فضل خاتم الأولياء؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:«ثم صاحب الفصوص وأمثاله، بنوا الأمر على أن الولي يأخذ من الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة[1].

وابن تيمية في فهمه الدقيق، ووعيه الكامل، وأمانته التي تستعصي على التهم يقرر الحق في قوله، فقد نقلت لك عن ابن عربي ما يؤيد الحق الذي قرره ابن تيمية، وها هو البسطامي يقول لأهل الشريعة:«أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»[2].

ويقول:«خضنا بحراً، وقف الأنبياء بساحله»[3].

قال ابن عربي:«علماء الرسوم – يعني أهل الشريعة – يأخذون خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة، فيبعد النسب والأولياء يأخذون عن الله، ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة منه، وعناية سبقت لهم عند ربهم»[4].

يعني أن أتباع الشريعة الإسلامية، إنما يأخذونها عن أناس طواهم الموت.

أما الصوفية فهم الصلاة المباشرة مع الله، يأخذون منه من غير واسطة ملك أو نبي أو رسول.

وذلك لأن الصوفية تدين بأن النبوة أعلى من الرسالة، وبأن الولاية أعلى من النبوة، فيكون الولي عندهم أسمى مقاماً من النبي والرسول، ولذا يقول ابن عربي:

مقـــــام النبـــــــوة في بـــــــرزخ فويــــــق الرســــــول ودون الــــــولي[5]

---

(1) ص64 رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين.

(2) ص246 الكواكب الدرية للمناوي.

(3) ص63 ج2 جواهر المعاني

(4) ص246 الكواكب الدرية للمناوي

(5) كتاب مصرع التصوف للبقاعي، تحقيق عبدالرحمن الوكيل ص173، 172 تعليق (2).

ادعاء كل شيخ من شيوخ الصوفية أنه قطب قديم وأنه الخاتم

بعد أن روج شيوخ الصوفية، أسطورة القطب الغوث[1]، وخرافة «الولي الخاتم»، ادعى كثير من شيوخهم أنه قطب قديم، بل تزعم الصوفية أن كل صوفي يستطيع أن يكون قطباً يتصرف في الوجود، يقول أحدهم وهو يبشر الصوفية بنتيجة سلوك الطريق:«وصرت أنت قطب الوجود تدور بيدك كيف شئت»[2].

وإذا كان الكاشاني قد قرر أن القطب نوعان، قطب قديم أو (معنوي) وقطب حادث أو «حسي».

فإن الشيخ الوكيل – رحمه الله – في مجلة الهدي النبوي[3] بيَّن كيف نسب كثير من الصوفية إلى نفسه أنه قطب قديم من الأزل، فكتب قائلاً: كان كثير من الصوفية ينسب إلى نفسه أنه قطب قديم منذ الأزل، فيحكي لنا الشعراني في الطبقات ما يأتي:

«كان سهل بن عبدالله التستري يقول: أعرف تلامذتي من يوم «ألست بربكم»، وأعرف من كان في ذلك الموقف عن يمني، ومن كان عن شمالي، و لم أزل منذ ذلك اليوم أربي تلامذتي وهم في الأصلاب لم يحجبوا عني إلى وقتي هذا.

وكان ابن عربي يقول:«أشهدني الله تعالى ما في العلى وأنا ابن ست سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين، وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني حرفاً معجماً حار فيه الجن والإنس ففهمته، وحركت ما سكن وسكنت ما حرك وأنا ابن أربع عشرة سنة».

والنص الأول من كتاب الطبقات يفيد أن التستري قطب الأقطاب، لأنه قديم منذ أخذ العهد، ولذلك كان يتولى رعاية تلامذته وهم في أصلابهم، وهكذا كل واحد يزعم لنفسه أنه بلغ المرتبة، ومن عجب أن يتوقح الشعراني في جرأته فيقول تعليقاً على مثل هذا الكلام حين يحكي عن الدسوقي قوله:«وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخاً في الأزل بين يدي قديم الأزل، وبين يدي رسول الله، وأن الله عز وجل خلقني من نور الرسول والتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له: يغلق النيران، وسر إلى رضوان، وقل له يفتح الجنان». يقول الشعراني تعليقاً على هذا ما يأتي:«وهذا الكلام من مقام الاستطالة، تعطي الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبدالقادر الجيلي فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح.

الدسوقي شيخ الأزل، والدسوقي خلق من نور الرسول، والدسوقي أغلق النار، الدسوقي يفتح الجنان، الدسوقي شاهد ربه في السماء، كل هذا عند الشعراني جائز لا يصح لنا مخالفته فيه إلا بنص صريح!! أرأيت أيها القارئ الكريم تلك الاستطالة الوقحة على مقام الله عز وجل، وعلى مقام كتاب الله عز وجل، وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! النص الصريح يا شعراني خمس كلمات من القرآن الحكيم قول الله للرسول

---

(1) أسطورة القطب الغوث سوف يأتي ذكرها.

(2) ص114 ج1 (الفتوحات الإلهية).

(3) مجلة الهدي النبوي عدد (2) لسنة 1386ه (ص28، 27).

صلى الله عليه وسلم – وشسع نعله بالدسوقي وأضرابه –:﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ هذا خطاب الله تعالى لسيد الخلق، وخاتم رسله، ولمن قال له:﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ولمن وصفه بأنه ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾، أفيقول لنا قائل بعد ذلك: حذار من مهاجمة الأقطاب، حذار من كرامات الشعراني!!

حذار أنتم أيها القائلون لنا ذلك!! فإن الشعراني وأضرابه يضعون أقدامكم على شفا الهاوية السحيقة الأغوار من سقر! فالشعراني بلغت به الجرأة أن يقول: لا تجوز مخالفة هذا، وأبى أن يصفها: بأنها شطحات!!

أقول ذلك لكي يعلم ضحايا الصوفية أنها ليست شطحات، وإنما هي وثنيات يصرح بها القوم، وهم في أقوى دوافع الشعور بما يقولون، وهذا هو الشعراني لا ينكرها ولا يردها، بل يدعوا إلى التصديق بها، يدعونا إلى الإيمان بأن الدسوقي وغيره بلغوا مرتبة القطبانية الكبرى، فهم يتصرفون في الكون وأقداره وأقضيته بما يشاءون.

كما جاء في كتاب هذه هي الصوفية أيضاً أن القاشاني ذكر في كتاب كشف الوجوه الغر (ص103ج2):«وقد ادعى ابن الفارض لنفسه أنه القطب القديم، وقطب الأقطاب».

فبي دارت الأفلاك، فاعجب لقبطها المحيط، والقطب مركز نقطة
ولا قطب قبلي عن ثلاث خلفته وقطبية الأوتاد عن بدلية[1]

وكما ادعى كثير من الصوفية أنه القطب القديم فقد نسب بعضهم لنفسه أنه خاتم الأولياء.



---

(1) القطب المحيط يعني نفسه، والوتد والبدل، ألقاب في مملكة التصوف وهي دون القطب، إن الصوفية متأثرة إلى حد كبير بنظرية المثل الأفلاطونية.

ادعاء كل شيخ أنه الخاتم

يقول ابن تيمية:«ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة، لا حقيقة لها، وصار يدعيها لنفسه، أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد، ولم يدعيها إلا من في كلامه من الباطل، ما لم تقله اليهود، ولا النصارى، كما ادعاها صاحب الفصوص»[1].

وحق ما يقوله شيخ الإسلام، وعهدنا به الصدق والأمانة البالغة في النقل، فابن عربي يزعم في الفتوحات المكية أنه رأى رؤيا، ثم يقول[2]:«ثم عبرت الرؤيا بانختام الولاية بي» وادعتها التيجانية لشيخها أحمد. قال أحد أتباعه في «الفصل السادس والثلاثون في ذكر فضل شيخنا وبيان أنه خاتم الأولياء وإمام الصديقين، ممد الأقطاب والأغواث...»[3].

  

- انظر كيف يفترون على الله الكذب.
- وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟
- ثم ماذا بعد الحق إلا الضلال.

  

---

(1) ص63 ومابعدها رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين.

(2) ص15، ج2، 5 رماح حزب الرحيم.

(3) ص15، ج5، 2 رماح حزب الرحيم.

عبادة الأولياء في القديم والحديث

وإنه لما يورث الحسرة والندم، أن بعض المسلمين، قد يجهل أن الإسلام دين التوحيد الخالص، قد جاء للقضاء على الأصنام، وعلى كل ما يمت إليها بأدنى صلة، أو يتعلق بها بأوهى سبب – من اتخاذها أنداداً أو وسطاء أو شفعاء، ذلك لأن فكرة الشفاعة نشأت عند الناس من ظن هؤلاء الجاهلين من أسودة الأمم والشعوب الذين عبدوا الأبطال من الأذكياء والأقوياء الممتازين بزعم أنهم يستطيعون أن ينفعوهم عند الله كما ينفعوهم عند الناس، ويقدرون على أن يجلبوا لهم الخير ويدفعون عنهم الشر.

وظن من كان منهم يؤمن بالبعث أنهم يستطيعون أن يكونوا لهم شفعاء عند الله فيردوا عنهم ما استوجبوا من العقاب بسوء أعمالهم، وبذلك نشأت عند الناس فكرة عبادة الموتى في القديم والحديث.

ولبيان فساد هذه العقيدة وبطلانها، عقد الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – مقارنة بين ما كان سائداً في الماضي وبين ما هو واقع في الحاضر، ومن خلالها تطرق الحديث عن الديانات والعقائد التي كانت منتشرة بين الأمم السابقة، وما هو قائم في حاضرنا، فكتب في كتابه «هذه هي الصوفية»[1] عن قضية التوسل بالقبور، وعرض لقول بعض المستشرقين من أمثال جولد زيهر الذي يقول:«بقي كثير من عناصر الديانات السابقة للإسلام، واستأنفت حياتها في المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء، وفي الحق ليس شيء أشد خروجاً من السنة القديمة، من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته، وإن السني الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه».

ويستطرد جولد زيهر في حديثه عن تقديس العامة للأولياء، فيقول:«وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى هي موضع عبادتهم التي يرتبط بها أحياناً ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات، بل إن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة»، أما عن الولي المحلي فيقول:

«ويخشى الواحد منهم أن يحنث في يمين حلف فيه باسم الولي أكثر مما يحمر خجلاً عندما يحلف بالله باطلاً»[2].

واستكمالاً لهذا الحديث: نشر الشيخ الوكيل في «مجلة الهدي النبوي»[3] مقالاً عن بعض صور المعتقدات للبشرية في تاريخها السحيق، وكيف أن ضلالة البشرية متصلة الأسباب، فقد ترقى في معارفها إلى ما هو الأرفع والأعظم، ولكنها في معتقداتها التي لا تنتسب إلى هدي النبوة تتخبط إلى الدرك الأسفل، فالبشرية هي هي في خرافاتها وأساطيرها.

---

(1) هذه هي الصوفية (ص125).

(2) النصوص السابقة (ص232، 234) العقيدة والشريعة.

(3) مجلة الهدي النبوي عدد 7 سنة 1384هـ.

وإن الأمثلة على ذلك كثيرة؛ خاصة ما كانت الأمم السابقة تعتقده من ديانات أهمها ما كان في مصر القديمة، وسومر وبابل، وبلاد اليونان، وما نتج عن تلك العقائد الفاسدة من تعدد الآلهة، وتقديم القرابين لها من مال وطعام وأزواج، وكيف أثرى الكهنة من سدانة هذه الآلهة الباطلة، وصاروا أكثر الطبقات مالاً وأعظمها قوة.

وقد خلص رحمه الله في الحديث عن عبادة الموتى، إلى أن الأمم السابقة قد اتخذت لها مع الله آلهة أخرى كثيرة، وما كانت هذه الآلهة سوى الأولياء والصالحين، وأنه كان لكل إله من الآلهة أسطورة، أي قصة متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة، أو تفسر الطقوس التي تقام تكريماً له.

عبادة الموتى:

«كانت الموتى – في اعتقادهم – كائنات مقدسة، وقد خلع القدماء عليهم ما كانوا يجدونه أكثر الألقاب احتراماً، وكانوا يسمونهم الطيبين والقديسين والسعداء، وكانوا يكنون لهم كل التبجيل الذي يستطيع الإنسان أن يكنه للمعبود الذي يحبه، ويخشاه، فكل ميت في فكرهم إله، وإنا لنجد عبادة الموتى هذه عند الإغريق وعند اللاتينيين، والأتروسك كما نجدها أيضاً عند الآريا القاطنين في الهند، وكان الهندي كالإغريقي يعتبر الموتى كائنات إلهية تتمتع بوجود سعيد، بيد أنه كان هناك شرط لسعادتهم، وهو أن تحمل الأحياء القرابين بانتظام، فإذا ما انقطع حمل السر إذاً لميت، فإن روح هذا الميت تخرج من مسكنها الهادي، وتصبح روحاً هائمة على وجهها تعذب الأحياء، فإنه إذا كانت أرواح الأسلاف آلهة فإنما يكون ذلك على قدر ما يكرمها به الأحياء من عبادة».

كانت للإغريق والرومان نفس العقائد بالضبط، فإذا انقطع تقديم الفداء الجنائزي للموتى، فإن الموتى يخرجون فوراً من قبورهم أشباحاً هائمة يسمعها الناس متأوهة في الليل الساكن، وهي تلوم الأحياء على إهمالهم الآثم، وتحاول أن تعاقبهم، فترسل عليهم الأمراض، أو تصيب الأرض بالجدب، إذا كان الميت الذي يهملونه كائناً شريراً، فإن الميت الذي يكرمونه إله واحد يحب الذين يحضرون له الفداء، وفي سبيل حمايتهم يستمر على المشاركة في شئون الإنسان، وكثيراً ما يقوم فيها بدور خاص، ومع أنه ميت، فإنه يعرف كيف يكون قوياً ونشيطاً، فكانوا يرجونه، ويلتمسون تأييده وعطفه، وعندما يجد أحدهم في طريقه قبراً كان يقف، ويقول: أنت الذي هو إله تحت الأرض، عطوفاً عليَّ.

ويمكن أن نحكم على السلطان الذي كان يعزوه الأقدمون للموتى من هذا الدعاء الذي وجهته إليكترا إلى روح والدها:«كن رحيماً بي، وبأخي أوريستيس، دعه يعد إلى هذه البلاد، اسمع دعائي يا أبتي، تقبل رجائي، وأنت تتلقى ما أقدمه من السوائل المهراقة». ولا تفتقر هذه الآلهة القوية على منح المنافع المادية، إذ أن إلكترا تضيف: «وهب لي قلباً أعف من قلب أمي، ويدين أطهر من يديها، ويبدو أن ديانة الموتى هذه هي أقدم ديانة،

فقد عبد الإنسان الموتى قبل أن يتصور «إندار» أو «زوس» ويعبدهما، وخاف منهم، ووجه إليهم صلواته». دي كولانج.

ويقول ول ديورانت في كتابه مباهج الفلسفة عن عبادة الأسلاف:«أصبح الأقوياء في حياتهم مخوفين بعد موتهم، الحق إن هذا الخوف من الموتى أصبح أعظم قوة مؤثرة في الديانة البدائية، وكان لابد من استرضاء أشباح مثل هؤلاء الرجال ذوي القوة الهائلة، وأصبحت الطقوس الجنائزية الممنوحة لهم أول صور الاحتفالات الدينية لتمجيد ذكراه وشرفه وعمله، وقد أخذت جميع صور تمجيد الإله من شعيرة العبودية للرؤساء في الأرض، مثل رفع الأيدي، والسجود، والركوع والتعظيم وغير ذلك[1]، وإلى هذا اليوم لا يكمل أي مذبح كاثوليكي لا يضم رفات بعض القديسين[2]. وكان الإغريق ومعظم الشعوب القديمة تتوسل إلى موتاها، كما يتوسل المسيحيون بالقديسين.

وتحت عنوان:«الإله الميت» كتب نفس المؤلف[3] يقول:«إن فكرة البشرية عن الله في تغير دائم، حقاً يمكن أن يدون تاريخ الإنسانية في صنع من تجسدات الله نعني الموت المتكرر لإله قديم حتى يفسح الطريق لآلهة قد تمثل أخلاقاً ومثلاً عليا أرقى في جنس يتطور وسيبلغ منك العجب مبلغه حين تطلع على الآلهة المتعددة مما كان الإنسان يعبدها بين حين وآخر على أنها أبدية، فالآلهة الكبرى تبلغ المئات، والصغرى تبلغ الملايين، ولو أمكن للأجيال الماضية أن تعود إلى ظهر الأرض لافتضح أمرها حين تعلم أن آلهتها حتى القادرة على كل شيء والتي كانت تتقرب إليها بالصلاة إنما يعرفها اليوم علماء الأنثروبولجيا فقط، وقد أول كل شعب في كل عصر الله على هواه، وكان راغباً في الموت، أو على الأقل في القتل للدفاع عن ذلك التصور العابر»[4].

تجمع هذه النصوص التي تحتفي بالصدق واليقين في أكثر ما ذهبت إليه على أن كثيراً من الأمم العريقة قد اتخذت لها مع الله آلهة أخرى كثيرة، وما كانت هذه الآلهة الكثيرة سوى الأولياء أو القديسين، ولئن كانت الإنسانية في تاريخها الغابر قد سمتهم آلهة، ووصفتهم بصفات الله، فإن الإنسانية في عصور مدنيتها ظلت تنسب إلى الأولياء صفات الله سبحانه، فما غير شيطان الضلالة من الحقيقة حتى اسمها؛ بل إن التصوف المعتق قد سمى الأولياء أرباباً وآلهة، فوق أنه وصفهم بصفات الله، وحكم بأنهم عين ذاته، وهوية هويته!!

---

(1) ولم لا يقول: إن جميع صور تمجيد البشر مأخوذة عن تمجيد الله فقد عرفت الإنسانية السجود لله منذ البدء ثم جاءها الشرك بعد هذا.

(2) هذا بعينه يفعله من يزعمون أنهم ينسبون إلى الإسلام اليوم.

(3) يعني ول ديورانت صاحب كتاب قصة الحضارة.

(4) اقرأ النصوص السابقة على التوالي فيما يأتي ص278، 298، 321 مصر لأدولف إرمان، وهرمان رانكة «مترجم»، ص29، 213، ج2 قصة الحضارة «الشرق الأدنى» لول ديورانت «مترجم» (ص318، ج1، م2) قصة الحضارة أيضاً (ص21 – 27) المدينة العتيقة لفوستيل دي كولانج «مترجم» ص211، 262، ج2، مباهج الفلسفة لول ديورانت.

كل ما يجادل في شأنه عبد الأولياء هو أن أسلافهم المشركين سموا الأولياء آلهة، أما هم، فلم يسموهم آلهة بل أولياء!!

وهذا الجدل مأفون الضلالة محموم الخداع والنفاق؛ فإنهم ينسبون إلى الأولياء قدرة الله القاهرة، ومشيئته التي لا ترد، وعلمه المحيط بكل ظاهر وباطن، وغناه الذي لا تنفذ خزائن ملكه، وإلا ما توجهوا إليهم بضراعات القلوب، ودعوهم فيما هو من شأن القدرة الإلهية، ومشيئتها ورحمتها.

وعباد الأولياء يقترفون جريمتين؛ الأولى: أنهم يسألون أولياءهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، والأخرى: أنهم يسألون الأولياء أكثر مما يسألون الله، وإن سألوا الله أقسموا عليه بالموتى، بل إنهم ليطلبون من الله أن يكون شافعاً لهم عند عبيده الذي قهرهم دود التراب وسوس القبور!! فمن دعائهم:«شيء لله يا سيد»، ألا ترى – فوق ما مضى – أنهم يطلبون من السيد أن يعطيهم لله شيئاً!!

لقد جمع صندوق «السيد»[1] في أسبوع مولده ذات مرة قرابة ثمانية آلاف من الجنيهات، فماذا جمع الذين يطلبون من الناس زكاة الله في عام؟!!

ولقد هدم أحد المحافظين مسجداً من أجل تنظيم أحد الشوارع، ولكنه أبقى على الضريح القائم في منتصف هذا الشارع نفسه خشية من صاحبه!!

أما تجد نوع خاص من الأطعمة للآلهة، فقد بقي كما هو، فللسيدة في مصر الفول، وللسيد البدوي في طنطا العجول!!

ويقول تاريخ البشرية القديم أنه كان لكل مدينة معبود خاص، ويقول تاريخ البشرية الحاضر أنها ما زالت على سخف ضلالتها هذه، فلطنطا السيد البدوي، وللإسكندرية أبو العباس المرسي، ولدسوق إبراهيم الدسوقي، ولقنا عبدالرحيم القنائي، وهكذا!! وبجوار هؤلاء تقوم أضرحة صغار الأولياء!!

ويحدثنا تاريخ البشرية العتيق عن الحفلات المهيبة المرحة التي كانت تقام للآلهة، ويحدثنا واقع بشريتنا الآن أن هذه الحفلات الصاخبة الماجنة العربيدة ما زالت تقام للأولياء، وهي التي يسمونها موالدها، ولا ينكر هذا إلا جماد لا يشعر بما حوله.

ومن تراث البشرية تلك الأساطير التي تقص سبب وجود الإله أو القديس، وعلى ما يقام له من طقوس، ونحن أيضاً نقرأ هذه الأساطير في كتب الشعراني وغيره!!

وهكذا يؤكد واقع هؤلاء، ولتتأمل قول الله سبحانه:﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7].

---

(1) إذا قيل «السيد» عند أهل مصر فإنه لا ينصرف إلا إلى «البدوي» كقولهم: عجل السيد، خروف السيد، حمص السيد، وهكذا.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44].

ولتتدبر وصف الله لهم بأن القرآن عليهم عمى!! ثم تدبر قوله سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 25].

وتدبر تاريخ البشرية العتيق في ضلالتها، وتاريخها الحاضر في حاضرها، ثم اقرأ قول الله سبحانه: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53]، فإن شرك الأسلاف عين شرك الأخلاف.

  

أنواع الكرامات عند شيوخ الصوفية

لقد سجل بعض المستشرقين كثيراً من المخازي التي يقترفها الصوفية على أنها هي الإسلام، والإسلام منها بريئ، فمثلاً نجد مستشرق إنجليزي يسمى «لين» يذكر في كتابه «المصريون المحدثون» قوله:

«ويزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سيتزلون عليهم بالبركات، وإما بقصد البرء من مرض، أو طلب النسل، ويعتبر المسلمون أولياءهم شفعاء لهم عند الله، ويقدمون لهم النذور». اه.

ثم نراه يحمل المسلمين أوزار الصوفية فيقول:

«وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون كما يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها وتغطية التركيبة أو التابوت أحياناً بغطاء جديد، وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود».

ويعلل جوتييه ذلك بقوله:«وتقديس الأولياء إلى درجة تقرب من العبادة الذي نراه، انتشر بعد في جميع الأقطار الإسلامية، يشير في الحقيقة إلى رد فعل من الأمم والشعوب التي فتحها الإسلام ضد العقلية الإسلامية التي لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدى الله».

وفي معرض الحديث عن هذا الخزي الصوفي يقول فضيلة الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – متحسراً على الإسلام:

«لا يسوءنا أن يسجل هذه المخازي أولئك المستشرقون ويحملوها المسلمين جميعاً، ولكن الذي يجب أن نخزى به، هو أن ندع هؤلاء الصوفية يقترفون هذه الجرائر فيكيد للإسلام بها عدوه، ويرمي المسلمين جميعاً بالحماقة والغباوة وعبادة الأساطير».

وإنك لتعجب أشد العجب إذ تجد معظم شيوخ الصوفية لكي ترسخ عقيدة تقديس الموتى عند القبوريين، يكثيرون من ذكر الكرامات التي نسبوها إلى موتاهم أو سابقيهم من الأموات، مما يستحيل أن يقبله عقل، فضلاً عن أن يقره دين أو شرع؛ إذ أن أول ما يذكرون من كرامات شيوخهم هو إحياء الموتى، أو رد البصر، أو المشي على الماء، وكلام البهائم، وحسبك في هذا المقام أن تقرأ ما كتبه الشيخ الوكيل في كتابه «هذه هي الصوفية» نقلاً عن «المناوي» و«الكلاباذي» و«الكوهني» وغيرهم، إذ يقول:«يزعم المناوي أن للصوفيين أنواعاً من الكرامات[1]:

النوع الأول: إحياء الموتى، وهو أعلاها، فمن ذلك أن أبا عبيد اليسري غزا، ومعه دابة، فماتت، فسأل الله أن يحييها، فقامت تنفض أذنيها، وأن مفرجاً الدماميني أحضر له فراخ مشوية فقال: طيري بإذن الله تعالى، فطارت، ووضع الكيلاني يده على عظم دجاجة أكلها، وقال لها: قومي بإذن الله، فقامت، ومات لتلميذ

---

(1) كتاب هذه هي الصوفية من (ص142 إلى 150).

يوسف الدهماني ولد، فجزع عليه، فقال له الشيخ: قم بإذن الله، فقام وعاش طويلاً، وسقط من سطح الفارقي طفل، فمات، فدعا الله فأحياه»[1].

نفس المعجزات التي منَّ الله بها على إبراهيم وعيسى عليهما السلام، وعلى الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها!! ويقول الكلاباذي:«أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، كالمشي على الماء، وكلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه»[2]، وقد نظمها حسن رضوان:

وإن تجلى جل شأنه على	وليه بقدرةٍ تجملا
وشاهد الأشياء تحت قبضته	وأنها تكونت من قدرته
شهود غيب، غير أنه ظهر	عليه منه في الشهادة الأثر
ومن هنا أحوال أرباب الهِمم	كمشيهم فوق المياه بالقدم
أو الهواء، أو على السحاب	أو طي أو خبز من التراب
أو غير هذا من أمور خارقه	لعادة، والشرط أن توافقه[3]

ومن هنا دانت الصوفية بأوليائهم لهم:«التصرف العام والحكم الشامل العام في جميع المملكة الإلهية، وله بحسب ذلك الأمر والنهي والتقرير والتوبيخ والحمد والذم»[4].

ويتحدث الكوهني عن معجزات سلامة الراضي:«حملت إحدى زوجات الإخوان، وفي التاسع مات الجنين، وبقي عشرة أيام ميتاً ببطن أمه، وعند الوضع ذاكر هذا الأخ شيخنا، فقال: كذلك يا فلان؟ وبتمامه تم الوضع طبيعياً كأن لم يكن هناك وليد مات منذ عشرة أيام، وأحد الإخوان كف بصره، فذاكر حضرة الأستاذ، فقال له: إن كتمت الأمر، أبصرت، فرضي بالشرط فمسح على عينيه، فأبصر، وكان لبعض وجهاء بندر الجيزة ابنة وحيدة أصابتها حمى، بعد شفائها، خرست فلم تتكلم أبداً، فعرضوها على الأطباء سنوات فلم تشف، فأحضروها لشيخنا، ونظر إليها نظرة، فسألها عن اسمها، فنطقت به، وذهب خرسُها في الحال»[5].

نفس المعجزات التي مَنَّ الله بها على عيسى عليه السلام.

وهكذا تدين الصوفية بأن من أوليائها من يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وكثير من هؤلاء الذين نسبت إليهم تلك القدر الإلهية طائفة تمردت على الله تمرد الشيطان.

---

(1) ص11 الكواكب الدرية لعبدالرءوف المناوي – ط 1938م.

(2) ص44 التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي – ط 1933م.

(3) ص229 روض القلوب المستطاب.

(4) ص79 ج2 جواهر المعاني للحرازم.

(5) ص258 طبقات الشاذلية الكبرى للحسن بن محمد الكوهني الفاسي، وقد ألف كتابه في حياة شيخه الذي مات من عهد قريب جداً.

الصوفية يملكون كلمة التكوين

تزعم الصوفية أن شيوخها يقولون للشيء: كن، فيكون، فيتحدث أحدهم عن الولي الذي استخلفه الله، فيقول:«إنه خليفة يملكه الله كلمة التكوين متى قال للشيء، كن، كان من حينه»[1].

ويقول أبو السعود:«إن الله أعطاني التصرف منذ خمس عشرة سنة وتركناه تظرفاً»، ويعلق ابن عربي على هذا بقوله:«وأما نحن، فما تركناه تظرفاً وإنما تركناه لكمال المعرفة»[2].

ترى ماذا كان يعمل الله وأبو السعود يتصرف في الوجود؟ هكذا يجعل الصوفية أولياءهم شركاء الله.

  

(1) ص8 ج2 جواهر المعاني لعلي بن حرازم.

(2) ص129 ج1 فصوص – ط الحلبي.

معجزات الرسل من قدرة الله

أما رسل الله، فما كانت معجزاتهم طوع أيديهم، كما تزعم الصوفية لشيوخها، ولا بأمرهم، وإنما كانت بيد الله وحده، وبأمره؛ يكرم بها نبيه متى شاء سبحانه، لا متى شاء الرسول، ما ضرب موسى بعصاه الحجر، أو البحر بأمره، وما انفلق البحر بقدرته، وإلا ففيم كان خوف موسى من أن يدركه فرعون وجنوده، لو أنه كان حتى على ظن من قدرة عصاه على فلق البحر؟!

بل لماذا مسته رعدة الخوف حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، حتى ثبته الله بقوله:﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: 68]، أهذه آية قدرة على صنع المعجزات؟ أم هو العجز البشري يضرع في صدق إلى قدرة الله المنقذة؟

وما نزل جبريل بالقرآن على محمد بأمره، أو إرادته، بل بأمر الله وحده وإرادته:﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 19].

وتدبر، يتجل لك الهدى بيناً من قوله سبحانه:﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، ما قالها إبراهيم، وإنما القائل لها — لأنه القادر عليها — رب إبراهيم عليه السلام، فأين هذا من زعم الصوفية، أن شيوخها يصرفون أقدار الوجود بنزغات الهوى، وعواء الشهوات؟! ويقولون للشيء كن، فيكون!! تعالى الله عما يأفك الخراصون علواً كبيراً.

ثم ماذا يستفيد الخلق من دجاجة يردها الكيلاني إلى الحياة؟ ومن دابة يحيي اليسري منها العظام وهي رميم؟! ومن كرامات الحربثي ووحيش يقترفان بغي الجريمة على مدرجة الطريق؟!

إن الصوفية — كما رأيت — قد حكمت بأن معجزات أولي العزم من الرسل طوع الهوى من البُلْه الخَرْقي المشعبذين من أوليائها! فماذا يمنع أدعياء الصوفية من الزعم بأن الله سبحانه أوحى إليهم قرآناً، كما أوحى إلى محمد[1]، ما دامت الصوفية تحكم بأن معجزات الرسل أثارة من قدرة المعتوهين، ومقترفي الإثم والخطايا؟ بل ما دمتم يا كهنة الصوفية قد حكمتم بأن لأوليائكم حياة كحياة الله، وقدرة قهارة شاملة، كقدرته، فالله سبحانه يقول:﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: 77، 78]، ولقد زعمتم أن إحياء العظام وهي رميم من قدرة أوليائكم؟ ولا ريب في أن من يقدر على أن يهب لغيره الحياة، قادر على أن يهب الديمومة لنفسه، والخلود الأبدي لحياته، وإلا فكيف يهب لغيره ما لا يهب، أو يستطيع أن يهبه لنفسه؟!

  

(1) ادعاها ربيب الصوفية ميرزا محمد علي الملقب ب «الباب» ومن بعده مسيلمة ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء، وادعاها غلام أحمد القادياني!!

سماع نطق الجمادات

يعدد ابن عربي أنواع الكرامات فيقول: ومنها سماع نطق الجمادات على مراتب نطقها في العوائد وخرقها[1]. والله يقول:﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، فهل نصدق المفتري لنكذب الله سبحانه؟!

«ومنها مكالمته الملأ الأعلى ومحادثته لهم»، وقد أخذها ابن عربي عن أستاذه الغزالي، وزاد هذا عليها، فقال: إن الولي ينادي من سرادقات العز، كما نودي موسى!!

وإذا كان أحد الصوفية قد قال:

«إن القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا، فإننا نجد البسطامي يفتري:

«وتالله، إن لوائي أعظم من لواء محمد»[2].

ويقول «لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة»[3].

ويخاطب صوفي ربه فيقول:

«إن قوماً طلبوك، فأعطيتهم طي الأرض، والمشي على الهواء، وكنوز الأرض، فانقلبت لهم الأعيان».

والبيومي[4] يزعم أنه رأى الشيخ دمرداش في السماء، وأنه قال له: لا تخف في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه كان يرى النبي في الخلوة، وأنه سمعه يقول لأبي بكر: اسع بنا نطل على زاوية دمرداش، وأنه دخل على السيد البدوي، ورأى النبي عنده، وأنه خشي أن يكون واهماً في رؤية النبي، فرأى الدمرداش عند ضريحه يقول له: مد يدك إلى النبي فهو حاضر عندي[5]!

  

---

(1) ص75 مواقع النجوم لابن عربي ط 1325ه.

(2) عن الصنهاجي والشعراني في لطائف المنن، ص125 نقلاً عن شطحات الصوفية للدكتور بدوي.

(3) المصدر السابق.

(4) علي بن حجازي بن محمد البيومي، توفي سنة 1183ه.

(5) ص320 ج1 عجائب الآثار للجبرتي.

صوفي يضمن الجنة لمن يطعمه

يزعم طاغوت التيجانية الأول ما يأتي:«أخبرني سيد الوجود يقظة، لا مناماً: كل من أحسن إليك بخدمة، أو غيرها، وكل من أطعمك يدخلون الجنة، بلا حساب، ولا عقاب، فسألته لكل من أحبني، ولكل من أحسن لي بشيء من مثقال ذرة، ومن أطعمني طعامه، كلهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب وسألته لكل من أخذ عني ذاكراً، وأن تغفر لهم جميع ذنوبهم، ما تقدم منها، وما تأخر، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة، وأن يكونوا كلهم معي في عليين في جوار النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: ضمنت لهم هذا ضمانة، لا تنقطع، حتى تجاورني، أنت وهم في عليين»[1].

والله سبحانه يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم:﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56]، ويقول محمد صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة:«اعملي فإني لن أغني عنك من الله شيئاً»، وتشهد امرأة جليلة لصحابي عند موته بقولها: أشهد أن الله قد أكرمك، فيقول لها رسول الله معاتباً، يضع الصواب مكان الخطأ: وما يدريك أن الله قد أكرمه؟ وإني لأرجو له الخير، والله إني لرسول الله، ولكني لا أدري ما يفعل بي غداً؟

أما التيجاني لقد قرأت قوله، فبم تحكم عليه، غير أني أضع إصبعك على قوله:«وكل من أطعمك» لأريك مبلغ حرص الصوفية على انتهاب أقوات الناس؟

  

(1) ص97 وما بعدها ج1 جواهر المعاني في فيض التيجاني لعلي حرازم.

قلب الصوفي أوسع من عرش الله!!

يقول البسطامي:«لو أن العرش، وما حواه مائة ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف، لما أحس به، فقلب العبد الخصوصي بيت الله، وموضع نظره، ومعدن علومه، وحضرة أسراره، ومهبط ملائكته وخزانة أنواره وكعبته المقصودة، وعرفاته المشهورة»(1).

  

الملكوت في بطن صوفي

والدباغ الفاطمي الهدف يقول:«إني أرى السماوات السبع والأرضين السبع، والعرش داخله وسط ذاتي، وكذا ما فوق العرش من السبعين حجاباً»(2).

كرامات شتى

واقرأ في طبقات المناوي زعمه أن الصوفية يخاطبون الموتى، وأن جده خاطب الشافعي رضي الله عنه في قبره، وأن روح «ذا النون المصري كانت تدبر أجساماً عدة، وأن الخواص كانت تتزل عليه الموائد من السماء، وأن الخضر كان يسبقه(3).

واقرأ «للسلمي» زعمه أن داود والخضر لقيا إبراهيم بن أدهم وخاطباه، وأكلا معه، وعلماه اسم الله الأعظم(4).

وكذلك من المفتريات الكاذبة، ما يفتريه بعض شيوخ التصوف من أن الجنة والنار بين يديه، فمن ذلك ما يزعمه الدسوقي «أنا بيدي أبواب النار أغلقها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس وما كان ولي متصلاً بالله، إلا وهو يناجي ربه، كما كان موسى يناجي ربه»(5).

  

---

(1) ص120 ج2 فصوص الحكم لابن عربي – ط الحلبي – ص141 مواقع النجوم.

(2) ص73 ج2 الإبريز للدباغ.

(3) زعم الدباغ أن روح القطب تدبر ص366 جسداً.

(4) ص30، 34، الطبقات للسلمي، ص8 الرسالة للقشيري.

(5) اقرأ ترجمة الدسوقي في الطبقات للشعراني.

المحبة

الحب ودلائله في القرآن:

ذكر القرآن الكريم المحبة صفة لله تعالى، فقال سبحانه:﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 223]، وقال تعالى:﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: 21].

وفي الحديث:«من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»[1].

فوصف الله نفسه بأنه يحب، ووصف المؤمنين بأنهم يحبونه، وصفة المحبة من الصفات الخبرية التي ورد بها السمع في الكتاب والسنة، وكانت محل خلاف بين علماء الكلام من معتزلة وأشاعرة، فمنهم من نفاها مطلقاً كالمعتزلة، ومنهم من تأولها بالإرادة كالأشاعرة.

أما سلف الأمة فهم يثبتونها كما وردت في القرآن والسنة بدون تأويل ولا تعطيل، وتأكيداً واتباعاً لهذا المنهج الإسلامي لسلف هذه الأمة كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – عن مفهوم حب المؤمنين الصادقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحبهم لأولياء الله المخلصين، يقول[1]:

نحن نحب خاتم النبيين بهذه الصفة التي شرفه الله بها وهي أنه رسوله وخاتم أنبيائه، فحبنا للرسول صلى الله عليه وسلم يجب أن ننظر إليه على أنه تابع لحب الله سبحانه، ونبع من حبه جل شأنه، وأن نعتقد أن حبنا الصادق له هو في اتباع ما أوحاه الله إليه، ومن أحبه بغير هذه الصفة أو بغير هذه الروح، فهو دعي حب، وحلس أوهام!!

ونحب أولياء الله لأنهم أولياء الله، لا لأنهم على، أو محمود إبراهيم، بل لصفة فيهم جعلتنا نحبهم تلك هي:«ولايتهم لله سبحانه»[2].

فمن أحبهم لذواتهم، لا للصفة التي أوجب الله علينا بها حبهم فهو عابد أوثان.

ثم يخلص الشيخ عبدالرحمن الوكيل إلى الفارق بين ذلك الحب الصادق للرسول صلى الله عليه وسلم، ولأولياء الله، وبين ما يدعيه أولئك الذين يزعمون أنهم يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، بينما هم يناهضونه ويخالفون سنته فيما يعتقدون ويعملون!!

فيقول – رحمه الله –:«يظنون أن حبهم له يفرض عليهم هذا الاعتقاد الوثني فيه، يفرض عليهم أن يؤمنوا بأنه النور الأزلي القديم، الذي خلق منه وباسمه كل شيء أو هو الحقيقة التي تعينت فيها الذات الإلهية».

أهذا حب، أم شرك بالله رب العالمين؟

ثم يستطرد قائلاً: ليتدبر الظانون أنهم يحبون أولياء الله، على حين يعتقدون فيهم أنهم شركاء لله، يعتقدون أن لهم التصرف في ملكوت الله، والقيام على حفظه والهيمنة على إرادة الله وقضائه وقدره.

---

(1) كتاب: من قضايا التصوف، تأليف دكتور محمد السيد الجليند ص57.

(2) انظر كتاب قضية الأولياء ومحبتهم: إعداد فتحي عثمان.

لئن كان هذا يسمى حباً، فإني أسأل: أين حقد الشرك وطغيانه؟ وأين سوء الكفر وبهتانه؟

وعن صفات الذين يحبهم الله، وعن النعم التي أعدها الله لهم في الدنيا والآخرة يقول الشيخ الوكيل – رحمه الله – في مجلة الهدي النبوي[1]:

«من يحبهم الله: ولقد بيَّن لنا الله سبحانه صفات من يحبهم على وجه الإجمال والتفصيل، فهو يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المقسطين، ويحب الصابرين، وقد فصل القرآن صفات هذه الزمر الكريمة التي يحبها الله، فلتتدبر صفاتهم في الكتاب المبين؛ لنسلك على وضح نفس السبيل الكريم السوي الذي سلكوه، وكما بيَّن الله صفات من يحبهم، فإنه سبحانه بيَّن صفات من لا يحبهم؛ ليكون المؤمن على بينة مما يحبه الله، ومما يبغضه الله، وممن يحبهم الله، ومن يبغضهم الله، وقد ذكر لنا سبحانه في القرآن أنه لا يحب الكافرين، لا يحب الظالمين، لا يحب المعتدين، لا يحب المستكبرين، لا يحب الفرحين، لا يحب المسرفين، لا يحب الخائنين، لا يحب المستكبرين، لا يحب المفسدين، فليتدبر المؤمن صفات هؤلاء وغيرهم ممن لا يحبهم الله، ليتجنب مهالكهم، ليكون جديراً بحب الله.

ثمرة الحب وثوابه: لقد مَنَّ الله على عباده، فأثابهم على حبهم له بحبه لهم، وهل هذا إلا الثواب الأعظم، وهل فوقه من ثواب؟! ولن نتحدث عن كيفية حب الله وكنهه، فحبه تعالى ليس كحب البشر، غير أننا يجب أن نؤمن بأن الله سبحانه يحب أولياءه، أما كيف يحب؟ هذا ما لا سبيل إلى البيان عنه، أو إلى استشراف العقول إلى سماء قدسه وجلاله.

وفي الصحيحين:«إذا أحب الله العبد دعاء جبريل، فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» يا لجمال الثواب وجلاله!!

يحب الله عبده، ويأمر صفوة أوليائه أن يحبوه، ويلهمهم حبه، ويرعاه بالخير الأكبر في معاشه ومعاده، هذا الثواب الأعظم يجزى به من يحب الله سبحانه، وما من إنسان له عقل أو قلب إلا ويؤمن أنه ربح الدنيا وربح الآخرة.

نعم الحب الإلهي: وإذا أحب الله عبده منَّ عليه بأعظم النعم في دنياه وفي أخراه:

محب الله لا يضل ولا يشقى ولا يمسه خوف ولا حزن:﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [20: 123]، وقال تعالى:﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [7: 35].

محب الله مغفور له: إن محب الله قد يمسه طائف من الشيطان، فيتذكر، فيبصر السبيل القويم الذي كان قد انحرف عنه، فيعود مسرعاً إليه منيباً تائباً، وإنه لبر فياض ورحمة سابغة فياضة أن لا تبعد المحبين ذنوبهم عن محبة الله جل شأنه:﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [3: 31].

---

(1) مجلة الهدي النبوي عدد 1 لسنة 1383هـ.

تفتح عليه بركات من السماء:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [7: 96].

أمره ميسر، وله من كل مخرج مأزق مخرج:﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [65: 3، 4].

لا يضره كيد عدو له:﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [3: 120].

يهب الله الحكمة والفرقان الذي يفصل به بين الحق والباطل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [8: 29].

حياة تفيض بالبركة، وقلب مطمئن تغمره السكينة، ونجاة من كل ضيق، وتيسير لكل أمر، ووقاية من كل عدو، وإلهام من الله يسدد عقله وفكره ورأيه، وسلوكه في الحياة، هذه بعض نعم الله على من يحبهم.

الله معه: ونستطيع أن نجعل كل هذه النعم الجليلة العظيمة من أنوار هذه النعمة العظيمة التي هي المعية:﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [16: 128].

لهم ما يشاءون عند ربهم:﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين﴾، إننا لا نرى في المثل العليا التي تحلم بها البشرية، ولا في القيم السامية التي يقدسها الحالمون بالمدينة الفاضلة ما يأذن بتصور مثل هذه الحقيقة التي قررها القرآن، والوعد الذي وعد به أحباب الله، هل نتصور أن ملكاً عظيماً واسع الملك فياض الرحمات يقول لمواليه في حب: لكم ما تشاءون عندي؟ أنتصور أن يرفع مشيئتهم فوق هذا الأفق الرفيع؟!

ولله سبحانه المثل الأعلى.

نحن لا نتصور مثل هذا بمقاييسنا نحن البشر إلا ونحن على ذروة الخيال الفنان المبدع ولكن رحمة الله سبحانه فوق ما تتصور!!

ألم تر كيف وهب الله لأحبائه هذه المنة، ورفع مشيئتهم فوق قمة هذه الذروة المقدسة، إنها ليست منة ملك على بعض الناس، وإنما هي منة ملك الناس، إله الناس، قيوم السماوات والأرض.

من نعم حب الله في الآخرة: جنة عرضها السماوات والأرض، مقام أمين في جنات وعيون، مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [3: 123]، وقال تعالى:﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [44: 51]، وقال تعالى:﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [54: 55].

هذه بعض منن الحب الإلهي، حب الله لعبيده إذا أحبوه.

الخلة: أما الخلة فهي كمال المحبة، أو هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه[1] حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

قال الشاعر:

قـد تخللـت مسـلك الـروح مـني ... ولـذا سمـى الخليـل خليـلاً

وقد نال مرتبة الخلة إبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [125:4]، وقد ورد في الصحيح قول الرسول صلى الله عليه وسلم:«إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»، «ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن».

ويقول ابن القيم في مدارج السالكين:«وهما – أي هذان الحديثان – يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه». ثم يقول عن مرتبة الخلة إنه نفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم.



(1) قال الراغب في مفرداته:«الخلة المودة، إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها، وإما لأنها تخل النفس، فتؤثر فيه تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها». وقال ابن فارس: في معجمه:«الخاء واللام أصل واحد يتقارب فروعه، ومرجع ذلك إما إلى دقة أو فرجة». ثم قال: فأما الخليل الذي يخالك، فمن هذا أيضا كأنما قد تخاللتما كالكساء الذي يخل.

العشق عند الصوفية

يطيب لبعض الصوفية أن يطلق لفظ العشق بديلاً عن لفظ المحبة، فما صحة جواز ذلك في جنب الله؟ وما مدى مشروعيته؟

لفظ المحبة[1] لفظ قرآني، أما لفظ العشق أو الشوق، فهي قد تصلح للتعامل بها بين البشر.

ولفظ العشق في جنب الله تعالى لا يجوز استعماله ولا وصفه به، لا عاشقاً ولا معشوقاً، ويعلل أبو علي الدقاق ذلك بأن لفظ العشق يحمل معنى تجاوز الحد في المحبة، ولقد خرج بعضهم بلفظ المحبة عن مدلوله الشرعي إلى ألفاظ رمزية، وغلوا في ذلك حتى خرج بعضهم عن المحبة المشروعة إلى ألوان من الفناء، الذي انتهى ببعضهم إلى الحلول والاتحاد فكان حالهم بدعياً، لا شرعياً، ولقد تطور مفهوم المحبة عند كثير من الصوفية، وزاد بعضهم في استعمال الرمز والتعمية، حتى أن الكلاباذي وهو من كبارهم صرح في كتابه «التعرف» بأن للقوم عبارات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم[2].

ويقسم السراج في كتاب «اللمع» الحب عند الصوفية إلى ثلاثة أقسام:

1- محبة العامة.

2- محبة المتحققين.

3- محبة العارفين[3].

على أنه مما لفت نظر الشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه الله واسترعى انتباهه في كتابات الصوفية، استغراق بعضهم في ذلك الفهم الخاطئ والبدعي غير الشرعي لمعنى المحبة، فراحوا يستعملون كلمة العشق بدلاً منها، وأخذوا يطلقون على ابن الفارض لقب «سلطان العاشقين»، وعلى رابعة العدوية لقب «شهيدة العشق الإلهي».

الأمر الذي جعله رحمه الله يقول[4]- بعد أن ذكر ما جاء في لسان العرب عن معنى العشق:- ولا يجوز مطلقاً تسمية حب الله لعبده بالعشق، ولا تسمية حب العبد لربه، وذلك لأمرين:

أولهما: أنه لم يرد هذا الإطلاق لا في الكتاب ولا في السنة.

والآخر لما يكتنفه من نقص وخسة.

---

(1) من كتابات قضايا التصوف: تأليف الدكتور محمد السيد الجليند ص69.

(2) نفس الصدر السابق (ص71).

(3) المصدر السابق (ص73).

(4) مجلة الهدي النبوي عدد 2 لسنة 1383ه.

ولقد ذكر القشيري على لسان أبي علي الدقاق قوله:«لا يوصف الحق سبحانه بأنه يعشق»، قد يقول من يحبون دائماً الاعتذار عن الخطايا، والوثنية فلنجرد «العشق» مما يدل عليه من معنى لا يليق بجلال الله سبحانه وكماله، وقد يقول أيضاً:«وهل من الواجب أن نتقيد فيما نخبر به عن الله بما بين الشرع».

وإننا نؤكد لهؤلاء الذين لا يحبون إلا تلمس المعذرة لخطيئة الإلحاد وعمه الوثنية:إن اللفظ إذا جرد من معناه، صار لا مفهوم له، ولا يجوز الدين ولا العقل، بل ولا العرف الذي يحكمه ضمير، أن نطلق على الله ما ليس له معنى ولا دلالة!!

أو نقول على الله ما ليس لنا به علم، أو أن نصفه ونسميه بغير ما وصف وسمى به نفسه.

ونقول كذلك: إن الاعتصام بما وصف الله أو سمى به نفسه، أو وصف به وسمى صلة عبادة به وصلته بعباده وهو من أسس التوحيد القوي الصادق، ومقوم أصيل من مقومات الإيمان.

والحب عند الصوفية:

يقول الطوسي[1]: أهل المحبة على ثلاثة أنواع:

الحال الأولى: محبة العامة، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم.

ثم تحدث عن شرط هذه المحبة فنقل مما ذكره سهل بن عبدالله عنها.

موافقة القلوب لله، التزام الموافقة لله واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، مع دوام الاشتهار بذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل.

والحال الثانية: وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين، وبين أن من صفاتها وشروطها هو:«**إمّحاء إرادات المحب وصفاته».**

الحال الثالثة من المحبة:

فهي محبة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى، بلا علة فكذلك أحبوه بلا علة.

وقد سئل الجنيد – كما يذكر الطوسي – عن هذه المحبة فقال:«دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب».

وقال عنها ذو النون[2]: إنها سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله، فكذلك المحب لله.

---

(1) انظر ص75 وما بعدها «اللمع».

(2) ذو النون المصري: هو ثوبان بن إبراهيم النوبي، توفي سنة 245ه، يعتبره كتاب الصوفية مؤسس طريقتهم في المعرفة والمحبة، بل هو الواضع الحقيقي لأسس التصوف وأول من تكلم عن المقامات والأحوال، وهو من قرية أخميم بصعيد مصر، ولقد عرف ذو النون بمذهبه الخاص في المعرفة الذي هو أقرب إلى العرفان والغنوصية منه إلى المعرفة العقلية، فلقد سأله مريدوه:

ويفند الشيخ عبدالرحمن الوكيل هذه الدعاوى فيقول: إن المرتبة الأولى التي ذكرها الطوسي هي أسمى المراتب وأعظمها، وشرطها كما ذكر الطوسي هو حسن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والتزام الطاعة لله والخشية منه، غير أن الصوفية تحكم على هذه المرتبة بأنها مرتبة العوام، تحكم على قول الله:﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، بأنه تعبير عن حب العوام، لماذا تحتقر الصوفية هذه المرتبة؟

لأنها تفرض على العبد أن يعبد الله بما أمر أن نعبده به، والصوفي الحق قد لا يقوم بعبادة، ولا يلتزم بطاعة؛ لأن العبادة والطاعة تستلزم التفرقة بين الرب والمربوب، تستلزم الإيمان بوجود عابد ومعبود، أو مطيع ومطاع، وفي هذا ثنائية تمقتها الصوفية.

والمرتبة الثانية لا يرتضيها الصوفية أيضاً؛ لأن فيها حلول إرادة الله وصفاته محل إرادة العبد وصفاته، وهذا الحلول يستلزم أن يشعر السالك بأنه غير وسوي!!

لأنه يكون شاعر بإرادة فانية هي إرادته، وأخرى باقية هي إرادة الله، شاعراً بصفات قد أمحت هي صفاته، وأخرى قد ثبتت له صفات الله، وهذا الشعور يناقض صرافة الوحدة.

أما المرتبة الثالثة، فهي مرتبة الحب الصادق؛ لأنها توحد بين ذات المحب وذات المحبوب، أو تجعل من الذاتين ذاتاً واحدة؛ ومن الاثنين واحداً يوصف بالخالقية والخلقية!! وهذا معنى قول ذي النون:«سقوط المحبة من القلب والجوارح حتى لا يكون فيها المحبة»، فالمحبة تقتضي وجود اثنين:محب ومحبوب، وسقوطها يقضي على هذه الثنائية؛ إذ ما تم في هذه المرتبة الصوفية إلا محب يحب نفسه، لا غيره، أما القشيري، فلم ينح منحى هذا التقسيم، وإنما ذكر لنا عن شيوخ الصوفية أكثر من تعريف للحب بعضها يوافق المرتبة الأولى عند الطوسي، وبعضها الثانية، وأكثرها يوافق المرتبة الثالثة، ومن هذه التعريفات:«محو المحب بصفاته، وإثبات المحبوب بذاته، حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله عز وجل، وينسى حوائجه إليه، حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك، لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب؛ بفناء علم المحبة، المحبة هتك الأستار، وكشف الأسرار، المحبة استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة، وفناء في هيبة، المحبة محو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات، المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند الشهود لا يوصف.

وأصرح من هذه التعريفات التي تدندن بالوحدة بين العبد والرب هذا القول:«المحبة توجب انتفاء المباينة»، وينقل الجنيد عن السري السقطي قوله:«لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا»[1].

كيف عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، فلولا ربي ما عرفت ربي، وأعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه، وبذلك يعبر عن مذهب مستقل في الفناء والاتحاد. كتاب من قضايا التصوف، للدكتور محمد السيد الجليند (ص85).

(1) ص134 رسالة القشيري.

يقول الرب لعبده: يا ربي، ويقول العبد لربه: يا عبدي، أو يقول الله للعبد: يا الله يا أنا، ويقول العبد لله: يا عبدي يا أنا!!

فالعبودية والربوبية وجهان أو وصفان لحقيقة واحدة، هي حقيقة الذات الإلهية.

وينقل الكلاباذي كلام الصوفية عن الفناء ويقول:«إن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية.

وينقل عن الجنيد أن الفناء حال من لا يشهد صفته، بل يشهدها مغمورة بمغيبها[1].

ولقد تنبه بعض الصوفية إلى ما في القول بالفناء من محاذير ونبهوا عليها، فالطوسي قد أشار في «اللمع» إلى ما يترتب على الفناء من القول بالحلول والاتحاد، وانمحاء صفات البشرية، وقال: وكلاهما محذور شرعاً وعقلاً، كما حذر من ذلك وقال: إن البشرية لا تزول عن البشر، وقال إن البغداديين قد أخطئوا في قولهم أنهم قد دخلوا في صفات الحق عند فنائهم عن صفات الخلق، وقد أدى بهم ذلك إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح.

وعن الفناء والحلول والاتحاد يقول الدكتور محمد السيد الجليند في كتابه «من قضايا التصوف»:

«لقد غالى أصحاب الفناء في مذهبهم ونتج عن هذا الغلو في التعبير عنه مذاهب منحرفة لا علاقة لها بالإسلام أصلاً، ولا تمت إليه بسبب، وإنما هي آثار أجنبية دخيلة على مسيرة الحياة الروحية في الإسلام، سواء وفدت إليها من ثقافة فارسية كما يقول بعض الباحثين أو من أصل غنوصي مسيحي كما يرى البعض الآخر، أو من ثقافة هندية.

وكثير من الصوفية المعتدلين في مذاهبهم قد أعلنوا براءتهم من الحلولين والاتحاديين، فالهجويري في كتابه «كشف المحجوب» يذكرهم بالضلال واللعنة فيقول: وأما الحلولية لعنهم الله بقوله تعالى:﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾.

وهذه الأفكار الجديدة التي طرأت على مسار الحياة الروحية فأبعدتها عن روح الإسلام ومنهجه كما يقول الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند في كتابه «من قضايا التصوف»[2] بدأت من كلام الصوفية عن المحبة أحياناً، وعن المعرفة أحياناً أخرى، ورغم اختلاف كل صوفي في القول عن الآخر في التعبير عما يجده من حاله إلا أن كلام معظمهم في هذه القضايا، مضافاً إليه كلام بعضهم في التوحيد، كان يميل إلى معنى الاتحاد والحلول، الذي هو تطور طبيعي لكلامهم في الفناء والمحبة والمعرفة.

غير أن الحب الصحيح لله ولرسوله يبلغ ذروته عندما يصدق المرء في اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) قضايا التصوف ص(95، 96) بتصرف.

(2) قضايا التصوف (ص74، 75).

ويكفي إنصافاً في العرض أنك تجد الشيخ الوكيل عندما تكلم عن فكرة الحب عند الغزالي قال عنه:«وقد تكلم الغزالي عن حب العبد لله، وعن حب الله لخلقه، وفي كلامه عن الحبين لمعاتٌ من نور الحق ولكنها مغشاة بصوفية كثيفة الظلام».

وقد توصل في بحثه لفكرة الحب عند الغزالي إلى أنه يرى أن من أسباب المحبة المناسبة والمشاكلة؛ لأن شبيه الشيء منجذب إليه.

وأن الحب يثمر نوعاً من الأنس الذي يثمر انبساطاً في الأقوال.

كما أن صفوة المحبين الصادقين عند الغزالي هم من لا يحبون الله خوفاً من النار أو رجاء في الجنة، وإنما يحبونه لذاته[1].

يقول الغزالي:«قال أبو سليمان الداراني: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة»[2].

وينقل عن معروف الكرخي أن تلميذاً له سأله «يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق، فسكت؛ فقال- أي التلميذ – ذكر الموت؟ فقال – أي الجنيد – وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده: إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا».

وينقل الغزالي ونشوة الطرب تستخفه عن علي بن الموفق أنه رأى بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل في الجنة على مائدتين، والملائكة عن إيمانهم وشمائلهم يطعمونهما من جميع الطيبات، ثم رأى رجلاً آخر في سرادق العرش من حظيرة القدس قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى، لا يطرف، فسأل رضوان عنه فأنبأه أن هذا الرجل هو معروف الكرخي، وأنه استحق هذه المنزلة؛ لأنه عبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حباً له، فأباحه النظر إليه يوم القيامة[3]!!

ومعروف هذا الصنم الذي يصدق الغزالي أن له هذه المنزلة كان يقول:«إن كانت لك حاجة إلى الله، فأقسم عليه بي»[4]، فهل بهذا القول الكافر استحق معروف عند الغزالي المنزلة العظمى!

غشيت الصوفية[5] بصائر عشاقها بما تسحر من فنون الخيال الغزالي، والشاعرية الحالمة في الصور البيانية المتأنقة الفتنة، المكحولة الروعة، ذلك ما جعل بعضهم يجادلنا في شأن الصوفية، فيأتينا بأدعية ونجاوى صوفية،

---

(1) مجلة الهدي النبوي عدد 6 لسنة 1383هـ.

(2) ص289 ج4 الإحياء.

(3) ص266 ج4 الإحياء.

(4) ص9 الرسالة للقشيري، ويقول عن القشيري:«يستشفى بقبره».

(5) كتاب هذه هي الصوفية: عبدالرحمن الوكيل ص181 – 185.

فيها وشى السحر الشاعر وفتنته، وبدعاوى فيها روحانية الحق وروعته، ثم يقول: أو من يقولون هذا، نفتري عليهم أنهم غير مسلمين؟!

لهؤلاء الذين خلبهم عشق الصوفية أقول: ما من كهان نحلة ضالة، أو أحبار دين زائف، إلا وناجوا معبودهم، ودعوه بما يخيل إليك من سحره أنه ضراعة نبوة في فجر الوحى، فهل نعدهم مسلمين بتلك النجاوى، وهذه الأدعية؟!

سلوهم قبل الفتنة: لمن هذه النجوى؟ ولمن تضرعون بهذا الدعاء؟ سلوهم عن صفات معبودهم، وأسمائه الحسنى، وعن شرعته التي كلفهم بها، وهناك حين يجيبونكم، توقنون أنهم لا يناجون الله، ولا يدعونه، وإنما يفعلون ذلك لآلهة أخرى ابتدعوها؛ لتعبد من دون الله!

ويذكرنا هؤلاء المسحورون بدعاوى الصوفية؛ إذ يفترون:«كلامنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»، وكذلك زعمت كل فرقة نجمت في الجماعة الإسلامية؛ لتجد لها أنصاراً وأعواناً من الأغرار الذين يخدعهم زيف القول الحلو عن رياء العمل المر! قالتها الشيعة التي تؤله أئمتها، وقالتها المعطلة، وقالتها المجسمة وتقولها القاديانية والبهائية! وقد نقلت لك عن النابلسي – وهو صوفي كبير – دعواه أن وحدة الوجود مستمدة من الكتاب والسنة!

إنك لا تستطيع أن تمنع إنساناً من أن يدعي ما يشاء، ولكن الذي تستطيعه هو أن تبتلي دعواه، وتزنها بميزان الحق من الكتاب والسنة الصحيحة، وثمت تستطيع أن تحكم عليه عن بينة بالصدق، أو الكذب فيما ادعاه، وقد ابتليت معتقدات الصوفية وأربابها وآلهتها، فهل ترى لها أثارة من نسب إلى شرع أو عقل؟

لقد جحدت الصوفية الحقيقة الأولى، تلك التي يقررها الشرع، ويحكم بها العقل، وهي أن الله سبحانه وتعالى مغاير لخلقه في ذاته وصفاته وأفعاله، فكيف تحكم عليها بأنها تؤمن بما يترتب على تلك الحقيقة العليا من حقائق مقدسة؟ ليس المهم أن تقول، بل الأهم أن تعمل بما تقول، فهل يعمل الصوفية بالكتاب والسنة، كما ينافق بعض زعمائهم؟ و!! ومما يجادلنا به عشاق السحر الصوفي قول ابن الفارض:

وإن خطـــــــــرت لي في ســـــــــواك إرادة   علـــى خـــاطري يومـــاً حكمـــت بـــردتي

وعلى ما في هذا البيت من غلو الإسراف في دعوى التجرد[1]، وحقارة الكذب، ومما يجادلنا به هؤلاء أيضاً قول رابعة «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، وإنما عبدتك لذاتك». ثم يهتفون لرابعة شهيدة العشق الإلهي! رابعة التي تزعم أنها تجردت من كل رغبة، أو رهبة، أو طمع، أو خوف.

(1) للإرادة الإنسانية مجال فساح من الخير الذاتي، كإرادة الزواج، وكسب العيش، وإرادة التمتع الروحي بما أبدع الله من جمال في جنات الأرض، وما على من يريد ذلك جناح من الله ذي الرحمة. ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم:«حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وهل الحب إلا إرادة مصممة قاهرة؟ فهل أشرك محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أراد ذلك؟

هؤلاء ينسبون أن رابعة بهذا السحر الصوفي الفاتن تستشرف عزة الألوهية!

وتفتري لنفسها الشائنة مقاماً يسمو عن مقام الرسل الذين جعل الله من صفاقم أن يدعونه: رغباً ورهباً، أو خوفاً وطمعاً، يقول الله عن زكريا وآله:﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [21: 9]، ثم تأمل هذه الآيات التي تنجيك من سحر رابعة:﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [7: 154]، وصف الله من يدعونه خوفاً وطمعاً بأنهم محسنون، والإحسان أسمى مراتب العبادة، وأكمل مقامات العبودية، والعبودية هي غاية الحب، مع غاية التذلل، فما الحب الذي تطفح به مشاعر رابعة؟!

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 15، 16].

إن من أخص خصائص البشرية أنها ترغب وترهب، حتى بشرية الأنبياء والرسل، ترهب وهي أسمى مقاماتها، ومن أصدق الدلائل على الحب المسيطر القاهر، أن يمتلئ القلب رغبة في المحبوب ورهبة منه، رغبة في رضاه، ورهبة من غضبه[1] أو جفاه، فإذا لم تكن ثم رغبة في نواله، فقد سنته، وإذا لم تكن ثم رهبة من عقابه فقد احتقرته، وكلما تسامى الحب، وقيت الرغبة في نوال المحبوب، واشتدت الرهبة من حرمانه، الرغبة والرهبة جناحا الحب اللذان يحلق بهما فوق الذرى، فإذا تجردت منهما كان حبك كاذباً، لا يقهر منك شعوراً، ولا يوجه إرادة.

ولكن رابعة تزعم أنها تجردت من تلك البشرية الطهور، بشرية القديسين، بشرية أولي العزم من الرسل، فماذا وراء هذا الزعم؟ وراءه أنها في قمتها العليا لا تدنو منها مكانة المصطفين الأخيار من أنبياء الله، وراءه أنها ليست بشراً، بل إلهاً، فالملائكة أنفسهم يرغبون، ويرهبون! وراءه اتهام صريح لمن نزل القرآن – وتعالى الله عن إفك رابعة – بأنه أخطأ حين أمرنا أن ندعوه خوفاً وطمعاً، وداجى حين رغبنا في الجنة، وخوفنا من النار.

دعواها التجرد شعور منها – وما أخبث هذا الشعور وأكذبه – بأنها ساوت من تحب!! ثم من رابعة هذه! أليست هي التي تقول عن الكعبة:«هذا الصنم المعبود في الأرض»[2]؟

ثم اقرأ هذه الآية:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [66: 11]، هذه القديسة العظيمة التي طيب الله ذكرها، وخلده في كتابه، وضربها مثلاً للذين آمنوا، إنها تضرع إلى الله، ليبني لها بيتاً في الجنة، أما رابعة التي لا تزن في القيمة خاطرة من امرأة فرعون، فتستعلي أن تطلب الجنة! واقرأ النور في قوله سبحانه:﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ

---

(1) وجزاء رضوان الله في الآخرة الجنة، وجزاء غضبه فيها النار، فإذا لم ترغب في جنته فأنت غير راغب في رضاه، وإذا لم ترهب ناره، فأنت لا ترهب غضبه، وإذا لم ترغب الرضا، وترهب الغضب، فأنت دعي حب كذوب.

(2) ص38 وما بعدها كتاب «شهيدة العشق الإلهي» دكتور بدوي.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [9: 111]، والقرآن وعدٌ كريم من الكريم القادر يشتري به نفس المؤمن وماله، وما ذلك الوعد؟ أن تكون له الجنة، وقد وصف وعده في ختام الآية بقوله تعالى:﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ولكن رابعة في تعاليها الجاحد، لا تراه فوزاً عظيماً، فتطلب غيره! أليس هذا اتهاماً للكريم بالبخل، أو بأنه لم يحسن الوعد، ولا شراء نفس المؤمن وماله بالجنة؟!

وينتفض هؤلاء إعجاباً بمعروف الكرخي[1]، إذ يروون عنه أنه بال على شاطئ نهر، وتيمم، فقيل: يا أبا محفوظ، الماء منك قريب، فقال:«لعلي لا أبلغه»[2].

أيوجد من يجرؤ على القول بأن رابعة والكرخي وأضرابهما من مخابيل التصوف؛ وعرابيد سكره وفجره يساوون شسعاً من نعل خليل الله إبراهيم، وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم؟ إن واحداً منهما لم يتكلم عن حب الله بما يزعم الصوفية أن الله أوحاه إليهم!! أهم خير عند الله من خليله وخاتم رسله؟ وهل ينتسب هذا العشق الصوفي وعهره إلى ملحة من نور حب النبوة وطهره؟

عشق الصوفية في مجونه وعربدته:

يزعم التصوف في عهره الماجن أن حب الله يوجب عليهم محبة كل شيء، حتى الخطيئة!! ولقد عثر شيخ الإسلام ابن تيمية بواحد من هؤلاء فلامه على مجونه وإباحيته، فقال الصوفي الماجن: المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراده، فأي شيء أبغض منه؟!

فقال ابن تيمية: لهذا الإباحي الصوفي: إذا كان المحبوب قد أبغض أفعالاً وأقوالاً وأقواماً، عاداهم، فطردهم، ولعنهم، فأحببتهم تكون موالياً للمحبوب أو معادياً له؟

قال شيخ الإسلام الجليل:«فكأنما ألقم حجراً، وافتضح بين أصحابه»[3].

لقد زعم أدعياء الحب أنهم من أجل الله يحبون كل شيء، حتى الأجساد التي اتخذتها الخطايا حمأة لها، وتعبيراً عن فسوقها، لأن كل شيء يحكي عن جمال الله وبهائه، ثم تطور زعمهم هذا، فقالوا: إنهم من أجله يعبدون كل شيء عين ذاته، وسيأتي – بمشيئة الله – هذا الأخير، يقول ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه، فالحب ديني وإيماني

---

(1) توفي سنة 200ه، وكان يقول:«إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بي» انظر ص9 الرسالة للقشيري مطبعة التقدم، فتأمل منذ متى كفرت الصوفية؟!

(2) ص83 طبقات الصوفية للسلمي، وقد نسبه أبو طالب إلى الرسول، انظر ص9 ج3 قوت القلوب – ط 1351ه.

(3) ص14 ج3 مدارج السالكين.

أيعبر هذا الشعر عن سمو الحب لله، كما يزعم بعض الذين فتنهم سحر ابن عربي؟ أو بعض الذين خدعهم الاستعمار عن أنفسهم، فظنوا أن التعصب الديني شر كبير[1]، نعم إن التعصب شر كبير، إن كان عن عمى وجهالة وضلالة، إن كان في سبيل تأريث أحقاد، وأضغان، إن كان ذياداً عن أساطير، لكنه يكون هو الخير والحق إذا كان عن بينة، وفي سبيل إعلاء كلمة الله.

وكل الذين يذمون التعصب الديني لا يذمونه إلا حين يرون مسلماً يجالد في قوة وشكيمة دون حرمات الله سبحانه، على حين يرون هذه المعصية خيراً، وحقاً إذا أجج أوراها صليبي أو صهيوني ويسمونها شجاعة أدبية فائقة.

إن دليل الحب الصادق هو أن يحب المسلم ما يحب الله، وأن يكره ما يكره، فهل يحب الله الأوثان والصلبان وعبدة الشيطان؟ حتى يجوز لمسلم أن يمجد ابن عربي في نزعته تلك.

إن ابن عربي في قصيدته تلك التي تستخف شهوات الأهواء الدنسة يعاند الله، ويجحد بكتابه الحق.

وإنني كلما ذكرت ابن عربي أتذكر قول الله سبحانه وتعالى:﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

  

(1) انظر ص146 القضايا الاجتماعية الكبرى للدكتور عبدالرحمن شهبندر، فثمت دفاع مستميت عن نزعة ابن عربي هذه وإعجاب بالغ بها، وقد تأثر الدكتور في هذا في بدعاة التبشير وفلاسفة أوربا مثل الدكتور هوردبلي الذي كان رئيس أعظم مؤسسة للتبشير في الشرق، وهربرت سبنسر وغيرهما.

القطب الغوث

من الخرافات المنتشرة بين جموع المتصوفة خرافة القطب الغوث، وقد نشأت فيهم نتيجة ادعاء الصوفية بأن لكل نص ديني ظاهراً وباطناً، ولهذا كان الدين في نظر الصوفية «شريعة» و«حقيقة».

فأما الشريعة فهي تلك التي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل بما توجيه، وقام عليها بعده صفوة أصحابه، وأقاموها قولاً وعملاً واعتقاداً وسلوكاً وخلقاً، وأما الحقيقة كما تزعم الصوفية – فهي تلك التي كتمها الرسول صلى الله عليه وسلم – وحاشاه – أن يكتم شيئاً عن أمته، لهم فيه خير وصلاح.

كما تدعي الصوفية أن الداعين إلى الشريعة، هم الرسل، وأن الداعين إلى الحقيقة هم الأقطاب.

وحيث أن الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – كان من أبرز الدارسين الفاهمين والفاقهين للجو الفكري عند الصوفية وما يفرزه من قضايا تتمثل في فكرة القطبانية، والمملكة الباطنية والديوان، فقد وفقه الله لأن يجلي ذلك الموضوع ويلقي عليه الضوء من خلال كتابه «هذه هي الصوفية»، وما نشره بعد ذلك من مقالات في «مجلة الهدي النبوي» تحت عنوان «المملكة الباطنية»، والتي تميزت كتابته فيها بالتركيز والترتيب والمنهجية، مما يدل على عمق الفكر عنده ووضوح الرؤيا لديه فيما يكتب، ولعلها من أواخر ما كتب عن التصوف، وكانت تدعوا كلها حول ما تدعيه الصوفية عن: القطب القديم، والقطب الحادث، وحقيقة القطبانية – كما تحدث عنها القاشاني – وعلاقة القطبية، وعوالم القطب، وأسماء القطب، ومكان القطب وذواته، ومدة القطبية، وأعوان القطب وهم:

«الإمامان، الأوتاد، الأبدال، النجباء».

ولا يسعنا الآن إلا أن نسوق لك طرفاً مما كتبه عن هذه القضايا وأولها:

القطب: أسطورة خرافية تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية، وخلعها على وهم باطل سمي في الفلسفة «العقل الأول» وفي الصوفية «القطب».

وقد نقل عن جامع الأصول للكمشانلي: أن القطب «هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، أو الواحد الذي هو موضع نظر الله في الأرض في كل زمان، عليه تدور أحوال الخلق، وهو يسري في الكون، وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وقد يسمى «الغوث» باعتبار التجاء الملهوف إليه»[1].

---

(1) هذه هي الصوفية (ص151، 152).

القطب القديم والقطب الحادث:

والقطب في عقيدة القوم كما يشرحه الكاشاني نوعان[1]:

1- قطب قديم أو معنوي.
2- وقطب حادث أو حسي.

والأول يكون قطباً بالنسبة إلى جميع المخلوقات في عالم الغيب والشهادة، ولا يستخلف بدلاً من الأبدال، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق، وهو قطب من الأقطاب المتعاقبة في عالم الشهادة، لا يسبقه قطب، ولا يخلفه آخر، أو هو كما يقول الكاشاني:«عين الله وعين العالم، الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى»، وهذا معناه أن قطب الأقطاب قديم في ذاته، ويظهر في صور الأقطاب المحدثين.

أما القطب الحادث، فهو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، «أي تحققت وحدته مع الذات»، ويعتبر قطباً بالنسبة إلى ما في عالم الشهادة من المخلوقات يستخلف بدلاً منه عند موته من أقرب الأبدال منه، فحينئذ يقوم مقامه بدل هو أكمل الأبدال[2].

وهذا التقسيم يقوم على أساس من إيمان الصوفية بوحدة الوجود، ولنأت بالضلالة من جذورها لنفهم مرادهم من هذا.

يرى الصوفية أن الله كان وجوداً مطلقاً أو عماء مبهماً مجرداً عن الأسماء والصفات، وقد أراد هذا الوجود أن يتعين، ليعرف نفسه، فتعين في الحقيقة المحمدية، هذه الحقيقة المحمدية هي القطب القديم الذي يتحدث عنه الكاشاني.

وكان للحقيقة المحمدية تعينات وتنزلات وتجسدات، والإنسان الذي تتجسد فيه الحقيقة المحمدية بكل صفاتها وأسمائها التي هي صفات الله وأسماؤه يكون هو القطب لنسبته إلى ما في عالم الشهادة، وهذا هو القطب الحادث الحسي، وهذا القطب الحادث هو في حقيقته القطب القديم، غير أنه سمي حادثاً باعتبار جسده الذي تعينت فيه الحقيقة المحمدية التي هي القطب القديم، وهذا القطب الحادث هو في حقيقته أيضاً الذات الإلهية أليست الحقيقة المحمدية المتعينة في هذا القطب الحادث هي الحقيقة الإلهية؟!

يقول الشعراني في اليواقيت نقلاً عن ابن عربي:«وأما القطب الواحد الممد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حين النشأ الإنساني إلى يوم القيامة فهو روح محمد»[3].

أما الأقطاب الحسية المتعاقبة، فهي تعينات للقطب القديم.

---

(1) مجلة الهدي النبوي عدد 2 لسنة 1386ه.

(2) ص13 ج2 كشف الوجود الغر، للقاشاني، انظر أيضاً مجلة الهدي النبوي عدد 12 لسنة 1368ه.

(3) ص83 ج2 اليواقيت والجواهر.

ويقول الجيلي:«الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي له: محمد، وكنيته أبو القاسم، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان».

قال الشبلي لتلميذه: أشهد أني رسول الله، فقال: أشهد أنك رسول الله[1]، فالإنسان الكامل هو قطب الأقطاب، ولا يوجد عند الجيلي قطبُ، وقطب أقطاب بل كل إنسان كامل – وهو الذي تتعين فيه الحقيقة المحمدية – هو قطب أقطاب، ويفيد قوله تنوع في ملابس، أن قطب الأقطاب يظهر في صور مختلفة، ولكنه واحد في حقيقته مختلف في صوره، وقوله: يظهر في كنائس يفيد أن هذا القطب قد يكون قسيساً، أو أسقفاً نصرانياً أو حبراً يهودياً، وهذه إشارة منه إلى وحدة الأديان، ومن الإنسان الكامل؟ إنه الله عند الجيلي، فهو يقول:«والله هو الولي يعني الإنسان الكامل».

ويقول عنه في مكان آخر:«عليه يدور أمر الوجود، وبه يكون الركوع والسجود، وبه يحفظ الله العالم، وهو المعبر عنه بالمهدي وبالخاتم»[2].

وقد زعم ابن الفارض أنه هو القطب القديم، فما قبله قطب، ولا بعده قطب، لأنه هو الأول والآخر، وهاك ما يقول في تائيته الكبرى.

فـــبي دارت الأفـــلاك فأعجـــب لقطبـــها	يـــط بهـــا والقطـــب مركـــز نقطـــة
المـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــح	وقطبيـــــة الأوتـــــاد عـــــن بدليـــــة
ولا قطـــب قبلـــي عـــن ثـــلاث خلفتـــه	

يقول: إنه الوجود الذي به دارت الأفلاك، وأنه القطب القديم الذي لم يسبقه قطب، ولا يأتي بعده قطب، أما الأقطاب الحادثة، فمسبوقة بأقطاب، ومخلوفة بأقطاب، فكلما انقضى واحد اختير بدلاً منه قطب آخر من ثلاثة الأبدال، أما هو، فهو القطب الدائم السرمدي الممد لجميع الأقطاب أزلاً وأبداً، فهو في آن دائم.

علم القطب: يعلم «علم ما قبل وجود الكون، وما وراءه، ولا نهاية له، ويشهد الذات بعين الذات، ويعلم علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات، وهي الأسماء العالية، ويخصص بأسرار دائرة الإحاطة وجميع الفيوض الإلهية».

ويقول الجيلي عن علمه:«علم العوالم بأجمعها على ما هي عليه من تعاريفها من المبدأ إلى المعاد»[3].

---

(1) ص5 ج2 الإنسان الكامل.

(2) ص51 ج1 المصدر السابق (الإنسان الكامل).

(3) كما وردت مثل هذه المعاني في كتاب «هذه هي الصوفية» (ص153)، وكذا ورد مثلها في كتاب مصرع التصوف للبقاعي (ص225) تعليق (2).

وعلم كل شيء كيف كان، وكيف هو كائن، وكيف يكون، وعلم ما لم يكن ولم لا يكون، ما لم يكن، ولو كان ما لم يكن كيف كان يكون، كل ذلك علماً أصلياً حكمياً كشفياً ذوقياً من ذواته لسريانه في المعلومات علماً إجمالياً تفصيلياً كلياً جزئياً.

هذا علم من تجلى الله عليه بصفة العلم، فما بالك بالقطب؟ وتدبر قول الله:﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾.

فكيف يفتري المبطلون أن قطبهم يعلم غيب السموات والأرض، بل يعلم كل ما كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض؟

حقيقة القطبانية أو خلافته عن الله:

يقول التيجاني الكبير:«والقطبانية هي الخلافة العظمى عن الحق تبارك وتعالى مطلقاً في جميع الوجود جملة وتفصيلاً حيثما كان الرب إلهاً كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من عليه ألوهية لله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائناً ما كان من الحق إلا بحكم القطب، وتوليه نيابة عن الحق في ذلك، وتوصيله كل قسمة إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلاً، فترى الكون كله أشباحاً لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلاً، وقيامه فيها في أرواحها وأشباحها، ثم تصرفه في مراتب الأولياء، فيذوق مختلفات أذواقهم، فلا تكون مرتبة في الوجود للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه، فهو المتصرف في جميعها، والممد لأربابها، وله الاختصاص بالسر المكتوم الذي لا مطمع لأحد في دركه».

  

وبعد أن وقفتك على فكرة القطب، وعلم القطب، وحقيقة القطبانية عند كبار الصوفية، كما جاءت في مجلة الهدي النبوي، أسوق لك ما جاء في كتاب «هذه هي الصوفية» عن خصوصية القطب وأعوانه:

خصوصية القطب:

«قطب الأقطاب في كل وقت لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلاً، وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب، ومن حضرة الشهادة، إلا وعين قطب الأقطاب متمكنة من النظر إليه، لا يحتجب عنه في كل لحظة من اللحظات».

وحسبك هذا من تلك الأسطورة[1] التي ألهتها الصوفية، وجعلت منها رباً أكبر يعبد، ويخشى، ويرهب[2]!!

---

(1) كتب عنه الشيخ عبدالرحمن الوكيل مقالاً ضافياً في مجلة الهدي النبوي.

(2) العجيب أن ابن الحاج – وله سابقة فضل في محاربة البدعة – يؤمن بهذه الأسطورة ويقول عن القطب:«إن الله تعالى يديره في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء» انظر ص328 مشتهى الخارف لمحمد بن الخضر الشنقيطي، وهكذا تقتل الصوفية بسمومها كل من يظن بها ظناً واحداً من خير.

أعوان القطب[1]

أولاً: الإمامان: وهما بمنزلة الوزيرين له، أحدهما لعالم الملك، والآخر لعالم الملكوت.

ثانياً: الأوتاد الأربعة: وقيل هم ثلاثة، كلما مات قطب الوقت أقيم مكانه واحد منهم، وعلمهم فيض من قطب الأقطاب، وإن ماتوا، فسدت الأرض!

ثالثاً: الأبدال: والبدل حقيقة روحانية تجتمع إليها أرواح أهل ذلك الموطن الذي رحل عنه وليه، وعددهم أربعون، اثنان وعشرون منهم بالشام، وثمانية عشر بالعراق!

رابعاً: النجباء: وهم دون الأبدال ومسكنهم مصر! وعملهم أن يحملوا عن الخلق أثقالهم وعددهم سبعون!

خامساً: النقباء: وعددهم ثلاثمائة، وقيل: خمسمائة، وهم الذين يستخرجون خبايا الأرض.

تصرف القطب[2]: يقول أبو الحسن الشاذلي:«له التصرف العام والحاكم الشامل التام في جميع المملكة اللإلهية، وله بحسب ذلك الأمر والنهي والتعزير والتوبيخ والحمد والذم على حسب ما يقتضيه مراد الخليفة سواء كان نبياً أو ولياً متسوون في هذه المرتبة والرسول ليس له عموم الأمر والنهي إلا ما سمعه من مرسله لا يزيد وراء ذلك شيئاً، فالخليفة الولي أوسع دائرة في الأمر والنهي والحكم من الرسول الذي ليس بخليفة، وله تحريك الجمادات وكل حي والإمارة على كل شيء، والتعظيم على كل شيء؟ ولا يصل إلى الخلق شيء كائناً ما كان من الله إلا بحكم القطب»[3].

مدده: ومن القطب يتفرع جميع الأمداد الإلهية على جميع العالم العلوي والسفلي.

من خصائصه: ومن خصائصه أنه يختلي وحده بالله تعالى.

علامة القطبية: سئل الشعراني: ما علامة القطب، فإن جماعة في عصرنا قد ادعوا القطبية؟ فأجاب عن هذا السؤال بقوله:«ذكر أبو الحسن الشاذلي أن للقطب خمس عشرة علامة: أن يمد بمدد العصمة والرحمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحلم، والفضل بين الموجودين وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، وما ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم وما بدا من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه».

وينقل عن ابن عربي بعض علامته أيضاً: وهي التحقق بمعاني جميع الأسماء الإلهية بحكم الخلافة هو مرآة الحق تعالى، ومجلى النعوت المقدسة، ومحل المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وصاحب علم سر القدر، وله علم دهر الدهور كثير النكاح راغب فيه محب للنساء.

---

(1) روت تفصيلات أعوان القطب في مجلة الهدي النبوي عدد 3 لسنة 1386هـ.

(2) مجلة الهدي النبوي عدد (3) لسنة 1386 ص12 إلى ص15.

(3) النصوص السابقة ص40، 50، بغية المستفيد ص79 وما بعدها ج2 جواهر المعاني، ص79 وما بعدها ج2 اليواقيت.

عوالم القطب: له – كما ذكر الجيلاني – ستة عشر عالماً إحاطياً، الدنيا والآخرة ومن فيهما عالم واحد من هذه العوالم[1].

تعقيب:

يقول الإمام الجليل ابن تيمية – رحمه الله – عن مذاهب الصوفية:«اعلم هداك الله وأرشدك أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده، ولا يحتاج مع حسن تصوره إلى دليل آخر».

ثم يقول:«وكل من يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين، إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً أو جامع بين الوصفين، وهذه حال أتباع فرعون وحال القرامطة مع رؤسائهم وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون»[2].

حق ما يقوله الإمام الكبير، فالأمر لا يحتاج إلى دليل تثبت به فساد وضلال مختلقي أسطورة القطب، لأن مجرد قراءة ما كتبوه عنه يكفي في بيان أنها أسطورة.

أسماء القطب:

واسم القطب في كل زمان: عبدالله وعبدالجامع[3]، أما الأقطاب الذين تولوا القطبانية من آدم إلى محمد، فقد لقيهم ابن عربي في مدينة قرطبة، وهم خمسة وعشرون، وهذه هي أسمائهم:«المفرّق، مداوي الكلوم، البكاء، المرتفع، الشفاء، الماحق، العاقب، المنحور، شجر الماء، عنصر الحياة، الشريد، المراجع الصائغ، الطيار، السالم، الخليفة، المقسوم الحي، الرامي، الواسع، البحر، الملصق الهادي، المصلح، الباقي»[4].

مبايعة القطب:

يقول الشعراني:«فإن قلت: فهل يحتاج القطب في توليته إلى مبايعة في دولة الباطن كما هي الخلافة في الظاهر؟ فالجواب: نعم، كما قاله الشيخ في الباب السادس والثلاثين وثلاثمائة[5]، وعبارته:«اعلم أن الحق تعالى لا يولي قط عبداً مرتبة القطابة إلا وينصب له سريراً في حضرة المثال يقعده عليه، فإذا نصب له ذلك السرير،

---

(1) ص40 بغية المستفيد.

(2) ص4 رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين.

(3) ص82 ج2 اليواقيت.

(4) ص10 الكبريت الأحمر للشعراني المطبوع على هامش اليواقيت ج1، وانظر ص83 ج2 من اليواقيت، وهل كان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أقطاب؟ كل فرقة نسبت إلى شيخها أنه كان كذلك، وكل شيخ نسب إلى نفسه هذا كابن عربي وابن الفارض والتيجاني والجيلاني ويوسف العجمي وأبي السعود وغيرهم، أما الإمام الشافعي رضي الله عنه، فقد أبى هؤلاء أن يلحقوه بمقام هؤلاء، فقالوا عنه: إنه وتد فحسب، وأما أحمد بن حنبل رضي الله عنه فصديق فقط!! يفتري هذا ابن عويس زاعماً أن الذي علمه ذلك هو الخضر حينما اجتمع به (ص81 ج2 يواقيت).

(5) يعني من الفتوحات المكية.

فلا بد أن يخلع عليه جميع الأسماء الذي يطلبها العالم وتطلبه، فإذا قعد عليه قعد بصورة الخلافة[1]، وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة، واعلم أن أول من يدخل عليه الملأ الأعلى على مراتبهم الأول فالأول، فيأخذون بيده على السمع والطاعة، وأول من يبايعه العقل الأول، ثم النفس، ثم المقدمون من عمار السموات والأرض من الملائكة المسخرة، ثم الأرواح المدبرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت، ثم الجن، ثم المولدات، ثم سائر ما سبح لله تعالى من مكان ومتمكن ومحل وحال فيه»[2].

مكان القطب:

يقول الشعراني:«فإن قيل: هل يكون محل إقامة القطب بمكة دائماً كان مشهوراً؟ فالجواب: هو بجسمه حيث يشاء الله لا يتقيد بالمكث في مكان بخصوصه، ومن شأنه الخفاء، فتارة يكون حداداً، وتارة تاجراً، وتارة يبيع الفول، ونحو ذلك»[3]، وغير الشعراني يزعم أن مكان القطب الأصلي هو مكة.

ذوات القطب:

يذكر الخواص أن للقطب ستاً وستين وثلاثمائة ذات، واحدة منهن بمكة لا تبرح منها ما دام حياً، وأما الذوات الترابية فحيث أراد الله تعالى من البلاد[4] أي ذوات بعدد أيام السنة الشمسية في بعض الأحوال.

مقامه ودرجاته: له مائة ألف مقام واثنان وأربعون ألف درجة[5].

---

(1) نص تعبير ابن عربي في الفتوحات:«فإذا قعد عليه بالصورة الإلهية»، وقد قال ابن عربي من قبل في نفس الموضوع:«واعلم – أيدك الله» أن المبايعة العامة لا تكون إلا لواحد الزمان خاصة وأن واحد الزمان هو الذي بالصورة الإلهية في الأكوان، هذا علامته في نفسه، ليعلم أنه هو، ثم له الخيار في إمضاء ذلك الحكم أو عدم إمضائه»، انظر ص180 وما بعدها ج3 المجلد الأول من الفتوحات المكية.

(2) ص8 وما بعدها ج2 اليواقيت، وقد راجعت ما نقله الشعراني عن الفتوحات فوجدته ينقص من الكلمات أو يزيد، حتى لا يظهر عوار شيخه ابن عربي، فابن عربي يقول مثلاً:«اعلم أن الله سبحانه إذا ولى من ولاه النظر في العالم المعبر عنه بالقطب وواحد الزمان والغوث والخليفة نصب له سريراً في حضرة المثال)، فراجع أول ما نقلت عن الشعراني بهذا، وراجع النص كله في الفتوحات يتجلى لك مدى التزييف في نقول الشعراني عن شيوخه ليصوب لهم دينهم بهذا التزييف، ونقل صاحب بغية المستفيد عن ابن عربي ما يأتي:«جرت السنة الإلهية في القطب إذا ولى المقام أن يقوم في مجلس من مجالس القربة والتمكين، وينصب له فيه تخت عظيم ولو نظر الخلق إلى بهائه لطاشت عقولهم، فيقعد عليه ويقف بين يديه الإمامان ويمد يده للمبايعة، وتؤمر الأرواح الملكية والجن والبشر الروحاني بمبايعته، ومن جملة المبايعين له النباتات» ص140 بغية المستفيد.

(3) ص83 ج2 اليواقيت.

(4) ص139 بغية المستفيد.

(5) ص51 المصدر السابق.

هل يعرف الأولياء القطب؟ قالوا: أكثر الأولياء لا يعرفون[1].

هل يموت القطب؟ أما القطب القديم، وهو الحقيقة المحمدية، فأزلي أبدي، أو هو الأول والآخر، أما القطب الحادث فيموت، يعنون يهلك جسمه، وتنتقل الحقيقة المحمدية التي كانت متعينة فيه إلى بدل آخر، فيصبح هو القطب، ولهذا قالوا: القطبية لا تورث[2].

مدة القطبية: قال الشعراني:«ليس للقطبية مدة معينة، فقد يمكث القطب في قطبيته سنة أو أكثر أو أقل إلى يوم إلى سنة، فإنها مقام ثقيل تحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية كلها ملوكها ورعاياها»[3].

النقباء[4]: وعددهم ثلاثمائة، وقيل: خمسمائة، وقيل: أربعون، وهم الذين يستخرجون خبايا الأرض، وقلوبهم على قلب آدم[5].

الضنا والذخائر: بالنقباء تقفل الدائرة التي تبدأ بالقطب وتنتهي إليه أيضاً، وهناك غير هؤلاء من ليسوا من أهل هذه الدائرة، وهم عامة الأولياء، وهم طوائف كل طائفة لها عدد لا ينقص، فإذا مات الواحد منهم خلفه غيره في مرتبته ومنهم طائفة تسمى الضنا وعددهم أربعة آلاف وأخرى تسمى الذخائر، وعددهم أيضاً أربعة آلاف، ومرتبة هاتين الطائفتين أنهم يعتقدون وجود الكون، ولا يرونه لأنهم غرقى في بحار الألوهية[6].

أصحاب النوبة: وهم جماعة من الأولياء منبثون في الأرض لقضاء مصالح الناس وحفظهم ورعايتهم، ولا يجوز لمن هو دونهم من الأولياء أن يتصرف في شيء إلا بعد أن يستأذنهم بقلبه، ومن خالفهم، أو عارضهم، أو تصرف بغير إذنهم قتلوه، كما حدث للخواص لما كثرت منه الشفاعات، فأغضب منه ذلك أصحاب النوبة بمصر، وكانوا عجماً، فطعنوه بخنجر لم يتلقه عنه أحد من الأولياء سوى الشريف المجذوب، ولكنهم طعنوه مرة أخرى بخنجر في مشعره، فقضوا عليه[7]، ويوجد في كل مدينة عدد منهم، وتحت إمرة كل واحد منهم عدد من الملائكة يبلغ السبعين يعينونه في تصرفاته، وهؤلاء الملائكة المعينون لأهل التصرف كما يقول الدباغ

---

(1) ص82 ج2 اليواقيت.

(2) ص83 المصدر السابق.

(3) ص83 المصدر السابق (اليواقيت).

(4) مجلة الهدي النبوي عدد7 لسنة 1386ه ص26-33.

(5) ص334 مشتهى الخارف الجاني، ص49بغية المستفيد 229 نور الأبصار.

(6) ص49 بغية المستفيد.

(7) انظر صفحتي 129-135 ج2 الطبقات للشعراني.

يكونون على هيئة بني آدم، فمنهم من يلقاك في صورة خواجة، ومنهم من يلقاك في صورة فقير، ومنهم من يلقاك في صورة طفل، وهم منغمسون في الناس، ولكن الناس لا يشعرون[1].

وأذكر قولاً أسطورياً جامعاً لكل أطراف الأسطورة، فقد سئل ابن حجر الهيتمي عن عدة رجال الغيب، وعن الدليل على وجودهم، فأجاب:

رجال الغيب سموا بذلك؛ لعدم معرفة أكثرهم، رأسهم القطب الغوث الفرد الجامع جعله الله دائرا في الآفاق الأربعة أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء، وقد ستر الله أحواله عن الخاصة والعامة وغيرة عليه، غير أنه يرى عالماً كجاهل وأبله وتاركاً آخذاً قريباً بعيداً سهلاً عسراً آمناً حذراً، ومكانته من الأولياء كالنقطة من الدائرة التي هي مركزها، به يقع صلاح العالم.

والأوتاد وهم أربعة لا يطلع عليهم إلا الخاصة واحد باليمن، وواحد بالشام وواحد بالمشرق، وواحد بالمغرب

والأبدال وهم سبعة على الأصح، وقيل: ثلاثون، وقيل: أربعة عشر.

وسيأتي حديث أنهم أربعون، وحديث أنهم ثلاثون.

والنقباء وهم أربعون، والنجباء، وهم ثلاثمائة فإذا مات القطب أبدل بخيار الأربعة أو أحد الأربعة أبدل بخيار السبعة أو أحد السبعة أبدل بخيار الأربعين، أو أحد الأربعين أبدل بخيار الثلاثمائة أو أحد الثلاثمائة أبدل بخيار الصالحين، فإذا أراد الله قيام الساعة أماتهم أجمعين، وفي ذلك أن الله يدفع عن عباده البلاء بهم، وينزل بهم قطر السماء.

وروى بعضهم عن الخضر أنه قال: ثلاثمائة هم الأولياء وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض وعشرة هم النقباء وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، وواحد هو الغوث.

---

(1) ص4 ج2 الإبريز للدباغ وقارن بين هذه المملكة الباطنية وبين ما تقوله الغنوصية من أن «الذات الإلهية يصدر عنها العقعل ثم النوس ثم اللوغوس ثم الأنترويوس ويتلوها مقدار كبيرا من الكائنات الروحية أو الأيونات في تدرج تنازلي حتى تصل إلى المادة» والنوس هو النفس، واللوغوس هو الكلمة، والأنتريوس هو الإنسان الكامل. وقد ذكر بعض الصوفية طائفة أخرى وهم الأخيار وهم سبعة والعمد وهم أربعة، ثم قال: يسكن النقباء المغرب، والنجباء مصر، والأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، يقصد في زوايا الأرض، ويزعم أول من تقلد القطبانية من يد المصطفى فاطمة الزهراء مدة حياتها، ثم انتقلت إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم الحسن، أما أبو العباس المرسي، فيؤكد أن أول الأقطاب الحسن بن علي!! هكذا تصور الصوفية عالمها الأسطوري، إنه عالم الشيطان لا عالم الرحمن!! ونعوذ بالله أن نتهم هؤلاء الأخيار من الصحابة والتابعين بما تتهمهم به الصوفية، والغزالي في حديثه عن مراتب التوحيد يقول عن المرتبة الرابعة:«ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء، ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء» (ص131) الإملاء بهامش (ج1) الإحياء، وهكذا أثبت وجودهم وحدد مراتبهم في التوحيد، والمرتبة الرابعة هي الإيمان بأن الخلق عين الخالق، والثالثة هي الإيمان بأن الفاعل لكل شيء هو الله.

وجاء عن علي أنه قال: الأبدال بالشام، والنجباء بمصر والعصائب بالعراق والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر عليه السلام سيد القوم، وفي حديث الإمام الرافعي أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن لله في الأرض ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى، وله سبعون قلوبهم على قلب إبراهيم، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، وواحد قلبه على قلب إسرائيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة يدفع الله بهم البلاء عن هذه الأمة. انتهى كلام الهيتمي بنصه.

ويقول الهيتمي في مكان آخر عن الخطيب البغدادي عن المكناسي أنه قال:

النقباء ثلاثمائة والنجباء سبعون والبدلاء أربعون والأخيار سبعة والعمد أربع والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد زوايات الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد فإن أجيبوا، وإلا ابتهل الغوث، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته. ويقول:«وقد اتفقوا على أن الشافعي كان من الأوتاد»، وفي رواية:«أنه تقطب قبل موته»[1].

رأي ابن تيمية:

يقول شيخ الإسلام رحمه الله:«وأما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث الذي يكون بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة، فهذه الأسماء ليست مدرجة في كتاب الله، ولا هي أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم لا بإسناد صحيح ولا ضعيف محتمل إلا بلفظ الأبدال، فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد[2] عن علي بن أبي طالب مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ، ثم قال:«وأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله تعالى فهو غياث المستغيثين لا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب ولا نبي مرسل، ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر ونزول الرحمة بهم إلى الثلاثمائة والثلاثمائة إلى السبعين والسبعين إلى الأربعين والأربعين إلى السبعة،

---

(1) ص236 وما بعدها الفتاوى الحديثية.

(2) تأمل عدالة ابن تيمية في النقد وتحريه أبعد غايات النزاهة، وقد ذكر ابن تيمية قيمة الحديث بقوله:«منقطع الإسناد مرفوع» وحديث هذا شأنه لا يصلح أن يكون حجة أو دليلاً على شيء!! وقد جاء في الوجيز:«حديث الأبدال أورده عن ابن مسعود وابن عمر وأبي هريرة، والكل لا تخلو عن مجهول وضعيف وواضع»، وفي المقاصد:«حديث الأبدال له طرق عن أنس بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة».

والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله عنهم بقوله:﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، وقال:﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾، فكيف يكن المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعدة وسائط من الحجاب؟ وهو القائل تعالى:﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.

وإذا كنا قد أوردنا قول أكثر من صوفي عن أحوال القطب وعلاماته ومقامته وأعوانه وغير ذلك مما يعتقده الصوفية في المملكة الباطنية فإنما كان ذلك من التكرار في ذكر الأقوال حتى يتبين لنا أن تلك الأسطورة من العقائدة الثابتة عند الصوفية كبيرهم وصغيرهم.

المحكمة الباطنية

كان من النتائج المباشرة لاعتناق فكرة الغنوصية، أن وجدت خرافة المملكة الباطنية، بجناحيها القطب الغوث والمحكمة الباطنية أو «الديوان» أرضاً خصبة عند أولئك الذين يستهويهم الضلال والإضلال، وعمى البصر والبصيرة.

وحسبي الآن بعد أن طوفنا مع كتابات الشيخ الوكيل رحمه الله عن خرافة القطب، وحقيقة القطبانية، كما ذكرها شيوخ الصوفية، وكما نقلها من كتبهم بكل دقة وأمانة.

أن نقف بك عند فكرة الديوان الصوفي الباطن، وأين مكان اجتماعه؟ ومن له حق الحضور، وفيما يقضي هذا الديوان حسب زعمهم، وذلك من خلال كتاب «هذه هي الصوفية» ومجلة الهدي النبوي[1] حتى يستبين لك الأثر السيئ الذي تجره تلك المضامين الباطلة، التي لا تستند إلى دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل ولا يوجد واقع يؤيدها، وبذلك تكتمل عندك سورة «المملكة الباطنية» وما فيها من أساطير، وأول ما نبدأ به من حديث عن هذه العقائد الباطنية ما يسمى:

الديوان أو المحكمة الباطنية:

ولأقطاب الصوفية محكمة باطنية، أو ديوان يجتمع فيه القطب ورجاله، لتصريف أقدار الوجود، ومكان الديوان غار حراء، ووقته ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخيرة ورئيس الديوان هو القطب الغوث، ومكان جلوسه خارج الغار، وعن يمينه يجلس أربعة أقطاب على مذهب مالك، وعن يساره ثلاثة أقطاب من كل مذهب واحد، أما وكيل القطب، ويسمى قاضي الديوان، فيجلس أمام القطب، ومن يتكلم نائباً عن جميع أهل الديوان، وهنالك ستة صفوف من وراء الوكيل، ويتكون الصف الأول من سبعة الأقطاب، ويحضر الديوان بعض الكمل من الأموات، وقد رآهم الدباغ واستقبلوه أحسن استقبال في الديوان، وكيف يحضر الموتى إلى هذا الديوان؟ يجيب الدباغ بأنهم يطيرون إليه من البرزخ بطيران الروح حتى إذا شارفوا الديوان هبطوا إلى الأرض، ومشوا على أقدامهم.

ويشهد جلسات الديوان الملائكة والجن؛ ليعينوا أهل الديوان في تصرفاتهم وأحياناً يحضره النبي صلى الله عليه وسلم، فيتخذ مكان الغوث، ويتخذ الغوث مكان الوكيل، ويدخل الملائكة في نور النبي صلى الله عليه وسلم فلا يظهر منهم ملك، أما في ليلة القدر، فيشهده جميع الرسل والملائكة والرسول وزوجاته جميعاً، والصغار من الأولياء يحضرونه بذواتهم، أما الولي الكبير فيحضره بذات من ذواته، وتبقى في البلد الذي هو فيه ذاته لا تغيب عن أهل البلد.



---

(1) كتاب هذه هي الصوفية (ص159-160) ومجلة الهدي النبوي العدد 5 سنة 1386هـ.

انعقاد الديوان في غير الغار

ويكون الديوان في موضع آخر غير غار حراء مرة في العام في موضع يقال له زاوية «أسا» خارج أرض سوس، بينها وبين أرض غرب السودان، فيحضره أولياء السودان، ويجتمعون في غير هذين الموضعين السابقين؛ لأن الأرض لا تطيقهم[1].

هذا هو الديوان الصوفي، كما وصفه كاهن صوفي كبير نقلته بلفظه نفسه، بل قل: هذه هي أسطورة الوثنية المخبولة الحمقاء، وكم للصوفية مثلها من أساطير.

ومن هذه الأساطير المخذية ما يدعونه من أن غياب القطب الغوث يسبب اضطراباً في الديوان ويحدث بين أهله ما يوجب اختلافهم[2].

وسبب غياب القطب يكون لأمرين[3]:

أحدهما: سكره وفناؤه في مشاهدة الحق، والآخر كونه في بداية توليته عقب موت الغوث الذي كان قبله.

عمل أهل الديوان: حين يجتمع الأقطاب يتكلمون في تصريف أقدار الوجود وفيما يحفظ عليه بقاؤه، وفيما يحتاج إليه أهله في اليوم المستقبل والليلة التي تليه، ولهم التصرف في ملكوت السماوات والأرض، وفي عرش الله وفيما فوق العرش، وفي خواطر الناس وهواجسهم.

ويعقب الشيخ الوكيل على تلك المفتريات بقوله:«الأسطورة أتفه من أن يبذل الحق جهداً، ليقضي عليها ببرهان، غير أن وراءها كتباً، وكبار شيوخ، والذين عميت بصائرهم، وعقولهم يظنون أنه لا يوجد في الكتب إلا الحق، وأن كبار الشيوخ لا يكذبون، يظنون أن الأمر ما دام في كتاب فهو حق، وما دام يجري على لسان شيخ كبير فهو صدق بيِّن، آمنوا بكتب الناس وبالشيوخ، وكفروا بكتاب الله وبالرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هذا أُتي المقلدون في دينهم وعقولهم».

يقول ربنا سبحانه:﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾، وهؤلاء الشيوخ يحكمون بأن لهم أولياء من دون الله يدبرون الأمر من السماء إلى الأرض، مما فوق العرش، وأن الأمر كله يعرج إلى القطب الغوث الذي يعلم الغيب والشهادة.

وجرياً على طريقة الشيخ الوكيل ومنهجه في الكتابة، حيث إنه كان يسوق في مقابل كلام شيوخ الصوفية من الأدلة ما يظهر بطلانه مستهدياً في ذلك بما جاء في كتاب الله تعالى، تجده تحقيقاً لذلك المنهج يسوق في

(1) (ص2-9ج2) الإبريز للدباغ.

(2) هذه هي الصوفية ص193.

(3) مجلة الهدي النبوي عدد 5لسنة 1386ه ص17.

مقابل عقيدة الباطنية عن القطب الغوث، والديوان الباطني من الآيات الكريمة التي تبين ما كان يعتقده طواغيت الجاهلية من مشركي العرب في ربهم، حتى نقارن بين عقيدة هؤلاء المشركين، وما يذكره هؤلاء الشيوخ عن أقطابهم وأوتادهم وأنجابهم ونقبائهم، إذ يقول:

إن أقوى الأدلة الاعتراف، وبعد هذا تدبر هذه الآية الكريمة:﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾اعتراف صريح واضح من المشركين بالربوبية، وتدبر هذه الآيات المحكمات:﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)﴾.

إيمان بأنه سبحانه وحده هو المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء والمدبر وحده لكل أمر.

إيمان بأنه هو الذي[1] يجير عباده وحده، إيمان بأن أحداً لا يمكن أن يفر من يد الله ولا أن يمنعه سلطان من سلطانه، إيمان بأنه رب ما يرون، ورب ما لا يرون، إيمان بأنه سبحانه هو عالم الغيب والشهادة، وبأنه رب العرش العظيم، إيمان بأنه يملك سمع كل إنسان، ورغم هذا الإيمان، فقد حكم الله عليهم بأنهم مشركون، فلماذا؟ تدبر قوله تعالى:﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [39: 3]، واقرأ وتدبر:﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [39: 36]، وتدبر:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [39: 38]، وتدبر قوله جل شأنه:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [35: 40].

ذلك الإيمان الذي اتصف به المشركون لن ينفعهم عند الله يوم القيامة، لماذا؟

---

(1) انظر عبدالرحمن الوكيل في كتابه دعوة الحق.

لعلك تدبرت الآيات المحكمات، فعلمت أنهم كانوا يدعون أولياء مع الله ويحبونهم بالخوف والرجاء، فبهذا حكم الله عليهم بالشرك الأكبر، وبالخلود في جهنم، فقارن بين إيمان هؤلاء المشركين، وبين ما يذكره هؤلاء الشيوخ من أقطابهم وأوتادهم وأنجابهم ونقبائهم، بل حتى عن أصغر أوليائهم، فما نسب مشرك – من مشركي الجاهلية – إلى وليه التصرف في شيء من ملكوت الله، غير أنه اتخذه شفيعاً له عند الله، أما أرباب تلك الكتب، فينسبون إلى أوليائهم التصرف في ملكوت السموات والأرض وفي عرش الله سبحانه وأنه لا يصل إلى أحد شيء إلا بعد أن يأذن أولياؤهم، والله يقول:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [8: 24]، وأرباب هذه الكتب يدعوننا إلى الاستجابة لما فيها والذي فيها كفر غليظ، ويخوفوننا بأوليائهم، لأنهم يملكون حتى خواطرنا وهواجسنا ويحولون بيننا وبين قلوبنا؟! ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 43].

فهل تحتاج أسطورة الديوان وأقطابه وهل تحتاج كتبها والشيوخ والمؤلفون لها والمؤمنون بها إلى حجة أخرى تثبت لهم أنهم عبدة أساطير:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ الله قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الْكَافِرِينَ (74)﴾.

  

الشريعة والحقيقة

سبق أن قلنا في سياق حديثنا (بحثنا) عن كتابات الشيخ الوكيل – رحمه الله – أن «الأوراد والأذكار» عند الصوفية، قد استأثرت بجانب كبير من كتاباته في مجلة «الهدي النبوي».

والآن وبعد أن طوفنا مع ما كتبه الشيخ الوكيل – رحمه الله – عن «المملكة الباطنية»، في كتابه «هذه هي الصوفية» وفي مجلة «الهدي النبوي» المجلد (31) تجدنا لنأسف أشد الأسف أن نرى الصوفية تدين بأن لكل نص ديني ظاهر وباطن، وبأن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر، بل لعل أخف تعبير عن هذا المنهج الباطني، ما جاء على لسان الغزالي رداً على من قال له:«ليس الشرع ظاهر وباطن، وسر وعلن، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيهم».

فردَّ الغزالي بقوله:«فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه».

ولكي نعرف معاً هل الأمور حقاً كما يزعمون، فيها جلي وخفي، وأن للقرآن ظاهراً وباطناً، وحداً وقطعاً، وأن واضح علم التصوف كما يفتري «ابن عجيبة» هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن موسى عليه السلام كان يعرف علم الشريعة، وأن الخضر كان يعرف علم الحقيقة.

وحتى يستبين لك الحق من الباطل، نجد لزاماً علينا أن نضع بين يديك ما كتبه الشيخ الوكيل – رحمه الله – في «مجلة الهدي النبوي»[1]، حيث كتب قائلاً:

وكما فعل اليهود فعل الصوفية، فزعموا كما زعم صوفية اليهود، وغيرهم أن الدين شريعة وحقيقة، أو ظاهر وباطن، يقول ابن عجيبة، عن علم التصوف:«وأما واضع هذا العلم، فهو النبي صلى الله عليه وسلم علمه الله له بالوحي والإلهام، فنزل جبريل عليه السلام أولاً بالشريعة، فلما تقررت نزل ثانياً بالحقيقة، فخص بها بعضاً دون بعض، وأول من تكلم فيه سيدنا علي»[2].

وأما الهيثمي فيقول:«الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية، ولها طريقة هي عزائم الشريعة، ونهاية الشيء غير مخالفته له على ما يأتي، فالشريعة هي الأصل، ومن ثم شبهت بالبحر والمعدن واللبن والشجرة، والحقيقة هي الفرع المستخرج من الشريعة، ومن ثم شبهت بالدرر والقبر والزبد والثمرة.

نعم، هنا شيئات: أحدهما: علم صفات القلب، فأهل الحقيقة لهم به اعتناء واهتمام وجد وسلوك طريقتهم موقوف على معرفته، وتبديل صفاته الذميمة، وأكثر أهل الشريعة يهملون ذلك، ويتهاونون به مع كونه فرض عين في الشريعة والحقيقة بلا خلاف»[3].

---

(1) مجلة الهدي النبوي (عدد 10) لسنة 1386ه (ص12 – 17).

(2) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لأحمد بن محمد بن عجيبة الحسني – ط 2 سنة 1331ه القاهرة.

(3) (ص227) وما بعدها.

ثم تكلم عن الأمر الثاني وهو الرخص وبيَّن أن أهل الحقيقة يأخذون بالعزائم وكلام الهيثمي فيه رائحة جبن عن الجهر بحقيقة ما يعتقد، وفيه تناقض ملحوظ وفيه عدوان باغ، وهذا في قوله عن الحقيقة: إنها مشاهدة أسرار الربوبية!! لو قال آيات الربوبية، لأصاب، لكنه تعمد ذكر كلمة أسرار! ومن ذا الذي يشهد هذه الأسرار، وما تلك الأسرار؟ إنها – كما تزعم الصوفية – مشاهدة الذات، ومكاشفتها!

وكان ابن عجيبة صوفياً شجاعاً! نعم، لأنه أفصح فعلاً عن عقيدة الصوفية دون محاورة أو مداورة أو مداهنة، وهذه الصوفية من القول بالظاهر والباطن التحلل من أحكام الشريعة، وانتهاك محارم الله جهرة!

ولهذا يحتجون بقصة موسى والخضر زاعمين أن الخضر كان على بينة من الحقيقة أو الباطن، ولهذا قتل، وخرق السفينة، وكذلك يجوز للولي أن يفعل!

وقد رددت على هذه الفرية في كتابه «مصرع الصوفية»، وخلاصة الرد أن الخضر فعل ما فعل بوحي من الله، فالله يقص عنه قوله:﴿وما فعلته عن أمري﴾ فهل يوحى إلى الولي؟

إن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً للشريعة بدليل أنه حين بيَّن لموسى أقره على ما فعل واعتذر عن اعتراضه الأول.

إن ما فعله الخضر كان بالنسبة له شريعة وحقيقة وظاهراً وباطناً، فهو لم يفعل ما يخالف الظاهر أو الشريعة بالنسبة إلى ما أوحاه الله إليه.

نسأل: أين الشريعة والحقيقة؟ أهما في كتاب في الله أم لا؟ لا يستطيع أحد سوى الكفار أن تبهت القرآن بأنه خلى من الحقيقة، إذن لا حاجة بنا إلى أن نتصوف، بل نحن في حاجة دائماً إلى أن نكون مسلمين، وكتاب الإسلام كتاب الله سبحانه.

ويطيب لي أن أنقل هنا ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية عن القرآن بعد أن تكلم عن بعض الكتب السماوية:«وأما القرآن، فإنه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتاب آخر، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن، وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب، فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه قرر ما فيها من الحق، ويبطل ما حرف منها، وسينسخ ما نسخه الله[1]، فيقر الدين الحق، وهو جمهور ما فيها، ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها، والقليل الذي نسخ فيها؛ فإن المنسوخ قليل جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر، والأنبياء كلهم دينهم واحد»[2]، وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم، ولهذا كان من صدَّق محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد صدق كل نبي، ومن أطاعه، فقد أطاع كل نبي، ومن كذبه فقد كذب كل نبي، ومن عصاه، فقد عصى كل نبي، قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ

(1) يعني ما نسخه الله من الشرائع السابقة.

(2) هو دين الإسلام.

يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك من كان من الملاحدة والمتفلسفة طاعناً في جنس الرسل بأن يزعم أنهم لم يعلموا الحق، أو لم يبينوه، فهو مكذب لجميع الرسل كالذين قال الله فيهم:﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

ثم يقول:«وكثير من أهل الكلام والتصوف لا يؤمن بحقيقة النبوة والرسالة، بل يقر بفضلهم في الجملة مع كونه يقول: إن غيرهم أعلم منهم، أو أنهم لم يبينوا الحق، أو لبَّسوه، أو أن النبوة هي فيض يفيض على النفوس من العقل الفعال، فهؤلاء يقرون ببعض صفات الأنبياء دون بعض، وهؤلاء يكون أحدهم شراً من اليهود والنصارى»[1].

وصوفية ابن عربي وابن الفارض والحلاج والبسطامي والشبلي لا تؤمن بأن القرآن فيه الحقيقة، كلهم يعتقدون أن نصوص ابن عربي أو تائية ابن الفارض هي خير من القرآن، ولهذا صرح التلمساني بقوله:«القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا».

ولو أنهم كانوا على غير هذا الدين لرأينا منهم الحفاوة البالغة بتدبر القرآن والدعوة إليه، وتذكر الناسي به، ولكنهم فيما يؤلفون ويذكرون ويدعون إنما يحاولون تحدي القرآن بالتراث الصوفي.

أما الغزالي فيقول في الإحياء رداً على من قاله له:«ليس الشرع ظاهر وباطن وسر وعلن، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيهم، رد الغزالي بقوله:

«فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً، وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترقّ إلى شأو العلا، ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع، قال صلى الله عليه وسلم:«إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحدًّا ومطلعاً»[2].

ثم مضى يأتي بأحاديث ما تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى بعض منها ولكنها لا تشهد لما يقول، ثم قال:«قال سهل التستري: للعالم ثلاثة علوم: علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد. وقال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر،

---

(1) (ص203) وما بعدها ج1 مجموعة الرسائل الكبرى.

(2) رواه ابن حبان من حديث ابن مسعود بنحوه، وحديث مثل هذا لا تثبت به حقيقة دينية، وقد جاء به الشعراني مفصلاً:«إن لكل آية ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً إلى سبعة أبطن إلى سبعين»، فالظاهر هو المعقول والمقبول من العلوم النافعة التي تكون بها الأعمال الصالحة، والباطن هو المعارف الإلهية، والمطلع هو معنى ما يتحد فيه الظاهر والباطن والحد يكون طريقاً إلى الشهود الكلي الذاتي» ص6 الطبقات، أي يشهد ذات الله.

وقال بعضهم: للربوبية سر، لو أظهر لعطلت النبوة، وللنبوة سر لو انكشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام».

ثم يقول عن أصحاب المكاشفات:«إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه فظهروا إلى السمع – أي إلى كلام الله ورسوله – والألفاظ الواردة، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه، فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد، فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف.

ويتكلم عن علوم الآخرة فيقول: إنها قسمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة.

ثم يقول: فالقسم الأول علم المكاشفة، وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم[1]، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله، وأقل عقوبة لمن ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً، وهو علم الصديقين والمقربين».

ثم يقول: وهو أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور[2] أقصاها يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله، وهولوا المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار، وهذا هو العلم الخفي الذي أراده صلى الله عليه وسلم بقوله: إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى، فإذا انطلقوا به لم يجهله إلا أهل الاعتزاز بالله تعالى»[3].

ثم يقول:«وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب، كان الإمام الشافعي يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب، ويسأله: فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي، فيقول: هذا وفق لما أغفلناه، وكان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي، و لم يكن في علم الظاهر بمترلتهما، وكانا يسألان، ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت»[4].

---

(1) ولهذا يزعم أن هذه العلوم ذكرت بالإشارات دون العبارات وبالرموز دون التصريحات، وأن لوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها مما لا يفهمه إلا المتخصصون (ص179) الإملاء للغزالي بهامش ج1 الإحياء.

(2) منها نزول الله، والقرب منه والنظر إلى وجهه، ومعرفة ملكوت السماوات والأرض كما ذكر الغزالي.

(3) رواه الصوفي أبو عبدالرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف بإسناد ضعيف، وهكذا يعتمد الغزالي على الصوفيات الكاذبة!

(4) النصوص الغزالية عن الجزء الأول من الإحياء ص88 وما بعدها ثم ص18 وما بعدها، ويقول ابن الجوزي:«و لم يتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جارى المتصوفة، فجاءوا بوضع أهل الخلاعة، فأول ما وصفوا أسماء، وقالوا حقيقة وشريعة، وهذا قبيح؛ لأن الشريعة ما وصفه الحق لمصالح الخلق، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين وكل من

ولو ذهبنا نستقصي النصوص من الإحياء وغيره، لكتبنا عشرات الصفحات، فحسبك هذا من الغزالي الذي يهدف – كما ترى – إلى تحقير علم الشريعة وأئمته، ويوجه قلوبنا إلى الصوفية بما فيها من ضلالة وحقد وبهتان، ويوجب إخضاع آيات القرآن لما ينكشف للصوفي، أو لهوى الصوفي.

  

رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع» (ص373 تلبيس) قسم الصوفية أعمال التصوف إلى ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة وعمل الحقيقة، فالشريعة: أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده. (ص10) شرح ابن عجيبة. والقصد تتضمنه العبادة فلا حاجة إلى الطريقة. والشهود الذات محال فلا حقيقة للصوفية.

ويقول ابن الفارض:

ولا تـــك ممـــن طيشـــته دروســـه بحيـــث اســـتقلت عقلـــه واســـتفزت

فـــثم وراء النقـــل علـــم يـــدق عـــن مـــدارك غايـــات العقـــول الســـليمة

تلقيتـــه مـــني، وعـــني أخذتـــه ونفســـي كانـــت مـــن عطـــائي ممـــدتي

ويعني بالدروس: العلوم النقلية. يحذر ابن الفارض من السير وراء النقل، أي القرآن والسنة، ويفرض علينا أن نأخذ ديننا عن الكشف الصوفي الذي وصفه بأنه يدق عن مدارك غايات العقول السليمة، وهذا معناه أن ما أنزل الله على خاتم أنبيائه لا يمثل الحقيقة، إذ الحقيقة ذوق وجداني صوفي عرفه ابن الفارض وأضرابه فحسب، ثم هو يسير وراء الزعم بأنه هو الله، واقرأ البيت الثالث، فهو قد أخذ الحقيقة عن نفسه؛ لأنه هو المعطي الوهاب.

من شطحات الصوفية[1]

يقال: شطح في القول أو في السير: تباعد واسترسل، وقد صدرت عن الصوفية تعبيرات لا يقولها مسلم، فسماها الصوفية شطحات معتذرين عن أصحابها بأنهم قالوها في حال سكر من لذة المشاهدة! وسنرى أنها ليست شطحات، وإنما هي معتقدات تبرز في صورة كلامية واضحة جلية، غير أن الصوفية – خشية من ثورة الجماعة الإسلامية عليهم – حاولوا أن يخدعوا المسلمين، فأطلقوا عليها شطحات ترائياً منهم بأنها لا ترضيهم جميل الرضا.

والغزالي يعرف الشطح بقوله:«كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معرفة مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظاً»[2]، وقد عرفت قيمة الوجد عند الغزالي، فهو معراج الروح إلى الملأ الأعلى.

من شطحات البسطامي[3] أو معتقداته:

وأبو يزيد البسطامي صوفي يقدسه كل صوفي، وكانت به إثارات من مجوسية لم يستطيع أن يكبتها، يقول عنه الصوفية:«وأشهر من أن يذكر، وأعرف من أن يعرف، وكان نادرة زمانه مالاً وأنفاساً وورعاً».

وهاك بعض قوله:«سبحاني ما أعظم شأني[4]، ما الجنة إلا لعبة صبيان» ودق رجل بابه فقال: من تطلب؟ فقال الطارق: أبا يزيد، فقال أبو يزيد: ليس في البيت غير الله؟ وقوله:«قال لي الحق: اخرج إلى خلقي بصفتي، فمن رآك رآني»، وفسر ابن عربي قوله هذا بقوله:«فمن ظهور صفات الربوبية عليه، ألا ترى خلفاء الحق في العباد لهم الأمر والنهي والحكم والتحكم، وهذه صفة الإله»[5].

وقوله عن الله سبحانه:«رفعني مرة، فأقامني بين يديه، وقال: يا أبا يزيد، إن خلقي يحبون أن يروك. فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك[6]، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا».

وقوله: أول ما صرت إلى وحدانيته، فصرت طيراً جسمه من الأحدية وجناحاه من الديمومية، فلم أزل أطير في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة، فلم أزل أطير إلى أن صرت في

---

(1) مجلة الهدي النبوي – عدد 11 لسنة 1386ه.

(2) ص13 الإملاء الغزالي بهامش (ص1) الإحياء.

(3) طيفور بن عيسى مات سنة 261 أو 234.

(4) قال ابن سالم:«فرعون لم يقل ما قاله أبو يزيد؛ لأن فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، والرب يسمى به المخلوق فيقال فلان رب الدار، وقال أبو يزيد: سبحاني سبحاني».

(5) الكواكب الدرية ج1 للمناوي (ص244).

(6) في ابن الجوزي «ربانيتك».

ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية، ثم وصف أرضها وأصلها وفرعها وثمارها، ثم قال: فنظرت أن هذا كله خدعة».

وقد اجتاز بمقبرة اليهود، فقال: مغرورون، ومر بمقبرة المسلمين، فقال: مغرورون! وقوله:ضربت خيمتي بإزاء العرش[1].

وقال أبو تراب النخشبي لتلميذه:«لو رأيت أبا يزيد؟ فقال التلميذ: من يتجلى له الحق كل يوم مرات ما يصنع بأبي يزيد، فلم يزل أبو تراب يشوقه حتى ارتحل التلميذ إلى أبي يزيد، فقيل له: إنه في الفيضة مع السباع وكان يؤوي إليها، فقعد على طريقه، فعندما وقد بصر الفتى عليه خر ميتاً، فتعجب أبو تراب من ثوبته لتجلي الحق دون رؤية أبي يزيد، فقال أبو يزيد: كان الحق يتجلى له كل يوم على حسب ما عنده، فلما رآني تجلى له الحق على قدري، فلم يطق، فلا عجب»!

أفيقول هذا مسلم؟ وهل يعقل أن الخلق هو الذي يقوم ذات الخالق ومكانته! لا يقدر على هذه الملحدة سوى صوفي!!وقد روى هذه القصة الغزالي، والغزالي ممن يمجدون أبا يزيد، حتى ليقول:«أبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات، وأقصى الدرجات».

وقال أبو يزيد:«وددت أن قد قامت القيامة حتى أنصب خيمتي على جهنم، فسأله رجل: ولم ذاك يا أبا يزيد؟ فقال: إني أعلم أن جهنم إذا رأتني تخمد، فأكون رحمة للخلق».

وقال:«إذا كان يوم القيامة، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فأسأله أن يدخلني النار، فقيل له: لم؟ قال: حتى تعلم الخلائق أن بره ولطفه في النار مع أولياءه».

وقال:«حججت أول حجة، فرأيت البيت، وحججت الثانية، فرأيت صاحب البيت، ولم أر البيت، وحججت الثالثة، فلم أر البيت ولا صاحب البيت».

وسئل عن اللوح المحفوظ، فقال:«أنا اللوح المحفوظ»، وقال تعقيباً على قوله سبحانه:﴿إن بطش ربك لشديد﴾، :«وحياتي إن بطشي أشد من بطشه»، وقيل له: إنك من السبعة، فقال:«أنا كل السبعة»، وقيل له: إن الخلق كلهم تحت لواء محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: والله إني لوائي أعظم من لواء محمد، لوائي من نور تحته الجن والإنس كلهم.

وقال:«ليس مثلي في السماء يوجد، ولا مثلي صفة في الأرض يعرف، أنا هو، وهو أنا، وهو هو».

وقال:«أراد موسى أن يرى الله، وأنا ما أردت أن أرى الله تعالى، هو أراد أن يراني».

ولا تعجبوا أن يقولها أبو يزيد، فهو صوفي! ومع هذا تقول الصوفية:«تسلم له حاله ولعله بها تكلم على حد غلبة وحال سكر»[1].

(1) في كتاب ابن الجوزي «هناك».

شطحات الشبلي[2]: هو أبو بكر دلف بن حجر الشبلي، يقول عنه الصوفية:«كان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً، من شطحاته:«إن محمداً يشفع في أمته، وأنا أشفع بعده في النار حتى لا يبقى فيها أحد». ومنها:«أمر إلى ما لا وراء، فلا أرى إلا وراء، وأمر يميناً وشمالاً إلى مالا وراء، أفلا أرى إلا وراء، ثم أرجع فأرى هذا كله شعرة من خنصري».

سمع قارئاً يقرأ هذه الآية:﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾، فقال: ليتني كنت واحداً منهم، فقال: إن لله عباداً لو بذقوا على جهنم لأطفؤها، فقال:«لو خطر ببالي أن الجحيم بنيرالها وسعيرها تحرق مني شعرة لكنت مشركاً»، وقال:«أيش أعمل بلظى وسقر».

خرج من عنده بعض ضيوفه فقال لهم:«مروا أنا معكم حيث كنتم، أنتم رعايتي، وكلاءتي»، وقال:«لو التفت سري إلى العرش والكرسي لاحترق».

وحكى بعض المشايخ:«وقفت على الشبلي عشرين سنة ما سمعت منه كلمة في التوحيد، كان كلامه كله في الأحوال والمقامات»[3].

شطحات الدسوقي[4]: كان يقول:«أنا موسى في مناجاته، أنا علي في حملاته، أنا كل ولي في الأرض خلقته بيدي، ألبس منهم من شئت، أنا في السماء مشاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي النار غلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس، واعلم يا ولدي أن أولياء الله تعالى متصلون بالله، وما كان ولي متصل بالله تعالى إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه، وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخاً في الأزل بين يدي قديم الأزل، وبين يدي رسول الله، وأن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله، وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي، فخلعت عليهم بيدي، وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا إبراهيم أنت نقيب عليهم، فكنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأخي عبدالقادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبدالقادر، ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لي: يا إبراهيم، سر إلى

---

(1) ص459 اللمع – ط دار الكتب الحديثة – ص66 ج1 الطبقات، ص23 الكواكب الدرية، ص227 ج4، الإحياء ص341 وما بعدها تلبيس إبليس ص156 شرح الحكم لابن عجيبة وأرجو أن تلحظ أنها مصادر صوفية إلا التلبيس.

(2) توفي سنة 334ه.

(3) ص478 اللمع، ص348 تلبيس إبليس.

(4) يقول عنه الشعراني: هو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود فأبرزه رحمة للخلق، وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام، وصرفه في العالم ومكنه في أحكام الولاية، وقلب له الأعيان وحرق له العادات، وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه العجائب، وصومه في المهد» ص43 الطبقات واقرأ قول الله لخاتم أنبيائه وأشرف خلقه:«ليس لك من الأمر شيء»، ثم انظر كيف يزهق حقها القاهر باطل الشعراني الفاجر.

مالك، وقل له: يغلق النيران، وسر إلى رضوان، وقل له: يفتح الجنان، ففعل مالك ما أمر به، ورضوان ما أمر به».

ثم يعقب الشعراني بقوله:«وهذا الكلام من مقام الاستطالة تعطي الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبدالجيلاني، ويتبجح الشعراني، أو يتوقح في تحديه، فيقول عن هذا الشطط الوثني:«لا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح». وهو يعلم أن نصوص القرآن كلها تهدم هذا الباطل الأحمق!

شطحة أخرى:

يقول:«أشهدني الله تعالى ما في العلى، وأنا ابن ست سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ، وأنا ابن ثمان سنين، وفككت طلسم السماء، وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني حرفاً معجماً حار فيه الجن والإنس، ففهمته، وحمدت الله تعالى على معرفته، وحركت ما سكن، وسكنت ما تحرك بإذن الله تعالى، وأنا ابن أربع عشرة سنة والحمدلله».

ثم يقول الشعراني: هذا ما لخصته من كتاب الجواهر له رضي الله عنه وهو مجلد ضخم[1].

فالشعراني – إذن – ينقل عن الدسوقي نفسه، ويسعده ما نقل، فهو شريك الدسوقي في جنايته!

فهل يجوز لمسلم أن يعد صاحب هذا القول من بين المسلمين فضلاً عن إقامة مولد كبير له كل عام؟

بماذا يدافع الصوفية عن الدسوقي؟

وقولوها صريحة مرة: نحن في جانب، والقرآن في جانب آخر! وبيننا وبينه بعد المشارق والمغارب.

شطحة التستري[2]: كان يقول:«أعرف تلامذتي من يوم: ألست بربكم؟ وأعرف من كان في ذلك الموقف عن يميني، ومن كان عن شمالي، ولم أزل من ذلك اليوم أربي تلامذتي، وهم في الأصلاب لم يحجبوا عني إلى وقتي هذا»[3].

وحسبنا هذا من شطحات الصوفية، أو معتقداتهم.

ولا يجوز لمسلم أن يعتذر عن هذا الشطح بأنه صدر في حال سكر!

فالسكران يهذي، ويخرف، ولا يقول كلاماً يرتبط أوله بآخره، أو مبتدؤه بخبره، أو فعله بفاعله! ولكنك تجد في كل ما نقلنا كلاماً وراءه إرادة وقصد وعزيمة، وراءه فكر يوجه، ويختار جيداً الكلمات التي تعبر عن مضمونه، ويوحي إليك بأنه يجب أن تفهم عنه هذا! بل يأتي بعدة مؤكدات، منها تكرار معانيه في جمل مختلفة الصور، ولكنها متفقة في المعنى، فهل يوصف فاعل هذا بأنه سكران؟ ثم أقول: ما الذي أسكره؟

---

(1) ص157 وما بعدها ج1 الطبقات.

(2) هو سهل بن عبدالله المتوفى سنة 283.

(3) ص158 ج1 الطبقات، وكان أبو حمزة الصوفي إذا سمع هبوب الرياح وخرير المياه، وصياح الطيور، ورغاء الشتاء، يصيح قائلاً: لبيك، يريد أن ما يسمع هو صوت الله، ولهذا نسب إلى الحلول ص498 اللمع.

يقولون: رؤية الجمال الإلهي، فهل يصيب جمال الله بالذهول والسكر؟ أو هو يوحي إلى المؤمن بالتهليل والتسبيح والتقديس، ويشعره تمام الشعور بعظمة الله وجلاله وكبريائه، وبأنه عبد ذليل – وفي ذلته عزته – بين يدي الله.

إننا نرى آيات الله في مظاهر الوجود كله، وكل آية تدل على قدرة وحكمة وقيومية وجلال وجمال، فهل في رؤية هذه الآيات ما يصيب من يراها بالسكر؟

الحقيقة أن الصوفية لا يقولون بما أقول، وإنما يزعمون أنه سكر حين رأى الله، ورأى أن كل شيء هو الله، ففنت إنية العبد في هوية الرب، فتحدث المريد عن نفسه باعتبار أنه هو الله.

لأن للحقيقة الإلهية – في دين الصوفية – وجهان أو مظهران؛وجه الخالقية، ووجه الخلقية، أو مظهر الربوبية، ومظهر العبودية، فيقال عن الحقيقة الإلهية: إنها رب باعتبار باطنها وإنها عبد باعتبار ظاهرها، فباطنها ربوبية، وظاهرها عبودية.

فهل يصدق هذا مسلم؟ إن من يقول هذا البهتان الزنديقي يصفونهم بأنهم أقطاب القديسين، وإذا أنكر عليهم رجل كابن تيمية نعتوه بأنه ضال مضل، أرأيت كيف قلب الصوفية الموازين.

وكان أخطر من قرب التصوف في صورة حسنة أبو حامد الغزالي وقد لمح هذه الحقيقة المستشرق جولدزيهر، فقال ما يحضرني معناه الآن:«كان التصوف قبل الغزالي سماً أو بدعة غير معترف به من أهل السنة، فلما جاء الغزالي صالح بين السنة والتصوف».

وقد استدرك الشيخ عبدالرحمن الوكيل على قول جولدزيهر بقوله:«لو قال صالح بين التصوف وقلوب المخدوعين لكان أوفق، فإن السنة لا تصلح تصوفاً؛ لأن التصوف خمول وضعف، وذلة واستكانة وخنوع الألوف من الناس تحت إمرة إنسان قد لا يفقه من دينه شيئاً».

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نذكر أن الشيخ الوكيل كان منصفاً في العرض، فمن ذلك أنك نجده يقول أحياناً:«إن متقدمي الصوفية يخلطون باطلاً بحق وحقاً بباطل».

كما يقول أحياناً أخرى عن بعض الصوفية:«إنه من الموسومين بالاعتدال».

ورغم نقده الشديد لآراء الغزالي إلا أننا نجده أحياناً يقول فيه:«وقد تكلم الغزالي عن حب العبد لله، وعن حب الله لخلقه، وفي كلامه عن الحبين لمعاتٌ من نور الحق ولكنها مغشاة بصوفية كثيفة الظلام».

هذا ما يسر الله لي من الاطلاع عليه من كتابات الشيخ الوكيل عن التصوف من خلال رسالة صغيرة تسمى «صوفيات» وكتابه «هذه هي الصوفية» وكتاب مصرع التصوف – تحقيق – وكتابه «دعوة الحق»، ومقالات في مجلة الهدي النبوي تحت عنوان:«نظرات في التصوف»، وكتابه «زندقة الجيلي».

وهو جهد المقل، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم، وإننا لنضرع إلى الله أن يوفق إلى الخير الذي يحبه ويرضاه إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

جانب من أسماء الكتب التي وردت في البحث
والتي اعتمد عليها الشيخ الوكيل في كتاباته

- الإحياء للغزالي.
- الإملاء للغزالي.
- الرسالة للقشيري.
- الكواكب الدرية للمناوي.
- الطبقات للشعراني.
- تلبيس إبليس لابن الجوزي.
- إيقاف الهمم في شرح الحكم لأحمد بن محمد بن عجيبة.
- اللمع للطوسي.
- مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية.
- جامع الأصول لكمشخانلي.
- الوجوه القر للقاشاني.
- رماح حزب الرحيم لعمر بن سعيد القوتي.
- التصرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي.
- روض القلوب لحسن رضوان.
- قواعد الصوفية للشعراني.
- مصرع التصوف للبقاعي.
- الإبريز للدباغ.
- الإنسان الكامل للجيلي.
- شرح النابلسي للصلاة المشتية.
- معرفة الحقائق لمحمد دمرداش.
- العقيدة والشريعة لجولدزيهر.
- قصة الحضارة ول ديورانت.
- الكواكب الدرية لعبدالرؤوف المناوي.
- من جواهر المعاني في فيض التيجاني لعلي حرازم.

  

فهرس الموضوعات

الشيخ عبدالرحمن الوكيل ومنهجه العلمي
مدخل إلى البحث
معنى كلمة تصوف.
علاقة المريد بشيخه.
السر في لبس الخرقة
الذوق وسيلة المعرفة عند الصوفية
الكشف وأسبابه
الغنوصية
إيمان الصوفية بكتبهم
زعمهم أن كتبهم أسراراً ورموز
الجانب الإلهي في الفكر الصوفي
لم يقول الصوفية بوحدة الأديان
العقل البشري ووجود الله.
التثليث عند الصوفية.
التصوف العملي
أصل الزهد
الذكر الصوفي
كيفية الذكر وصيغه
آداب الذكر
الذكر في الإسلام
السماع والوجد
الأوراد والأذكار
ورد ابن مشيش
ورد ابن إدريس
النبي محمد صلى الله عليه وسلم في نظر الصوفية
الحقيقة المحمدية
كرة من الحق على الباطل

أراء المستشرقين
كل شيء من نور محمد صلى الله عليه وسلم
الأولياء
النهي عن اتخاذ أولياء من دون الله
أنواع الأولياء
الولي في عرف الصوفية
تفضيل خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء
ادعاء كل شيخ أنه قطب وأنه خاتم
عبادة الأولياء في القديم والحديث
عبادة الموتى
أنواع الكرامات
معجزات الرسل
كرامات شتى
المحبة
العشق
القطب الغوث
أعوان القطب
أسماء القطب
مكان القطب
رأي ابن تيمية في قضية القطبانية
المحكمة الباطنية
مكان انعقاد الديوان
الشريعة والحقيقة
من شطحات الصوفية
أسماء الكتب التي وردت في البحث
فهرس الموضوعات

  